المباحث البلاغيّة
في المطبوع من تفسير
مواهب الرحمن

المباحث البلاغيّة
في
المطبوع من تفسير مواهب الرحمن

تأليف

أحمد جاسم آل مسلم الخيّال

الكتاب: المباحث اللغويّة في المطبوعة من تفسير مواهب الرحمن
المؤلف: أحمد جاسم آل مسلم الخيّال
الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠١١ م
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة
المطبعة: دار الضياء للطباعة والتصميم / النجف الأشرف / ٠٧٨٠١٠٠٠٠٦٠٣
الناشر: مكتبة دار المهذب / النجف الأشرف / سوق الحويش / ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

الإهداء

إلى... روح والدي... صوت الروح الخفيض... و....
والدتي... قبس المعنى... والجراح... و...
إلى روح أخي... التي ما زالت تغتسل بالشمس...
وتخيط الجراح... و...
نصف وجهي الآخر...
مع وافر الحب والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

صدق الله العلي العظيم

(البقرة : الآية ٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد نبي الهدى والرحمة، والنور الذي أضاء الظلمة، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورحمة الله وبركاته.

وبعد...

استمدّ هذا البحث مادته من تفسير مواهب الرحمن لآية الله العظمى السيّد عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤ هـ)، وأختصّ ـ أي البحث ـ بدراسة المباحث البلاغية، التي رصدت مبثوثة خلاله، فالبحث في الجمال وإدراك ما في الكلام من روعه يحتاج إلى حسّ بلاغي دقيق والى ملكة متمرسة منفتحة على التراث البلاغي، مزاوجة بينه وبين النظريات المعاصرة بغية الوصول إلى سر جمال القول الآلهي.

وقد اعتنى السيّد السبزواري اعتناءً فائقاً بالبلاغة، واعتمد على مباحثها في الكشف عن أسرار القرآن الكريم، ونادراً ما تجده يشيح بوجهه عن الإشارة إلى جمال الأسلوب القرآني وبلاغته، وتعامل مع كلّ ذلك برؤية، لا أقول تختلف، إلا أنّ لها استقلاليتها، مع عدم تجاوز الإرث البلاغي، فهو كغيره لا بدّ له أن ينهل من ينبوع التراث، وهذا لو يعدم كونه مفسّراً معاصراً له شخصيته الواضحة.

وممّا تجدر الإشارة إليه، إنّ تفسير مواهب الرحمن يتألف من ثلاثين جزءً، تمّ طباعة أربعة عشر جزءً منه، ويتصدى ابنه السيّد علي السبزواري لاتمام تحقيق وطبع الأجزاء المتبقية، وإنّ هذا البحث يتناول دراسة المباحث البلاغية في الأجزاء المطبوعة منه والحق أقول: إنّه في بداية اختياري الموضوع، وبعد أن صعب الحصول على الأجزاء المخطوطة من التفسير ـ بسبب شدّة تحفظ السيّد علي السبزواري ـ راودني أمر البحث عن موضوع آخر، إلا أنّ الاستاذ الدكتور شاكر التميمي رأى غير ذلك، لا سيّما بعد اطلاعه على ضخامة المادة البلاغية التي تضمنها المطبوع من التفسير، وقد أشار علَيَّ الاستمرار في البحث، وتحديده بالمطبوع منه، وأخذت برأيه بعد أن تيقّنت أنّ المادة البلاغية المستخلصة من الأجزاء المطبوعة كانت كافية للإبانة عن جهد المفسّر البلاغي.

وقد دعتني أسباب عدّة لأختيار هذا الموضوع، أوّلها: أنّ السيّد السبزواري كان مفسّراً كبيراً، ويعد (مواهب الرحمن في تفسير القرآن) الموسوعة الفريدة من نوعها حسب المقاييس العلمية والميزان السليم، ومنهجه التفسيري الواضح لأصحاب الخبرة وامتاز بسمات التماثل والاستقلال والتأثر والحدة لذا يتعيّن الوقوف على منهجه البلاغي، ومن ثمّ الكشف عن مدى اسهامه في إثراء البلاغة.

وثانيها: اهتمام السيّد السبزواري الواضح بالبلاغة، وتأكيده في أكثر من موضع على أنّها أحد وجوه الإعجاز القرآني، فهو يجد أنّ القرآن الكريم متضمّن لأسرار البلاغة التي جعلته المعجزة الآلهية لذا تراه عند تفسير الآيات الشريفة يشير إلى فصاحتها وبلاغتها، ولا يكتفي بهذه الإشارة وإنّما يحلّل ويعلّل الأسلوب القرآني وفق الضوابط البلاغية المعروفة مشفوعاً بذوق بلاغي رفيع جعل له رأياً في كلّ ما يناقش.

وثالثها: رغبتي الحقيقية ـ بوصفي باحثاً ـ بالوقوف على أسرار البلاغة، ولم يكن ذلك ليتحقق إلا بإختيار دراسة تدور حول أمثل الأساليب، وهو أسلوب القرآن الكريم، وعلى الدراسة أن تكون معاصرة، لتمثل الدراسات البلاغية السابقة فيها، كي تعينني ـ إن شاء الله ـ في تمثّل الدراسات الأسلوبية الحديثة، التي ارتكزت في مفهومها ومناهجها على تطوّر مفهوم البلاغة.

إنّ تناول المادة التفسيرية يتضمن بالضرورة منهجية خاصّة، لذا فإنّ عرض المادة البلاغية ـ المعنية في هذا البحث ـ لا ينفصل من خلاله منهج التناول عن مادته، بمعنى أنّ التركيز سوف ينصب على المادة وطريقة تناولها، وكان لا بدّ من سلوك منهج يكشف عن جهد المفسّر وتأكد للباحث أنّ المنهج البلاغي يمكن له النهوض بهذه الدراسة والوصول بها إلى مبتغاها شرط أن تكتمل الرؤية وتتضح لأضاءة هذا الجهد البلاغي، وتمّ ذلك من خلال الارتكاز على ما استقر عليه التقسيم الثلاثي للبلاغة، إلى علوم (المعاني، البيان، البديع) وهو المنهج الأكثر واقعية عند تمثّل الدراسات البلاغية.

وكان لا بدّ لي من الرجوع إلى الكتب التي تناولت نشأة البلاغة، محاولاً قدر المستطاع أن أوجز القول بشأن الموضوعات البلاغية التي استعرضها السيّد السبزواري، ليتمّ بذلك تحديد المصطلح البلاغي، لأكونّ فكرة واضحة عن ماهية المباحث البلاغية، لأتمكن في ضوئها أن أتبيّن البلاغة عند السبزواري، وأتبيّن مدى تأثّره بالبلاغيين، ومدى اتباعه لهم ومخالفته إيّاهم.

أمّا الخطة فقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمها على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة عرّفت بالقسم الأول من التمهيد بالسيّد السبزواري، ونقلت نبذة

مختصرة عن حياته ليتسنّى للقارئ التعرّف على بيئته، أمّا القسم الثاني فتكلمت فيه على أثر المفسرين في البلاغة ليتبيّن أثر كتب التفسير الأولى في نشأة البلاغة وتطوّرها.

تناول الفصل الأول (مباحث علم المعاني)، وقد ضمّ هذا الفصل تسعة مباحث كانت على وفق ما يستوجبه طبيعة هذا العلم، ففي المبحث الأول دار الحديث عن الخبر وتوكيده، فضلاً عن الأغراض المجازية المستفادة منه، وتناول المبحث الثاني الانشاء وضمّ قسماً من أنواعه وهي الأمر والنهي والاستفهام مشفوعة بذكر المعاني المجازية التي أفادتها، وقد تجاوزت ذكر القسمين الآخرين منه، وهما (التمنّي والنداء)، لأنّي لم أجد ما يشفع لهما عند صاحب المواهب، فهو لم يعتنِ بهما كأعتنائه بالمباحث الأخرى، وتناول المبحث الثالث التقديم والتأخير ودار الحديث في المبحث الرابع عن التعريف والتنكير، أمّا المبحث الخامس فدرس التغليب، ووقف المبحث السادس عند أسلوب القصر وتناول المبحث السابع الفصل والوصل، والمبحث الثامن اهتمّ بأسلوب وضع الظاهر موضع المضمر، أمّا المبحث التاسع والذي ختم به هذا الفصل فدار الحديث فيه حول الإيجاز والاطناب.

وضمّ الفصل الثاني الذي كان بعنوان (مباحث علم البيان) أربعة مباحث، تناول المبحث الأول الحقيقة والمجاز، ودار الحديث في المبحث الثاني حول التشبيه والتمثيل، وتناول المبحث الثالث الاستعارة، أمّا المبحث الرابع فوقف الحديث فيه عند الكناية والتعريض.

وقسّم الفصل الثالث الذي كان بعنوان (مباحث علم البديع) على مبحثين،

تناول المبحث الأول المحسّنات المعنوية التي جاء على ذكرها صاحب المواهب، وهي (المقابلة و المبالغة والالتفات و المشاكلة الاستخدام والابهام)، أمّا المبحث الثاني فتناول المحسّنات اللفظية التي رصدت في التفسير وهي (الجناس ورد العجز على الصدر وبراعة الاستهلال والاعتراض).

بعد ذلك جاءت الخاتمة، وذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا البحث على المصادر الأساسية التي تناولت البلاغة في مختلف مراحل تطورها، وقد استعنت بها لتقديم موضوع أو لأتمام فكرة أشار لها السيّد السبزواري.

وفي نهاية الكلام، أقول صراحة: أنّه لولا منّة الله سبحانه وتعالى، ومؤازرة ومعونة شيخي الأستاذ الدكتور شاكر التميمي لما استطعت النهوض بهذا البحث، فالله أحمدُ على ذلك حمداً لا ينقطع، وشكراً وعرفانا لشيخي الذي أخذ بيدي ولمّا يزل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

المؤلف

تمهيد

١ ـ تعريف بصاحب المواهب

اسمه ونسبه:

هو السيّد عبد الأعلى بن السيّد رضا بن السيّد عبد علي بن السيّد عبد الغني بن السيّد محمّد بن السيّد حسين بن السيّد محمّد بن السيّد علي بن مسعود الملقب بعيشي بن ابراهيم ابن حسن بن شرف الدين بن مرتضى بن زين العابدين بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمّد شمس الدين بن أحمد بن علي بن محمّد أبي الغنائم بن أبي الفتح الأخرس بن أبي محمّد ابراهيم بن أبي الفتيان بن عبد الله أبي الحسن بن محمّد الحائري بن إبراهيم المجاب بن محمّد العابد بن الإمام موسى بن جعفر بن محمّد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، صلوات الله عليهم أجمعين[1].

---

[1] ينظر: المشجر الوافي في السلسلة الموسوية، حسين السيّد أبو سعيدة: ١ / ٦٣ ـ ٦٩، وينظر: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، أحمد بن علي الداودي: ٢١٨، وينظر: صفحة من حياة الإمام السبزواري، السيّد محمّد حسن الطالقاني: ٤٠، وينظر جمال السالكين، السيّد حسين تجيب محمّد: ١٣، وينتظر: ألطاف الباري من نفحات الإمام السبزواري، السيّد عبد الستار الحسني: ١٥، وينظر: مع المقدس السبزواري في قبسات من مواهبه، السيّد محمّد تقي الحجار: ١٥.

ولادته ونشأته:

ولد في مدينة سبزوار، في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عام ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١٠ م ـ ونشأ في كنف أبيه، وتحت رعايته، فتعلم القراءة والكتابة في سن مبكر، ثمّ درس الأوليات في النحو والصرف والمنطق، وبعض المتون الفقهية.

وحين أكمل مرحلة السطوح أرسله أبوه إلى مدينة مشهد المقدسة للدراسة في حوزتها العلمية[١].

وانصرف إلى تلقي المعرفة، ولازم حلقات دروس المشايخ في تلك المدينة المقدّسة، وأشهر من قرأ عليه الشيخ حسن البرسي، والسيّد محمّد العصّار، والشيخ حسن علي الأصفهاني... وغيرهم، وكان الأخير أستاذه في تفسير القرآن[٢].

ثمّ هاجر إلى العراق في سنة ١٣٤٩ هـ، وكان قاصداً مدينة النجف الأشرف، وكانت تضمّ آلافاً من طلاب العلوم الدينية من مختلف البلدان والجنسيات، وبدأ تدريس الفقه والأصول منذ نزوله، ولمّا توفي آية الله السيّد أبو الحسن الأصفهاني (قدّس سرّه) سنة ١٣٦٥ هـ، بدأ بتدريس مرحلة البحث الخارج، وكان عمره آنذاك سبعاً وثلاثين سنة[٣].

ثمّ شرع في البحث والتدريس فقهاً وأصولاً، فباحث في الفقه ثلاث دورات كاملة، وباحث أيضاً دورتين في المكاسب، وست دورات في علم

---

[١] ينظر: ألطاف الباري: ٢١، وينظر: مع المقدس السبزواري: ٤٣.

[٢] ينظر: صفحة من حياة الامام السبزواري: ٤٣.

[٣] ينظر: جمال السالكين: ١٨.

الأصول، واستمرت حلقة بحثه طوال خمسة وأربعين عاماً، بدأها عام ١٣٦٥ هـ، وختمها عام ١٤١٠ هـ[١].

ويظهر ممّا تقدم إنّ حياته كانت مثالاً للجد والمثابرة، وأنّه أفنى عمره في طلب العلم والمعرفة، وقال عنه السيّد علي الفاني: «إنّ من العلماء من يذهب إلى النجف الاشرف، ويعيش فيها عشرات السنين، فلا يعرف فيها إلا طريق الحرم العلوي الطاهر وموضع درسه، لانشغاله بالعلم والتحصيل، أمثال السيّد عبد الأعلى السبزواري»[٢].

وتوضح هذه الشهادة حياة هذا العالم الجليل الذي ابتعد عن الدنيا وزخارفها، وسار إلى الله سالكاً طريق التعبد وطريق العلم.

مقامه العلمي:

أجمعت آراء العلماء المحققين أو كادت تجمع أن السيّد السبزواري هو أستاذ المدرسة الاصولية العرفانية الحديثة في العصر الراهن، ويدل على ذلك مصنفاته على اختلاف موضوعاتها، ففيها التحقيق البارع والاحاطة التامّة في الموضوع الذي يخوض فيه والشمولية المستوعبة لكلياته وجزئياته وتوابعه مع قوة الحجة، وهو يعرض كلّ ذلك بأسلوب متين آخذاً من البلاغة بأوثق الأسباب وأقوى العرى فلا حشو فيه ولا اطناب ممل مع سلامته من الإيجاز المخل[٣].

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ١٨.

[٢] صفحات مشرقة من حياة الامام السبزواري، السيّد عدنان الخباز القطيفي: ٧٣.

[٣] ينظر: ألطاف الباري: ٤٩ ـ ٥٠.

ويظهر من خلال كتابه «مواهب الرحمن في تفسير القرآن» مقدار تبحّره في العلوم العقائدية والأخلاقية والفلسفية والعرفانية والتاريخية والأدبية كافة، وقد قال الشيخ محمّد الانصاري في كتاب المواهب: «هو كتاب في تفسير القرآن العظيم، قد بيّن فيه زوايا كثيرة، وأظهر خفايا عجيبة، قد تفوح منه نسائم العرفان، وتطغى مع ما فيه من الجوانب الفلسفية القيمة، والنواحي الأخلاقية القويمة، والحوادث والتحليلات التاريخية، والأمور الأدبية والروائية، مضافاً إلى ذلك كلّه، فإنّه يظهر فيه العمق الدلالي»[١].

وقال أحد تلاميذه واصفاً بحوث أستاذه السيّد عبد الأعلى: «عندما اقرأ بحوثه أشعر كأنّي في حديقة غنّاء بالزهور والرياحين وأنا انتقل من مقطع إلى مقطع في بحوثه العرفانية، أو العلمية، أو الفلسفية، أو الأدبية، أو أي بحث آخر»[٢].

يظهر ممّا تقدم، إنّ مقامه العلمي مقام رفيع، وهو محيط ومتبحّر بجلّ العلوم، ولولا ذلك لما تصدى لتفسير القرآن الكريم الذي يتطلب تفسيره الإحاطة على وجه الاتقان والكمال بخمسة عشر عاماً[٣].

شيوخه وأساتذته:

١ ـ والده السيّد علي رضا السبزواري (قدّس سرّه).

٢ ـ الأديب النيسابوري (قدّس سرّه).

٣ ـ آية الله محمّد البرسي (قدّس سرّه).

---

[١] صفحات مشرقة: ١٢٦.

[٢] مقدمة كتاب بحث حول الدعاء، بقلم السيّد محسن السبزواري: ٧.

[٣] ينظر: الكشاف: ١ / ٤٣.

٤ ـ آية الله السيّد أغا الحكيم (قدّس سرّه).

٥ ـ آية الله السيّد محمّد العصّار (قدّس سرّه).

٦ ـ الشيخ حسن علي الأصفهاني (قدّس سرّه).

٧ ـ آية الله العظمى الشيخ محمّد حسين النائيني (قدّس سرّه)

٨ ـ الإمام آية الله العظمى السيّد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني المرجع العام للإمامية في زمانه (قدّس سرّه).

٩ ـ آية الله العظمي المحقق الشيخ أغا ضياء العراقي (قدّس سرّه).

١٠ ـ آية الله العظمى المحقق الشيخ محمّد حسين الأصفهاني (قدّس سرّه).

١١ ـ آية الله العظمى السيّد محمّد حسين الباكودي (قدّس سرّه).

١٢ ـ الحجة السيّد علي القاضي الطباطبائي التبريزي (قدّس سرّه)[١].

١٣ ـ الحجة الشيخ محمّد جواد البلاغي (قدّس سرّه).

١٤ ـ الشيخ عبد الله الماماقاني[٢].

١٥ ـ العلامة الشيخ آغا بزرك الطهراني.

١٦ ـ المحدث الشيخ عباس القمّي[٣].

---

[١] لم يتتلمذ السيّد الوالد (قدّس سرّه) عند السيّد القاضي (رحمه الله) وإنّما حضر برهة من الزمن في مجالسه (السيّد علي السبزواري).

[٢] لم يتتلمذ السيّد الوالد عند الشيخ عبد الله المامقاني والعلامة الشيخ أغا بزرك الطهراني وكذلك الشيخ عباس القمّي، وإنّما عنده إجازة روائية منهما، إنّه لم يتتلمذ عند هؤلاء الأعلام الثلاثة.

[٣] ينظر: ألطاف الباري: ٢٩ ـ ٣٦، وينظر: مع المقدس السبزواري: ١٥، وينظر: صفحة من حياة الإمام السبزواري: ٤٣ ـ ٤٨، وينظر: جمال السالكين: ١٦ ـ ١٧.

تلاميذه:

١ ـ السيّد محمّد كلانتر (قدّس سرّه).

٢ ـ الشيخ محمّد علي التبريزي.

٣ ـ الشيخ محمّد صادق السعيدي.

٤ ـ الشيخ مهدي الكرماني.

٥ ـ الشيخ محمّد الأصفهاني.

٦ ـ السيّد جلال الدين الحسيني.

٧ ـ الشيخ جمال الدين الاسترابادي.

٨ ـ الشيخ محمّد جواد فضل الله العاملي.

٩ ـ الشيخ محمّد علي التوحيدي.

١٠ ـ الشيخ مرتضى الغروي الطهراني.

١١ ـ الشيخ طالب الخليل اللبناني.

١٢ ـ السيّد محمّد الغروي.

١٣ ـ السيّد عبد العزيز الأردبيّلي.

١٤ ـ السيّد نور الدين السبزواري.

١٥ ـ السيّد محمّد السبزواري.

١٦ ـ السيّد علي السبزواري.

١٧ ـ الشيخ نور الدين الكاظمي.

١٨ ـ الشيخ محمّد حسن الاصطبهاناتي.

١٩ ـ الشيخ عبد الله المحمّدي.

٢٠ ـ الشيخ أسد الله الأصفهاني.

٢١ ـ السيّد جلال الدين الحسيني اليزدي.

٢٢ ـ حجة الإسلام الشيخ علي القوجاني[١].

مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ تهذيب الأصول.

٢ ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن وهو من ثلاثين جزء، طبع منها أربعة عشر جزءً.

٣ ـ جامع الأحكام الشرعية.

٤ ـ مناسك الحج.

٥ ـ منهاج الصالحين (جزءان).

٦ ـ توضيح المسائل بالفارسية.

٧ ـ الحاشية على العروة الوثقى.

٨ ـ الحاشية على وسيلة النجاة[٢].

آثاره المخطوطة:

١ ـ حاشيته على الجواهر.

٢ ـ حاشيته على الحدائق.

٣ ـ بعض الحواش على الكتب الرجالية والفقهية وكتب الأحاديث كالبحار والوافي والوسائل[٣].

---

[١] ينظر: ألطاف الباري: ٤٠ ـ ٤١، وينظر: جمال السالكين: ٢٠ ـ ٢١.

[٢] ينظر: صفحة من حياة الإمام السبزواري: ٦٤ ـ ٦٦، وينظر: ألطاف الباري: ٨٥ ـ ١٠٠.

[٣] ينظر: جمال السالكين: ٢٥.

وفاته:

توفي رحمه الله في صباح اليوم السادس والعشرين من صفر سنة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م، ودفن في النجف الأشرف في مقبرة خاصّة أعدّها لنفسه في داخل المسجد الذي كان يصلّي ويدرّس فيه[١].

٢ـ التفسير والبلاغة

إنّ للقرآن الكريم أثراً كبيراً في نشوء أصناف من العلوم اتجهت لدراسة اللغة العربية وأساليبها المختلفة، ومن الطبيعي أن تكون هذه العلوم في مراحل نشأتها الأولى متداخلة بعضها مع بعض، فليس هناك ما يميزها، أو يصنفها ضمن حقول المعرفة المختلفة ـ كما هي ظاهرة الآن ـ إلا أنّ هذا التمييز والتصنيف بدأ يظهر مع تطور هذه الدراسات خلال مرحلة طويلة من الزمن، والبلاغة أحد هذه العلوم، وصلتنا أمثلتها الأولى متفرقة، وكانت عبارة عن إشارات لبعض الكتّاب، وهي موزعة بين كتب الدراسات اللغوية والدراسات النقدية أو كتب تفسير القرآن الكريم[٢].

وحصل عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) على مكانة عظيمة في تاريخ البلاغة العربية، فقد كانت قبله أفكاراً متناثرة، ونتفاً متفرقة، ومعلومات متداخلة، لكن بعد تأليف كتابيه الدلائل والأسرار أزاح عن البلاغة ما كان

---

[١] ينظر: ألطاف الباري: ١٥٧.

[٢] ينظر: الكتاب: ١ / ١٤٣، ٢ / ٢٥، وينظر: معاني القرآن: ١ / ١٠٣، ٢ / ٤٠٣، وينظر: مجاز القرآن: ٢ / ٢٦٦، وينظر: العمدة: ١ / ٢٦٦، وينظر: قواعد الشعر: ٣٧.

يكتنفها من لبس وغموض، وبذل جهوداً كبيرة حتّى وضع لنا أسس علم المعاني وعلم البيان[١].

ففي كتابه (دلائل الإعجاز) كان مهتماً ببيان إعجاز القرآن الكريم، ففسّره تفسيراً يقوم على النظم، أي توخي معاني النحو وأحكامه، ولخّص رأيه في خاتمة كتابه، فقال: «ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا، إن كنت وفّيته حقّه من النظر، وتدبّرته حقّ التدبّر، إلا أنّك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوفيق نحوك مذهب أن ليس (النظم) شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني النحو»[٢].

إنّ لنظرية النظم ومباحثها الدقيقة التي تدور حول معاني النحو التي أصبحت فيما بعد المباحث التي تنتمي للقسم الأول من فنون البلاغة وهو (علم المعاني) أثراً كبيراً في نشوء البلاغة.

وشرحها عبد القاهر في كتابه (دلائل الإعجاز)، وبنى عليها تطبيقات واسعة في كتابه الآخر (أسرار البلاغة)، فدلائل الإعجاز يتضمن نظرية النظم وتطبيقات واسعة عليها تدور حول الأسلوب، و (أسرار البلاغة) يتضمن تطبيقات تدور حول الاستعارة والتشبيه والتمثيل والمجاز والكناية والمعاني التحقيقية والتخييلية، لأنّها صور المعاني، والقطب الذي تدور حوله البلاغة[٣]، لم أرد الحديث عن البلاغة وتطورها، لكن أردت أن أبيّن أثر القرآن في نشوء البلاغة

---

[١] ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين: ٤٤٤.

[٢] دلائل الاعجاز: ٤٠٣.

[٣] ينظر: مقدمة كتاب أسرار البلاغة، بقلم المحقق: محمّد عبد المنعم خفاجي: ٢ / ١٣.

لما له من اتصال وثيق بأثر المفسرين في البلاغة، فكلام الله سبحانه وتعالى يتميز من كلام سائر البشر، من حيث نظمه وأسلوبه وجزالة ألفاظه، فقد جاء بأفصح الألفاظ في نظم بديع ووزن عجيب، مخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وله أسلوب خاص انفرد به في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، مخالف لما عهد في كلام العرب[١].

وهذا ما دعا المفسرين إلى تأمله، ومحاولة الكشف عن أسراره، وممّا ساعدهم على ذلك أنّ القرآن الكريم هو وأهم مصدر عربي تنوعت فيه طرائق التعبير والبلاغة، وآية ذلك أنّ كلّ من تصدى للبحث والتأليف في البلاغة العربية قديماً وحديثاً كان يعثر فيه بالعديد من الأمثلة والشواهد لكلّ أصل بلاغي يكتشفه أو يهتدي إليه[٢].

وأصبح رصد أوجه الحسن في ذلك الأداء من المفسرين هو بداية الدرس البلاغي القديم، إلا أنّ ذلك لم يستمر طويلاً إذ اتجه إلى المعياريّة الخاصة التي وضع أسسها البلاغيون[٣].

فالمفسّرون من الطوائف التي أسهمت بنصيب وافر في نشأة البلاغة وإقامة دعائمها، لتناولهم آيات القرآن الكريم، وإبراز ما فيها من جمال فني، وروعة أخّاذة حتّى نرى علماء البلاغة فيما بعد يستشهدون في قواعدهم البلاغية بأمثلة من القرآن الكريم سبقهم إليها المفسرون في الاستشهاد بها[٤].

---

[١] ينظر: القرآن الكريم: المعجزة الخالدة، د. عبد الرحيم أحمد: ٢٨٩.

[٢] ينظر: تأريخ البلاغة العربية، د. عبد العزيز عتيق: ١٤.

[٣] ينظر: البلاغة والأسلوبية، د. محمّد عبد المطلب: ١٩٠.

[٤] ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي:٥٠.

وما ذاك إلا لعلم المفسرين بعدم إمكانية الوقوف على إعجاز القرآن وإدراك نظمه والكشف عن أسراره إذا لم يتفهموا البلاغة ويعرفوا الفصاحة، وأكّد أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ذلك بقوله: «وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّ الله به كتابه من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف... إلى غير ذلك من محاسنها التي عجز الخلق عنها»[١].

وقد ألمح الدكتور أحمد مطلوب إلى أثر المفسرين في نشأة البلاغة، فهو يرى إنّها نشأت مسائل متفرقة في كتب التفسير الأولى وفي كتب الجاحظ ثمّ أخذت تتطور شيئاً فشيئاً حتّى صارت على يدي عبد القاهر مبوّبة مرتّبة، ولكنّها بقيت تنتظر الخطوة الأخيرة فجاء السكاكي فرتّب أبوابها وأخذت على يديه الترتيب النهائي والشكل الأخير[٢].

إنّ هذه الإشارات إلى دور المفسرين وأثرهم في اكتمال مباحث البلاغة لم تكن عديمة القيمة، إنّما تمثل اعترافاً بحسب الواقع بما أسهموا به من قبل علماء البلاغة، رغم أنهم لم يكونوا يبحثون في علم البلاغة حينما كتبوا تفاسيرهم، إنّما كانوا يفسّرون القرآن الكريم، ويكشفون عمّا فيه من معانٍ سامية، وما يحمل أسلوبه من روعة وجمال، وما ذكرهم لمسائل البلاغة إلا لأجل إظهار حسن القرآن وسحره وإعجازه، فالاهتمام بالبلاغة في بادئ الأمر ـ كما مرّ ـ لم يكن اهتماماً يقصد به فنّاً مقصوداً لذاته، وإنّما جاءت دراستها وسيلة لفهم

---

[١] كتاب الصناعتين: ١.

[٢] ينظر: البلاغة عند السكاكي، د. أحمد مطلوب: ٢٨١.

القرآن الكريم والوقوف على وجوه إعجازه[١]، فالقرآن الكريم كان الأثر الأول والمحرك الأهم لظهور الدراسات البلاغية، وكتب التفسير الأولى كانت الميدان الأوسع التي رصدت فيها هذه المسائل، وهي متفرقة ضمنها، وكان الداعي إلى ذلك هو رغبتهم في الكشف عن إعجاز القرآن الكريم وفهم أسراره ومعانيه بحدود ما تسمح به ثقافتهم اللغوية وبما هو سائد في كلام العرب.

ويدل على ذلك، ما جاء في تفسير ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) ـ وهو يعدّ من طبقة المفسرين الأوائل ـ إذ تعرّض في تفسيره لكثير من أنواع المجاز، وحلّله تحليلاً دقيقاً رائعاً، وهو في عرضه لصور البيان، وألوان البلاغة في القرآن يلتزم عرض الأديب الذائق فلا يجردها من الجمال ولا يعريّها من الرواء، ويمتّعنا بأسلوبه وآرائه[٢]، وأشار في مقدمة تفسيره إلى كثير من فنون البلاغة، وذكر أنّها موجودة في كلام العرب وأنّه مبيّنها في أماكنها من التفسير، قال: «فبيّن ـ إذ كان موجوداً في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والأسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرّح وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخّر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عمّا

---

[١] ينظر: تطور دراسات اعجاز القران وأثرها في البلاغة العربية، د.عمر الملا حويش: ٢٣٦.

[٢] ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: ٥٢.

يحذف، وإظهار ما حظّه الحذف ـ أن يكون ما في كتاب الله المنزّل على نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك، في كلّ ذلك له نظيراً، وله مثيلاً وشبيهاً، ونحن مبيّنوا جميع ذلك في أماكنه»[١].

يؤكد لنا هذا الكلام أنّ المفسرين لهم دور لا يمكن إغفاله في نشأة البلاغة وفي اكتمال مباحثها، وجاءت إشاراتهم على شكل إجراء تطبيقي على الآيات القرآنية، فهم لم يهتموا بالمصطلح البلاغي اهتمامهم بما تتميّز به الآية من أسلوب بلاغي فريد ومعجز في الوقت نفسه، ويكشف لنا تفسير (الكشاف) للزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) هذا الأمر بوضوح، فصوّر فيه بلاغة القرآن، فأقبل على الدراسات البلاغية يعبّ منها وينهل، فدرسها حتّى تمثّلها تمثّلاً منقطع النظير، وهو تمثّل جعله يؤمن بأنّ المعرفة البلاغية وأنماطها وأساليبها لا تكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، بل تكشف أيضاً عن خفايا معانيه[٢]، ويدلّ على ذلك قوله في مقدمة تفسيره: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدقّ سلكها، علم التفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه كلّ ذي علم... فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من أهل القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحْيَيه، لا

---

[١] جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري: ١ / ١٢.

[٢] ينظر: البلاغة تطور وتأريخ، د. شوقي ضيف: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

يتصدى منهم أحد بسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادها آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة»[١].

ثمّ خصّ الزمخشري في كلامه القرآن بعلم المعاني وعلم البيان، وقدّمهما من حيث الأهمية على باقي العلوم لكونه يكشف بهما عن حقائق القرآن، وهذا يوضّح أثر المفسرين وما قدّموه من خدمة إلى البلاغة العربية، وإن كان هدفهم ديني بحت، إلا أنّه ذو أثر واضح لا يمكن لأحد أن ينكره أسهم في تطوّر البلاغة، خاصّة في مراحل نشأتها الأولى.

فالبحث في جمال أسلوب القرآن الكريم وقوة عبارته وفصاحة مفرداته يدلّل على أنّه من الله عزّ وجلّ ويخدم هذا الغرض وأنّ الله تحدّاهم به فحاول بعضهم فعجز[٢].

وهذا الكلام يكشف عن سبب اهتمام المفسّرين بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته، ومنهم من رأى أنّ القرآن معجز بسبب فصاحته التي عجز العرب عن مجاراتها، وذكر ذلك الرازي (ت: ٦٠٦ هـ)، قال: «اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً، فقال بعضهم: هو الفصاحة، وقال بعضهم: هو الأسلوب، وقال ثالث: هو التناقض، وقال رابع: هو اشتماله على العلوم الكثيرة، وقال خامس: هو الصرف، وقال سادس: هو اشتماله على الأخبار عن الغيوب،

---

[١] الكشاف: ١ / ٤٢ ـ ٤٣.

[٢] ينظر: درس في اعجاز القرآن الكريم، من ضمن بحوث المؤتمر الأول للاعجاز القرآني، د. مساعد، مسلم عبد الله: ٦٥٠.

والمختار عندي وعند الأكثرين أنّه معجز بسبب الفصاحة[١].

ولا يمكن أن نأتي على ذكر جميع المفسرين، ونبرز إشاراتهم إلى علو كعب البلاغة وأهميتها في إدراك القرآن الكريم وقد تصدى لهذا الأمر الكثير من المهتمين به وبعلومه، ونتيجة لذلك تعددت مناهج التفسير، واختلفت من مفسّر إلى آخر، وكلّ جرى على طريقة معينة حين يريد أن يدرك المعنى المراد من النص القرآني، وقد توسّعوا في ذلك توسعاً لا يكاد يقف عند حد، والمنهج البياني هو أحد المناهج التي اتكأ عليها المفسّرون لغرض الوصول إلى المعنى «فنون التصوير البياني عرفها العرب في وقت مبكر وهي عندهم وسيلة للمعاني الإضافية، وبنوا عليها أحكامهم النقدية»[٢].

وشاع عندهم أن هذا المنهج هو «الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ووصل وفصل وما يتفرغ من ذلك من استعمال حقيقي أو استخدام مجازي أو استدراك لفظي أو استجلاء للصورة... والبحث في هذا الجانب يعدّ مؤشراً دقيقاً في استكناه البلاغة القرآنية»[٣].

واستعان السيّد السبزواري كغيره من المفسّرين بالموروث البلاغي الكبير، ومن يبحث في تفسيره يجده قد أشار إلى مواضع كثيرة مبيناً فيها بلاغتها، وهو لا يكتفي بهذه الإشارة وإنّما يحلل بدقة، ويفصّل القول، ويسمّي المبحث البلاغي باسمه، وينوّه على فائدته ضمن السياق القرآني.

---

[١] التفسير الكبير، الرازي: ١٧ / ١٩٥.

[٢] المبادئ العامّة لتفسير القرآن الكريم، د. محمّد حسين علي الصغير: ٩٣.

[٣] عبد القاهر الجرجاني ـ بلاغته ونقده ـ د. أحمد مطلوب: ١٥٧.

وتلحظ الجدّة في التناول مع ذوق بلاغي رفيع وهو يناقش الظواهر البلاغية أو الدلالية ليستكمل عملية تفسيره الشامل من خلال ما يفرضه عليه البحث من سياقات مناسبة[١] وإنّ استكشافاته البلاغية تظل متّسمة بأهمية أكثر دون أدنى شك، أنّه يتوكأ على المبادئ البلاغية الموروثة كالاستخدام والالتفات ونحوهما، إلا أنّ تذوقه الفنّي يتجاوز الدائرة الموروثة ليعبر بها إلى تخوم الفن الحديث أحياناً، وهو ما يهب تفسيره مزيداً من القيمة[٢].

لقد أهتم السيّد السبزواري بالبلاغة في تفسيره اهتماماً واضحاً، وقد نوّه في مواضع مختلفة بأهميتها مؤكّداً أنّ القرآن نزل وهو في غاية الفصاحة والبلاغة، قال: «الآيات القرآنية نزلت وهي في غاية الفصاحة والبلاغة، فهمها البدوي قبل أن تكون للنحو قواعده وأصوله»[٣]، ويرى أنّ وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة فهو معجز للفصيح البليغ في فصاحته وبلاغته، وللعالم في علمه، وللفلسفي في فلسفته[٤].

ورأى أنّ العرب في عصر نزول القرآن، ولاسيّما في مهبط الوحي، كانوا أفصح الناس، بحيث لا يدانيهم قوم، ولا يقربهم في هذه الخصلة رهط، وكانت محافلهم تعجّ بالخطباء والشعراء، وتعقد الأسواق لذلك، وقد ضبطت الكتب فروع كلماتهم، ودقائق جملهم، ومع ذلك لم ينقل إلينا إلا شيء قليل، وكلّ من تأمل

---

[١] ينظر: منهج السيّد عبد الأعلى السبزواري في التفسير، د. عبد الرؤوف عبد الغفور: ٥٨.

[٢] المصدر نفسه: ٦٥.

[٣] مواهب الرحمن: ١٢ / ٣٥٨.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ١٦٤.

في هذه اللغة، ورأى فيها من الأسرار والدقائق، وما عليها من الجمال والبهاء، يعترف بالعجز والتحيّر، وحينئذٍ لا بدّ وأن تكون هذه الصفة ـ أي صفة البلاغة والفصاحة التي كانت شائعة في مهبط التنزيل ـ أقصى هدف سيّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم في إعجاز ما ينزل من الله تعالى، إذ لم يكن تحدّي كلّ نبي إلا بما تميّز به قومه، فنزل القرآن متحدّياً لهم ببلاغته وفصاحته، وأمرهم بالإتيان بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا عن ذلك، واعترفوا بالقصور[1].

وهذا الكلام يؤكد اهتمام صاحب المواهب بالبلاغة في القرآن الكريم، إذ يعدّها إحدى وجوه إعجازه، وهذا البحث يؤكد اهتمامه بها، وأنّه يعتمد عليها في مواضع كثيرة في تحديد معنى آية من الآيات الكريمة، أو الإشارة إلى جمالها وأنّها في نهاية البلاغة والفصاحة.

وهو يحاول ـ أي البحث ـ أن يكشف عن جهد المفسّر البلاغي ويبرز قيمته ما أمكنه ذلك.

---

[1] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ١٧٠ ـ ١٧١.

الفصل الأول

مباحث علم المعاني

علم المعاني

لقد قسّم البلاغيون البلاغة على ثلاثة علوم، الأول: علم المعاني، والثاني: علم البيان، والثالث: علم البديع، وهذا التقسيم أوجده السكاكي (ت: ٦٢٦ هـ)، وسار عليه من جاء بعده وما يهمّنا في هذا الفصل هو (علم المعاني)، إذ اطلق على مباحث بلاغية لها اتصال بنظام الجملة وما يطرأ عليها من تغيير كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير والفصل والوصل والقصر، ووضع الظاهر موضع المضمر، والإيجاز والاطناب والمساواة... وغيرها من المباحث الأخرى.

ووضع السكاكي تعريفا لعلم المعاني، قال هو: «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[١].

ولم يرد مصطلح (المعاني) في بحوث الاوائل، ولا يعرف أحد استعمله وأطلقه على قسم من موضوعات البلاغة قبل السكاكي[٢]، ولعلّ عبارة (معاني النحو) التي وردت في المناظرة التي جرت بين الحسن بن عبد المرزبان المعروف بأبي سعيد السيرافي (ت: ٣٦٨ هـ) وأبي بشر متّي بن يونس في مجلس

---

[١] مفتاح العلوم: ٣٤١.

[٢] ينظر: دراسات بلاغية ونقدية: د. أحمد مطلوب: ٤٣.

الوزير أبي الفتح بن جعفر بن الفرات كانت من أقدم الإشارات إلى هذا المصطلح بمعناه القريب من البلاغة[١] وكان لنظرية النظم أثر كبير في إظهار هذا النوع من الدراسات البلاغية، وقد وضحت معالم هذه النظرية وبلغت أوج نضجها عند عبد القاهر الجرجاني الذي أعاد وكرر في إثباتها والتأكيد عليها وسمّى موضوعات التقديم والتأخير والحذف والذكر، وغيرها (معاني النحو)[٢] يقول: «فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية بمزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[٣].

وأكد الجرجاني أنّ أساس نظرية النظم ومدارها كان على معاني النحو، يقول: «إنّ مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه»[٤]، والكلام الذي تحدث به الجرجاني في دلائل الاعجاز كان المادة الأساسية التي اعتمد عليها السكاكي لتبويب علم المعاني وجعله أحد علوم البلاغة[٥]، فالسكاكي إذن اطلق مصطلح علم المعاني على مباحث البلاغة التي سمّاها عبد القاهر الجرجاني (معاني النحو) أو (النظم)[٦] وأنّه: «بتر عبارة (معاني

---

[١] ينظر: أساليب بلاغية، د. أحمد مطلوب: ٦٧.

[٢] ينظر: دراسات بلاغية ونقدية: ٤٤.

[٣] دلائل الاعجاز: ٦٥.

[٤] دلائل الاعجاز: ٦٩.

[٥] ينظر: دراسات بلاغية ونقدية: ٤٤.

[٦] ينظر البلاغة عند السكاكي، د. أحمد مطلوب: ٤٠١.

النحو) فأصبحت عنده (علم المعاني)»[١]، لذا يعد السكاكي أول من أدخل مباحث علم المعاني ضمن علم البلاغة، على الوجه الذي كشف عنه في كتابه (مفتاح العلوم)، فقد كانت هذه المسائل من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل تبحث عند من تقدمه أمّا في كتب النحو أو بأسلوب أدبي ليس فيه تقسيم أو تحديد.

وكان الزمخشري من قبل في كتابه (الكشّاف) قد أشار إلى علم المعاني بقوله: «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان»[٢]، فكلام الزمخشري هذا لم يفد في شيء، لأنّه غير محدد، فكان كثيراً ما يردد هذين المصطلحين، وكثيراً ما يطلق البيان على البلاغة كلّها، ولم نجده قد وضع الحدود بين مباحث علم المعاني وعلم البيان، والسبب يعود إلى أنّه لم يكن مهتماً بمباحث علم البلاغة حينما كتب الكشّاف، وإنّما كان يفسّر القرآن ويوضح ما فيه من روعة وجمال[٣].

وعند قراءتي لكتاب تفسير مواهب الرحمن، وجدت السيّد السبزواري قد أتى على ذكر الكثير من مباحث هذا العلم ضمن تفسيره الآيات الشريفة، وكانت له عوناً للوصول إلى المعنى إلا أنّه لم يحددها أو ينسبها إلى العلم الذي تنتمي إليه، كما أنّه لم يذكر لفظ (علم المعاني) في تفسيره إلا في موضع قال فيه:

---

[١] المصدر نفسه: ٣٠٤.

[٢] الكشاف: ١ / ٤٣.

[٣] ينظر: دراسات بلاغية ونقدية: ٤٥.

«المعروف عند أهل المعاني»[1] على الرغم من إحاطته بمباحث هذا العلم كما هو واضح في التفسير، وهذا يؤكد معرفته وإحاطته الدقيقة بمباحث علم المعاني، وأنّه لا يمكن للمفسّر أن يتجاهله لما له من أثر كبير في فهم المقصود من الآيات الشريفة.

[1] مواهب الرحمن: ٢/١٦٩.

المبحث الأول
«الخبـر»

لقـد عرّفـه ابـن فـارس (ت: ٣٩٥ هـ) بقولـه: «الخبـر مـا جـاز تصـديقه أو تكذيبه»[١]، وذكـر الـرازي الخبر وعبّر عنه بأنّـه القـول المقتضـي بتصـريحه نسـبة معلـوم إلى معلـوم بـالنفي أو الاثبات، وحـده: أنّـه للـصدق أو الكـذب[٢]، ولـم يخرج القزويني (ت: ٧٣٩ هـ) بتعريفه للخبر عن غيـره بقولـه: «اختلـف النـاس فـي انحصار الخبر في الصادق والكـاذب، صـدقه مقابـل حكمـه للواقـع، وكذبـه عـدم مطابقة حكمه له، هذا هو المشهور وعليه التعويل»[٣].

ولم يحد علماء البلاغة المعاصرون عـن هـذا التعريـف إلا أنّهـم اعتقـدوا أن: «أخبار القرآن الكريم لا تحتمـل إلا الصـدق باعتبارهـا كـلام الله جـلّ وعـلا، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار بصرف النظـر عـن قائلهـا»[٤]، وإلى المعنى نفسه أشـار قدامـة بـن جعفـر (ت: ٣٣٧ هـ) إذ رأى أنّ الأخبـار التـي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ لا يمكـن أن تحتمـل الكـذب مـع أنّها اخبار عن شيء، ولذلك تخرج من هذا التعريف، أمّا غيرها مـن الاخبـار فهـي

---

[١] كتاب الصاحبي: لابن فارس: ١٧٩.

[٢] ينظر: نهاية الايجاز في دراية الاعجاز: الرازي: ٧١.

[٣] الايضاح: ١٠.

[٤] علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ١ / ٣٠ ـ ٣١.

قابلة للتصديق والتكذيب من أي إنسان صدرت لأنّها ينظر إليها لذاتها لا لذات القائلين[١] وقد أشار السيّد السبزواري إلى المعنى نفسه الذي ذكره البلاغيون للخبر عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[٢]، إذ قال: «الوعد من الانشاء لا من الاخبار فلا يتصف بالصدق والكذب بل يتصف بالوفاء وعدمه وهو المراد بصدق الوعد وكذبه»[٣]، فهو يشير إلى أنّ الوعد وإن كان في صيغة الاخبار إلا أنّه ليس اخباراً، لأنّ وعد الله لا يحتمل الصدق والكذب، وأشار إلى المعنى نفسه في موضع آخر، حيث يرى أنّ الوعد من مقولة الفعل والعمل لا من مقولة اللفظ والقول لذا فإنّ الوعد عنده يستعمل في مقام الانشاء لا الاخبار، وهو يرد بذلك على آراء الأدباء والمفسّرين، وهو يقترب من توجيه البلاغيين المحدثين لاخبار القرآن الكريم، قال: «المعروف بين الأدباء وتبعهم المفسرون، أنّ كلّ واحد من الوعد وخلفه خبر يتصف بالصدق والكذب وهو بالنسبة إلى خلف الوعد أطل، لأنّه من مقولة الفعل والعمل لا من مقولة اللفظ والقول إلا أن يريدوا الالحاق الحكمي لا الموضوعي، وكذا بالنسبة إلى نفس الوعد فإنّه يستعمل في مقام الانشاء لا الاخبار»[٤].

وفي مواضع أخرى يتناول السيّد السبزواري الفروق بين الجملة الخبرية والجملة الانشائية ويؤكد في أكثر من إشارة أنّ الجملة الخبرية صريحة في

---

[١] ينظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر: ٢٨ ـ ٢٩، وينظر: أساليب بلاغية: ٨٩ ـ ٩٠.

[٢] البقرة: الآية / ٢٦٨.

[٣] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٧٩.

[٤] مواهب الرحمن: ١ / ٣٢٦.

التشريع على عكس الجملة الانشائية، ويذكر اتفاق المسلمين على ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾[١]، إذ قال: «هذه الآية صريحة في تشريع حجّ التمتع، لأنّ الجملة الخبرية أصرح من التشريع من الانشائيات، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين»[٢].

ويؤكد صاحب المواهب أنّ الجملة الخبرية قد تكون في مقام الانشاء، ويعدّه من الأمور الشائعة والمعتمدة في علم الأصول في قوله: «تكون الجملة الخبرية في مقام الانشاء، وهذا كثير شائع في المحاورة واعتمد عليه في علم الأصول، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾[٣] وغير ذلك[٤].

وفي موضع آخر يرى أنّ الجملة الخبرية أبلغ في الوجوب عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[٥]، قال: «جملة خبرية مستعملة في الانشاء وهي أبلغ في الوجوب»[٦].

نجد أنّ صاحب المواهب يميز بين الجملة الخبرية والجملة الانشائية ويبيّن أهمية كلّ منهما وفائدتها في السياق الذي وردت فيه، ورأى أنّ الجملة الخبرية تقوم مقام الإنشاء لأغراض معينة، ويؤكد أنّ ذلك معروف وشائع في المحاورات الفصيحة.

---

[١] البقرة: الآية / ١٩٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٣ / ١٦٩.

[٣] البقرة: الآية / ٨٠.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ١٤٨.

[٥] آل عمران: الآية / ٩٧.

[٦] مواهب الرحمن: ٦ / ١٦٨.

توكيد الخبر:

تعددت أشكال أساليب الكلام في اللغة العربية، وما ذلك إلا لتعدد الأغراض واختلافها، لأجل أن يكون الكلام بمستوى مقتضى الحال، فتنوعت بسبب هذا طرق تأدية المعنى، والقرآن الكريم هو المثال الأعلى للكلام المدوّن باللغة العربية، وتضمّن مختلف أساليبها ومنها توكيد الخبر، وتختلف أيضاً «صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب، فتراه حيناً مجرّداً من أدوات التوكيد، وتجده حيناً مؤكداً بمؤكد واحد، وحيناً مؤكداً بأكثر من مؤكد»[١].

تعرض السيّد السبزواري في تفسيره لذكر مؤكدات الخبر والغرض منها، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[٢]، ذكر ثلاثة مؤكدات من مؤكدات الخبر، قال: «تأكيد الجملة بأنّ واللام وضمير المنفصل دلالة على أنّ هذا هو الحق فقط، دون غيره ممّا تدّعيه النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام، الذي هو خلاف الحق، وتطييب لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وإعلامه بأنّه على الحق»[٣].

بيّن أنّ التوكيد أفاد انكار ما تدّعيه النصارى في نبيّهم وأفاد أيضاً تطييب وتثبيت نفس النبي صلّى الله عليه وآله، واخباره بأنّه على الحق، وفي موضع آخر ذكر التأكيد بالقسم والغرض منه، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾[٤]، قال: «إنّما ذكر عزّ وجلّ أسلوب القسم

---

[١] البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، د. عبد المنعم خفاجي: ١٢٧.

[٢] آل عمران: الآية / ٦٢.

[٣] مواهب الرحمن: ٦ / ١١.

[٤] المائدة: الآية / ١٢.

وأظهر الاسم الجليل، لإفادة التأكيد وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب في نقضه»[١].

وأشار المفسّر إلى مؤكدين من مؤكدات الخبر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾[٢]، إذ رأى أنّ لام القسم والنون المشددة للتوكيد، لأنّ الآية توطئة للأحكام المشددة في الآيات التي تليها[٣]، وذكر أيضاً أنّ أداة النفي (لن) ولفظة (أبداً) يفيدان التأكيد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾[٤]، قال: «التأكيد على الأعراض باستعمال أداة النفي الدالة على التأبيد، وتأكيد بقولهم (أبداً)»[٥]، وأشار أيضاً إلى التأكيد بحرف التنفيس (سوف) في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٦]، رأى أنّ في الكلام كشفاً للحقيقة لا إخباراً عنها، وهو مسوق للتوعيد والتهديد، وإنّ (سوف) فيه لتأكيد الوعد[٧]، وفي قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[٨]، ذكر أنّ الخبر مؤكد بلام القسم وجملة النفي الاسمية المقرون خبرها بالباء، ورأى إنّ هذا التأكيد

---

[١] مواهب الرحمن: ١١ / ٧٤.

[٢] المائدة: الآية / ٩٤.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٣١ ـ ٢٣٢.

[٤] المائدة: الآية / ٢٤.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ١٥١.

[٦] المائدة: الآية / ١٤.

[٧] ينظر: مواهب الرحمن: ١١ / ٨٣.

[٨] المائدة: الآية / ٢٨.

للإعلام بأنّ هابيل لم يكن يضمر السوء وإنّه بعيد عن الانتقام[١].

تكشف الأمثلة السابقة أنّ صاحب المواهب كان مهتماً بأسلوب التأكيد، وأنّه يشير إليه في مواضعه ويميّز بين أدواته، كما كان يهتم بذكر الغرض منه، ممّا يكشف أهمية هذا الأسلوب في فهم دلالة السياق القرآني فهماً دقيقاً، ممّا يقرب إدراك المعنى المقصود، ويكشف عمّا يضمر الإنسان في داخله حين يستعمله في كلامه، كما يظهر ذلك جلياً في خطاب هابيل لأخيه قابيل، فكان خطابه مؤكداً بلام القسم وما الحجازية النافية المؤكد خبرها بالباء، ممّا أفصح عن نيّة هابيل، وأنّه لم يكن يضمر السوء لأخيه.

الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر:

يخرج الخبر إلى كثير من الأغراض البلاغية، وقد ذكرها البلاغيون القدماء والمعاصرون[٢]، وهي تفهم من خلال فهم السياق العام للخطاب القرآني وإدراك مستوياته التعبيرية، وكشف السيّد السبزواري عن هذه الأغراض في مواضعها من القرآن الكريم معتمداً على ما تشعّ به الجملة القرآنية من معنى في سياقها القرآني.

ومن أهم الأغراض القرآنية التي أشار إليها:

١ ـ التهديد:

وهو من الأغراض البلاغية التي يفيدها الخبر، رصده صاحب المواهب في

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ١١ / ١٩١.

[٢] ينظر: الطراز: ٥٢٠، وينظر: المطوّل: ١٩٧، وينظر: البرهان: ٢ / ٣٣٠، وينظر: أساليب بلاغية: ٩٠، وينظر: علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح: ١ / ٣٠.

مواضع مختلفة منها، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾[١]، قال: «تهديد لمن يريد الخروج عن طاعة الله بالبغي على النساء والتعدي عمّا شرعه الله فيهن»[٢]، وهذا المعنى مخالف لما ذكره الزمخشري في تفسير الآية الكريمة، إذ رأى أن الخبر يفيد التحذير ليعلموا أنّ قدرة الله عليهم أعظم من قدرتهم على من تحت أيديهم[٣]، ويبدو أنّ غرض التهديد أكثر مناسبة، لأنّ الآية الكريمة جاءت بعدما أكد الله عزّ وجلّ على عدم البغي على النساء وإلى حفظ ما شرع الله فيهنّ وعدم التعدّي عليها لأنّها حدود الله، لذا فإنّ التأكيد على أنّ الله علي وكبير فيه تهديد لمن يتجاوز هذه الحدود.

ويعتقد السيّد السبزواري أنّ الخبر يخرج للغرض نفسه، وهو يلتمس ذلك ممّا يبوح به النص القرآني من معنى، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾[٤]، قال: «أي جزاء مخالف ما ذكر من الأحكام ـ في الآيات سواء أكانت بالنسية إلى النفوس أم الأموال أم الأعراض ـ يسير على الله تعالى فإنّه قادر على كلّ شيء، وأمّا من قال بأنّ التعليل والتهديد راجع إلى خصوص القتل فلا تعميم فيه، فهو مخالف لسياق الآية الشريفة، ودأب القرآن الكريم في سائر الموارد التي يذكر فيها عزّ وجلّ أموراً كثيرة ثمّ يأتي بتعليل واحد يعمّ الجميع ويشمله»[٥].

---

[١] النساء: الآية / ٣٤.

[٢] مواهب الرحمن: ٨ / ١٨١ .

[٣] ينظر الكشاف: ١ / ٥٤٠.

[٤] النساء: الآية / ٣٠.

[٥] مواهب الرحمن: ٨ / ١٢٢.

ويرى صاحب المواهب أنّ الخبر قد يخرج إلى غرضين بلاغيين كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾[١]، فيجمع غرضي التوعيد والتهديد في مثال قرآني واحد يؤدّيه الخبر، فهو يرى في الآية: «توعيد لمن صدّ عن الحق وتهديد لهم بعذاب جهنم التي لا ينقطع سعيرها»[٢].

إنّه يوجه الخبر للغرض الذي أفاده، ويكشف عن المعنى المراد منه ضمن السياق القرآني، ولا يكتفي بالمعنى الظاهر للآيات الشريفة كما هو واضح من الأمثلة المتقدمة.

٢ ـ النهي:

وهو من الأغراض البلاغية التي يؤديها الخبر، وأشار إليه الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) عند حديثه عن الأغراض المجازية التي يفيدها الخبر[٣]، وقد وجّهه المفسّر إلى إفادة هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾[٤]، قال: «الجملة خبر بمعنى النهي، أي: لا تنفقوا إلا لوجهه عزّ وجلّ»[٥]، فهو من بعد أن يذكر الخبر اعتماداً على ما يفيده السياق القرآني من معنى، يقترح السياق الحقيقي المراد منه كما في المثال الأخير، وفي موطن آخر يرى أنّ الخبر أفاد غرض النهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً

---

[١] النساء: الآية / ٥٥.

[٢] مواهب الرحمن: ٨ / ٣٢٠.

[٣] ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢ / ٣٣٣.

[٤] البقرة: الآية / ٢٧٢.

[٥] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٩٤.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾[١]، إذ رأى أنّ الخبر يدل على النهي عن كلّ ما يوجب هتك حرمات الله تعالى سواء كان بالتشريع أم بالقصد أم بالقول أم بالفعل[٢].

٣ ـ التسلية:

في قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، يرى المفسّر أنّ الخبر أفاد غرض التسلية للنبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بعد أن أخبره بتخلي أكثر الناس عنه، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، قال: «في الآية المباركة تسلية لنبينا الأعظم (صلّى الله عليه وآله) وإخبار له بإدبار الأكثر»[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٥]، يرى صاحب المواهب أنّ في قوله تعالى: (سنن الذين من قبلكم) التسلية للمؤمنين ممّا لاقوه من المشركين من المتاعب[٦] في ضوء ما تقدم نجد أنّ المفسّر قد أشار إلى التسلية، وعدّها غرضاً بلاغياً يستفاد من سياق الجملة الخبرية وتؤدي معناه، كما يفهم منها اعتماداً على المراد من النص القرآني.

٤ ـ التحسر:

يعتقد المفسّر أنّ الخبر يخرج إلى غرض التحسر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

---

[١] النساء: الآية ٣٠٧.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ٨ / ١٢٤.

[٣] البقرة: الآية / ١٠٠.

[٤] مواهب الرحمن: ١ / ٤٨١.

[٥] النساء / ٢٦.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ٨ / ٨٥.

وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[١]، فهو من خلال عرض قصة مريم عليها السلام يوضح الحسرة والحزن بسبب خيبة ظنّها، لأنّها كانت تنتظر ولداً، فوضعت مريم عليها السلام والانثى ليس كالولد، ومن خلال ما يوحي به السياق القرآني يوجه الغرض البلاغي الذي أفادته الجملة الخبرية، قال: «وجملة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ خبرية يراد بها التحسّر والتحزّن ممّا داهمها من خيبة الرجاء، فليس الغرض هو الاخبار فقط»[٢]، وأشار إلى الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[٣]، ويحصل ذلك عندما يعرف المشركون الحق في الآخرة وتتكشف لهم الأمور فيندموا ندامة شديدة، ويعرفون أنّهم قد ظلموا انفسهم ويتحسّرون على ما فاتهم، قال: «وبالجملة: أنّه يدخل عليهم ما لا يمكن دخوله تحت وصف من الحسرة والندامة»[٤].

نجد أنّ المفسّر يكشف خلال تفسيره عن المعاني البلاغية التي يؤدّيها الخبر، والتحسّر من هذه المعاني التي أشار لها، وهو ممّا يعبّر عنه واقع حال الجملة الخبرية كما في المثالين السابقين ويكون جزءً من دلالة الآيات الشريفة.

٥ ـ التعظيم:

وهو من المعاني التي تفهم من سياق الجملة الخبرية، وقد أشار إلى ذلك

---

[١] آل عمران: الآية / ٣٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٨٩.

[٣] البقرة: الآية / ١٦٥.

[٤] مواهب الرحمن: ٢ / ٣١٦.

القزويني في كتابه (الايضاح)[١]، عند حديثه عن فائدة الخبر، وكذلك ابن يحيى العلوي (ت: ٧٤٩ هـ) في كتابه (الطراز)[٢]، وأشار إليه السيّد السبزواري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٣]، إذ قال: «يستفاد من الآية الشريفة تعظيم آل ابراهيم الذين آتاهم الله تعالى الفضل العظيم فيختص بإبراهيم وذريّته الأنبياء والنبي (صلّى الله عليه وآله)»[٤]، وأشار إلى الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾[٥]، فلأنّ الآية الكريمة تبين أحد الأحكام المهمة في النساء، فهي تشير إلى عظمة هذه الأحكام وضرورة تطبيقها والالتزام بها، قال: «الآية المباركة بيان لعظمة شأن المتلو من الأحكام التي تتلى في القرآن الكريم في شأن النساء»[٦].

إنّ التعظيم من الأغراض المستفادة من الجملة الخبرية، يتجلى ذلك خلال فهم السياق القرآني، كما أشار صاحب المواهب في تفسيره.

٦ـ الأمر:

في موطن آخر يرى المفسّر أنّ الخبر يخرج إلى غرض الأمر، وهو ممّا ينطق به السياق القرآني، ويرى أنّ مجيئه على صورة الخبر لأجل تفخيمه وأيضاً

---

[١] ينظر: الايضاح: ٥٢.

[٢] ينظر: الطراز، يحيى بن حمزة العلوي: ٥٢٢.

[٣] البقرة: الآية / ٥٤.

[٤] مواهب الرحمن: ٨ / ٣١٨.

[٥] النساء: الآية / ١٢٧.

[٦] مواهب الرحمن: ٩ / ٣٦٧.

لأجل التأكيد على الامتثال الواجب له، وكان ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[١]، قال: «إيراد الأمر على صورة الاخبار ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال»[٢]، وقد أشار السيوطي (ت: ٩١١ هـ) في كتابه (الاتقان) إلى هذه الفائدة البلاغية من الخبر، وعدّه من الأساليب المعروفة لدى الأدباء[٣]، وفي مكان آخر ألمح إلى إفادة الخبر المعنى نفسه عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾[٤]، حيث رأى أنّ جملة ﴿وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ جملة مستأنفة، قال: «والعطف فيها عطف جملة انشائية على جملة خبرية هي في معنى الانشاء فيرجع المعنى إلى قوله أحكم بينهم ولا تكن للخائنين خصيماً»[٥].

رأى أنّ الجملة الخبرية الأولى في معنى الإنشاء، وتقدير ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أحكم بين الناس فأدت معنى الأمر.

٧ ـ الوعيد:

ذكر هذا الغرض الزركشي وأكّد أنّه ممّا يفيده الخبر[٦]، وأشار السيّد السبزواري إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ

---

[١] النساء: الآية / ٥٨.

[٢] مواهب الرحمن: ٨ / ٣٤٢.

[٣] ينظر: الاتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٧٦.

[٤] النساء: الآية / ١٠٥.

[٥] مواهب الرحمن: ٩ / ٣٥٤.

[٦] ينظر: البرهان: ٢ / ٣٣٣.

فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١]، إذ قال: «وعيد للمستهزئين بالرسول ﷺ ممّا يلقاه من قومه، وانذار للمشركين المستهزئين الذين حكى الله تعالى مظاهر استهزائهم برسله وأنبيائه في محكم كتابه»[٢].

وأشار إلى الغرض نفسه عندما أتى على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٣]، قال: «وعيد للكافرين الذين يريدون إذلال المؤمنين والقضاء عليهم»[٤].

إنّ إشارته إلى المعنى الذي أفادته الجملة الخبرية لم يكن بخارج عن الاطار الدلالي الذي تريد أن تكشف عنه الآية الكريمة، وإنّما هو مكمّل له وجزء من الأدوات التعبيرية المستعملة في ذلك.

٨ ـ الإرشاد:

ذكر هذا الغرض يحيى العلوي عند حديثه عن الفروق بين الجملة الخبرية والانشائية[٥]، وذكره المفسّر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٦]، حيث رأى إنّ إخبار الله تعالى بأنّ الشيطان عدو للإنسان وتحذيره للسعي في الابتعاد عنه ارشاداً له، قال: «ارشاد إلى أمر فطري، وهو أنّ الإنسان لا يركن إلى عدوه ويبتعد عنه، فيكون من باب بيان الموضوع لترتب

---

[١] الأنعام: الآية / ١٠.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ٧٣.

[٣] النساء: الآية / ١٠٢.

[٤] مواهب الرحمن: ٩ / ٢٢٨.

[٥] ينظر: الطراز: ٥٣٦.

[٦] البقرة: الآية / ١٦٨.

الحكم الفطري عليه قهراء[١].

وفي مكان آخر رأى أنّ الخبر أفاد الغرض نفسه في الآية الكريمة: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢] قال: «ما تضمنته هذه الاية المباركة تعليم إلهي لسائر الناس وإرشاد لهم بأنّهم إذا تناجوا فلا بدّ أن يكون نجواهم بالخير والمعروف والاصلاح بين الناس والتأليف بينهم بالمودة وإلا فلا خير في نجواهم ويكون وزره ووباله عليهم»[٣].

إنّ الآية الكريمة أرشدت إلى الخير، وهو حاصل في كلّ نجوى واقعة بين طرفين أو أكثر، فلا بدّ أن يكون حاصلاً في أحد الأمور الثلاثة، الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، وغيرها لا خير فيها.

٩ ـ التوبيخ:

وهو من الأغراض البلاغية التي أشار لها صاحب المواهب والمستفادة من الخبر، بيّن ذلك عند عروجه على تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[٤] قال: «ظاهر الخطاب وإن كان موجهاً إلى أهل الكتاب، بدعوى ظهور لفظ (المشرق والمغرب) اللذين هما قبلة اليهود والنصارى، فيكون توبيخاً لهم في افتعالاتهم، وردعاً لذلك»[٥].

---

[١] مواهب الرحمن: ٢ / ٣٣٩.

[٢] النساء: الآية / ١١٤.

[٣] مواهب الرحمن: ٩ / ٢٦٩.

[٤] البقرة: الآية / ١٧٧.

[٥] مواهب الرحمن: ٢ / ٣٧٧.

وذكره عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[١]، قال: «أي: أنّ الله سميع لأقوال عباده وما يهجس في خواطرهم، بصير لأفعالهم لا يخفى عليه خافية، وفيه من التوبيخ ـ بتركهم ما عنده تعالى، وأعراضهم عن الطاعة، والاقتصار على ما يريدونه ـ ما لا يخفى فلا بدّ من مراقبته عزّ وجلّ في جميع الأمور»[٢].

من الواضح أنّ صاحب المواهب عند إشارته إلى الغرض البلاغي الذي يخرج إليه الخبر، فإنّما يكون ذلك بما يلائم المعنى العام للآيات الشريفة وغير خارج عن سياقها، فهو يأخذ بالحسبان سياق كلّ آية شريفة وما تفيده من معنى، لتحديد الغرض البلاغي المناسب الذي يخدم المعنى، ويستفاد أيضاً من القص القرآني وأسلوب الحوار لتوجيه الأغراض البلاغية المستفادة من التعبير بالخبر.

---

[١] النساء: الآية / ١٣٤.

[٢] مواهب الرحمن: ٩ / ٣٨٢.

المبحث الثاني
«الإنشـــاء»

الانشاء مغاير في الحقيقة للخبر، فالخبر دال على حصول أمر في الخارج، فإن كان مطابقاً له فهو الصدق، وإلا فهو الكذب، بخلاف الإنشاء، فإنّه لا يدل على حصول أمر، بل من حقيقته أن لا يكون مطلوباً إلا مع كونه معدوماً في حال طلبه[١].

والكلام «إن لم يحتمل الصدق والكذب سمي إنشاء»[٢]، ويرى الدكتور بسيوني عبد الفتاح أنّ وظيفة الجملة الانشائية ليس حكاية الخبر وإنّما يقصد بها «إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء فهي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ ليطلب بها مطلوباً»[٣].

والجملة الإنشائية لها حال يختلف عن الجملة الخبرية، لأنّ لها وجوداً خارجياً قبل النطق بها فعدم احتمال الأسلوب الإنشائي للصدق والكذب «إنّما هو بالنظر إلى ذات الأسلوب بغض النظر عمّا يستلزمه، وإلا فإنّ كلّ أسلوب إنشائي يستلزم خبراً يحتمل الصدق والكذب»[٤].

---

[١] ينظر: الطراز: ٥٣٠.

[٢] الاتقان: ٣ / ١٩٤.

[٣] علم المعاني: د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ٢ / ٦١.

[٤] علم المعاني: عبد العزيز عتيق: ٥٧.

والسيّد السبزواري في مواطن مختلفة أشار إلى اختلاف المعنى الذي يفهم من الجملة الخبرية مع ما يفهم من الجملة الانشائية، فالأسلوب يختار بدقة ليعبّر عن المعنى وفق ما يقتضيه السياق، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ﴾[١] يرى أنّ: «فيه الانكار على من يطلب المغفرة من الأوثان أو الأفراد الذين لم يأذن لهم الله تعالى بالاستشفاع لديه في غفران الذنوب بالخصوص، ويؤكد ذلك ورود الخطاب على هيئة الانشاء دون الاخبار»[٢]، فيجعل ورود الجملة على صورة الانشاء دليلاً على المعنى الذي أبرزه، وهو انكار طلب المغفرة من الأوثان، إذن فالتعبير بأسلوب الإنشاء يساعد على تحديد المعنى وفهمه من قبل المفسّر.

ويرى صاحب المواهب في موضع آخر أنّ الجملة إذا كانت غايتها كشف الواقع وإرشاد الناس إليه فليس هناك فرق بين أن تكون إنشائية أو خبرية، فإنّها في التعبير تؤدي المعنى نفسه أوضح ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾[٣]، قال: «الآية المباركة ترشد إلى أهم الأمور التي توجب الظفر وهو الثبات والاستقامة وعدم المبالاة بما يصيب الإنسان في الجهاد في سبيل الله تعالى وهو أمر فطري يحكم بحسنه العقل أيضاً، فلا فرق حينئذ بين أن تكون الجملة إنشائية أو خبرية محضة لأنّها في بيان الواقع وإرشاد الناس إليه»[٤].

---

[١] آل عمران: الآية / ١٣٥.

[٢] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٤٨.

[٣] آل عمران: الآية / ١٣٩.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٦٤.

وفي موضع آخر يرى أنّ الجملة الخبرية تأتي في مقام الإنشاء وهو بذلك يتابع يحيى العلوي الذي قال: «قد ترد صيغة الخبر والمقصود بها الانشاء، إمّا لطلب الفعل، وإمّا لإظهار الحرص على وقوعه»[١].

وذكر صاحب المواهب ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾[٢]، يرى أنّها: «جملة خبرية في مقام الانشاء وهذا أبلغ في الطلب وآكد، أي: اعبدوا الله لا شريك له»[٣].

والسيّد السبزواري لم يقف عند حدود الجملة الإنشائية، وإنّما ذكر أساليب عدّة للطلب منها الأمر، النهي، والاستفهام، أمّا أسلوبا التمني والنداء فلم أجد السيّد السبزواري قد اعتنى بهما كثيراً، أو أشار إلى أثرهما البلاغي في النص القرآني، لذا فضّلت عدم ذكرهما، أمّا القسم الثاني من الانشاء، فهو الانشاء غير الطلبي، ولم يعتنِ به البلاغيون، لأنّ موضوعاته أخبار نقلت إلى الانشاء، قال التفتازاني: «فالانشاء إن لم يكن طلباً كأفعال المقاربة وأفعال المدح والذم وصيغ العقود والقسم ونحو ذلك، فلا يبحث عنها ههنا لقلة المباحث البيانية المتعلقة بها ولأنّ أكثرها في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الانشاء»[٤]، لذا سيقتصر البحث على تناول أساليب الانشاء الطلبي (الأمر، النهي، الاستفهام) دون ذكر ما اعتذرت عنه.

---

[١] الطراز: ٥٣٦.

[٢] البقرة: / ٨٣.

[٣] مواهب الرحمن: ١ / ٤٣٠.

[٤] تهذيب السعد: ٣ / ٢٩.

«الأمـر»

معنى الأمر في أصـل اللغـة معـروف وهـو نقـيض النهـي[١]، وعرّفـه يحيـى العلوي بقوله: «صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عـن اسـتدعاء الفعـل مـن جهـة الغير على جهة الاستعلاء»[٢]، وأشار اليه صاحب التعريفات بقوله:

«الأمر قول القائل لمن دونه: أفعل»[٣]، وصيغة الأمـر يطلـب بهـا الفعـل، وهـو شـامل لـكـل أمـر غائبـاً كـان أو مخاطباً أو متكلماً معلوماً أو مجهـولاً[٤]، ويضيف بعض المحدثين إلى شريطة الاستعلاء في الأمر وجـودة الالـزام، وهـو ربمـا يعنـي الوجوب أو الايجاب الذين تحدّث عنهما البلاغيون المتقدمون[٥].

الأصل في أسلوب الأمر ـ كما هو واضـح ـ طلـب حـدوث شـيء علـى سـبيل التكليف والإلزام من جهة عليا أمرة إلى دنيا مـأمورة، وقـد يخـرج الأمـر عـن هـذا الأصل فيفيـد معـانٍ كثيرة يرشـد إليهـا السياق وقرائن الأحـوال، وقـد وجّـه السـيّد السبزواري المواطن التي يخرج فيهـا أسلوب الأمر إلى الأغراض البلاغية، إذ قـال: «من دأب القرآن الكريم أنّه إذا كان أمر بمكان مـن أهميـة أن يـذكره فـي ضـمن آيات مترابطة المضمون ومتحدة في السياق ويدسّه فيه ليتوجـه ذهـن السـامع إليـه

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (أمر): ١ / ٢٠٣.

[٢] الطراز: ٥٣٠.

[٣] التعريفات: الجرجاني: ٥٣.

[٤] ينظر: الفوائد الـضيائية، شرح كافية ابن الحاجب، نور الدين عبد الرحمن الجامي: ٢٦٦.

[٥] ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب: ١ / ٣١٣.

ويجلب مشاعره»[١].

ومن الأغراض البلاغية التي أشار إليها صاحب المواهب في تفسيره، والتي يفيدها أسلوب الأمر:

١ ـ الدعاء:

وهو من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الأمر، وذكر سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) إنّ الدعاء بمنزلة الأمر، وإنّما قيل: (دعاء) لأنّه استعظم أن يقال: (أمر)[٢]، ويعرف إفادة الأمر الدعاء ممّا يوحي به السياق من معنى، وأشار إلى ذلك صاحب المواهب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾[٣]، قال: «دعاء منهم، يطلبون من جلّت عظمته أن يجعل منهم وليّاً يلي أمرهم ليرشدهم إلى أمور دينهم ودنياهم، فإنّه أعلم بمصالحهم من غيره»[٤].

وهو في موضع آخر يوجه الأمر أيضاً إلى معنى الدعاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٥]، إذ قال: «إنّ في دعائه عليه السلام بالقبول إشارة إلى أنّ الإنسان مهما سعى وبذل أقصى وسعه في تحصيل العمل، لا بدّ أن يتضرع إليه سبحانه، ويبتهل إليه بالقبول، وأن يعترف بالقصور، وفي لفظ (تقبّل) إشارة إلى كثرة توجّهه (عليه السلام) إلى جنّة اللقاء ومقام الرضا كما في

---

[١] مواهب الرحمن: ٨ / ٢٤٥.

[٢] ينظر: الكتاب: ١ / ١٤٢.

[٣] النساء: الآية / ٧٥.

[٤] مواهب الرحمن: ٩ / ٣٠.

[٥] البقرة: الآية / ١٢٧.

طلبه، وفي دعائه الآخر قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[١]، فإنّ مقامه عليه السلام أرفع من أن يطلب قبولاً يوجب الحور والقصور فقط»[٢].

لقد أوضح صاحب المواهب الغرض من الأمر الوارد في الآية الشريفة وهو الدعاء، ولأنّه جاء على لسان سيّد الانبياء (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فإنّه دعاء لنيل رضا الله سبحانه وتعالى، فإنّ الإنسان مهما علا منزلة، فإنّه يبقى محتاجاً إلى ربّه وفقيراً إليه.

٢ ـ الاباحة:

لقد قال عبد القاهر الجرجاني بخروج صيغة الأمر إلى معنى الإباحة[٣]، وأيضاً ذكر هذا المعنى يحيى العلوي[٤]، وأشار صاحب المواهب إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾[٥]، إذ قال: «الأمر بالأكل والشرب للإباحة لجميع ما لم ينه الشارع أكله وشربه، ولعامّة أفراد الناس»[٦]، والمفسّر إذ يوجه أسلوب الأمر إلى الغرض البلاغي الذي يفيده فإنّما يكون ذلك بما يتناسب والسياق العام للآيات الشريفة وبما يراد منها من معنى، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ

---

[١] ابراهيم: الآية / ٤٠.

[٢] مواهب الرحمن: ٢ / ٤٤ ـ ٤٥.

[٣] ينظر: كتاب المقتصد في شرح الايضاح، عبد القاهر الجرجاني: ٢ / ٩٤٠ ـ ٩٤٣.

[٤] بنظر: الطراز: ٥٣١.

[٥] البقرة: الآية / ٦٠.

[٦] مواهب الرحمن: ١ / ٣٦٢.

مُؤْمِنُونَ﴾[١] حيث أشار إلى أنّ «الأمر في قوله تعالى (وكلوا) للإباحة، لأنّه ورد بعدما يعتقد المنع والضرر، وذلك لما قيل من أنّ السبب في نزول الآية هو تحريم بعض المؤمنين في زمن نزول الخطاب الشريف طيبات المأكولات على أنفسهم»[٢].

إنّ الأمر استعمل في انشاء الطلب بداعي الاباحة ـ كما قرر صاحب المواهب ـ لا بداعي الطلب الحقيقي، فلا يستفاد منه سوى الإباحة لا الوجوب.

٣ ـ التعجيز:

ذكر الزمخشري هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]، فرأى أنّ الله استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء[٤].

وذكر صاحب المواهب الغرض نفسه عند تفسيره الآية الكريمة بقوله: «الأمر للتعجيز وإظهار عجزهم على أنفسهم وعلى غيرهم»[٥]، وفي موطن آخر أشار إلى إفادة صيغة الأمر الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾[٦]، قال: «الأمر للتعجيز، لأنّه لا يمكنهم الدخول في مصر من الأمصار، لأنّ الله تعالى كتب عليهم التيه ولا يمكنهم القتال لضعف عزائمهم

---

[١] المائدة: الآية / ٨٨.

[٢] مواهب الرحمن: ١٢ / ١٦٨.

[٣] البقرة: الآية / ٣١.

[٤] ينظر: الكشاف: ١ / ١٥٥.

[٥] مواهب الرحمن: ١ / ٢١٨.

[٦] البقرة: الآية / ٦١.

وجبن نفوسهم، وإنّ الأرض التي هم فيها جدباء لا ينبت فيها البقل والزرع»[١].

فالمفسّر اعتمد السياق العام للآيات الشريفة وكذلك ما توحي به قصة بني اسرائيل في فترة التيه، ليوجّه من خلال ذلك الغرض الذي أفاده أسلوب الأمر.

٤ ـ التهديد:

من الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر التهديد، وذكر ابن قتيبه (ت: ٢٧٦ هـ) أنّ الكلام يأتي على لفظ (الأمر) وهو (تهديد)، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[٢][٣].

وأشار صاحب المواهب إلى هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[٤] قال: «التصدير بقوله: «فاعلموا» لبيان شدة التهديد، أي ليبلغ علمكم أنّه لن تضرّوا الله شيئاً لتوليكم عن الرسول، وإنّما أضررتم وتضرّون أنفسكم فيما كابرتم النبي (صلّى الله عليه وآله)، فقد نازعتم الله في ربوبيته العظمى وسلطانه العظيم»[٥].

فوجّه إفادة الأمر «اعلموا» غرض التهديد لمن يتولّى عن الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) ولم يؤمن برسالته، فإنّ منتهى الإنسان إلى ربّه وسوف يحاسب على اعتقاده ويعاقب إذا كان ذلك الاعتقاد فاسداً، فكان التهديد لهم حتّى يعودوا إلى رشدهم.

---

[١] مواهب الرحمن: ١ / ٣٦٥.

[٢] فصلت: الآية / ٤٠.

[٣] ينظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ٢٨٠.

[٤] المائدة: الآية / ٩٢.

[٥] مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٠٥.

٥ ـ الارشاد:

أشار السيوطي إلى هذا الغرض عند حديثه عن الأغراض المجازية لأسلوب الأمر[١]، وأثبت هذا المعنى صاحب المواهب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾[٢] قال: «الأمر في قوله تعالى: «فاعبدوه» إرشادياً إلى ما تقتضيه فطرة كلّ مخلوق»[٣]، فهو اعتمد في توجيه ما أفاده أسلوب الأمر من معنى على دلالة السياق العام للآية الشريفة التي تثبت عقيدة التوحيد، التي اثبتت له الوحدانية في الخلق والربوبية ونفت عقيدة الشرك بجميع أنواعه التي تنافي الفطرة المستقيمة، لذا فهو من يجب أن يعبد ويرشد إلى عبادته.

وفي موطن آخر أشار المعنى نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٤]، قال: «أمر إرشادي، وهو وجوب اتخاذ الحذر في جميع الأحوال حين وضع السلاح وحمله، لئلا يهجم عليهم العدو»[٥].

وجّه المفسّر الخطاب القرآني للمؤمنين باستعمال صيغة الأمر لغرض مجازي وهو الارشاد لئلا يأمنوا العدو، وأرى أنّه قريب إلى الصواب، ففي حالة الحرب

---

[١] ينظر: الاتقان: ٣ / ٢٠٩.

[٢] الأنعام: الآية / ١٠٢.

[٣] مواهب الرحمن: ١٤ / ٢٣٣.

[٤] النساء: ١٠٢.

[٥] مواهب الرحمن: ١٤ / ٢٢٨.

يحتاج المؤمنون إلى مرشد عالم بالشؤون حتّى يكونوا في يقظة دائمة، وبذا يؤمنون مكر العدو.

٦ ـ الحث:

وهو من المعاني التي أشار إليها السيّد السبزواري التي يفيدها أسلوب الأمر، وجاء ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١]، قال: «ورد الأمر بالسير في الأرض والحث عليه»[٢].

وفي موضع آخر يوجّه الأمر إلى غرض الحث أيضاً، من تذكير بالتقوى مخافة الحشر والحساب وطمعاً بالجزاء، كما جاء في حديثه عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٣]، إذ قال: «أمر بالتقوى بفعل الطاعات، والاجتناب عن المعاصي، والحث عليها، وتذكير بالحشر والحساب، فإن أمر التقوى لا يتم إلا مع ذكر الحشر والحساب والجزاء»[٤].

إنّ السيّد السبزواري يحدّد الغرض البلاغي الذي يخرج إليه الأمر ممّا يدل عليه سياق الآية الشريفة، فالتقوى والعلم لا يحصلان إلا بعد تذكر الآخرة وأحوالها، لذا فإنّه يحث المؤمنين على التحلي بهما.

٧ ـ التحذير:

غرض بلاغي آخر يستفاد من أسلوب الأمر، أشار إليه صاحب المواهب في

---

[١] الأنعام: الآية / ١١.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ٧٥.

[٣] البقرة: الآية / ٢٠٣.

[٤] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، حيث قال: «يستفاد من الأمر بالتقوى والتحذير الشديد عن تركها، لأنّ لها الأهمية العظمى في الآية الشريفة وتهذيب النفوس وتكميلها»[٢]، وأشار إلى أنّ الأمر الثاني في الآية الشريفة أفاد غرض التحذير أيضاً، إذ قال: «أمر بالتوكل على الله تعالى خاصّة دون غيره من الأسباب... وإن كان ظاهر الكلام بصورة الأمر فإنّه أدعى للتحذير وللاعتبار بأحوال الماضين»[٣].

يرى صاحب المواهب أنّ الآية الكريمة تحذر المؤمنين من ترك التقوى وترك التوكل عليه عزّ وجلّ وهو ما يناسب سياق الآية الشريفة.

٨ ـ التوجيه:

من الأغراض التي أشار إليها المفسّر، والتي قد يخرج إليها أسلوب الأمر، بيّن ذلك عند تفسيره قوله تعالى:. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[٤]، إذ قال: «بيان لفساد ضمائرهم، إذ لو لم يكن كذلك لما أمر الرسول (صلّى الله عليه وآله) بالاعراض عمّن يقول الحق في قوله، وإنّما كان توجيه الرسول (صلّى الله عليه وآله) بالاعراض عنهم مطلقاً، سواء في قبول عذرهم أم غير ذلك»[٥].

وفي مثال قرآني آخر ذكر أنّ أسلوب الأمر أفاد معنى التوجيه في قوله تعالى:

---

[١] المائدة: الآية / ١١.

[٢] مواهب الرحمن: ١١ / ٧٢.

[٣] مواهب الرحمن: ١١ / ٧٣.

[٤] النساء: الآية: ٦٣.

[٥] مواهب الرحمن: ٨ / ٣٨٥.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلا نَفْسَكَ﴾[١]، قال: «توجيه تربوي يهم الرسول القائد (صلّى الله عليه وآله) أكثر من غيره، فيوجه سبحانه وتعالى الأمر له ليعطي درساً للقدوة الواقعية»[٢]، لقد أكّد السيّد السبزواري على الأغراض التي يفيدها أسلوب الأمر، وهو دائماً يوجهها بما يناسب الخطاب القرآني والسياق و(التوجيه) من هذه الأغراض، وارتأى أن يكون أسلوب الأمر في المثالين السابقين لإفادة هذا المعنى.

لقد دأب السيّد السبزواري في تفسيره لأجل الوصول إلى المعنى المقصود من الكلام الشريف، وكان لا بدّ له من الاستعانة بعلوم البلاغة وهذا واضح خلال تفسيره، فلم يدخّر جهداً من أجل الوصول إلى غايته المنشودة، وما اعتناءه بمباحث البلاغة وجعلها ركناً أساسياً في تحديد المعنى إلا لعلمه بخطرها وأهميتها... وقد رأينا ذلك عند توجيهه أسلوب الأمر لإفادة الأغراض المجازية التي هي بعيدة عن المعنى الحقيقي الذي يفهم من الكلام الظاهر.

«النهي»

جاء في لسان العرب أن النهي خلاف الأمر، ونهاه ينهاه نهياً، فانتهى وتناهى: كفّ[٣]، وأمّا في الاصطلاح، قال ابن السراج: «إذ قلت (قم) إنّما تأمره بأن يكون منه قيام، فاذا نهيت فقلت: (لا تقم) فقد أردت منه نفي ذلك، فكما أنّ الأمر يراد

---

[١] النساء: الآية / ٨٤.

[٢] مواهب الرحمن: ٩ / ٩٠.

[٣] ينظر: لسان العرب، مادة (نهى): ١٤ / ٢١٢.

به الايجاب فكذلك النهي يراد به النفي»[١].

وعرّفه يحيى العلوي بقوله: «وهو عبارة عن قول يُنبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء، كقولك: لا تفعل»[٢]، ومن البلاغيين المحدثين تحدّث الدكتور بسيوني عبد الفتاح عن النهي فقال: «أسلوب يطلب به الكفّ عن الفعل على جهة الاستعلاء والالزام فيكون من جهة عليا ناهية إلى جهة دنيا منهية، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية»[٣].

والذي تهتم به الدراسات البلاغية ليس طلب الكفّ عن الفعل، أي: النهي الحقيقي لتلك الصيغة، وإنّما تهتم بما وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهي، تبعاً لطبيعة الخطاب وحال التراكيب ومعطيات السياق.

وقد تعرّض السيّد السبزواري في تفسيره الآيات المشتملة على أسلوب النهي للأغراض البلاغية التي خرج لها، ومنها:

١ ـ الارشاد:

وهو من المعاني المجازية التي تستفاد من النهي، وقد ذكره السيوطي ضمنها[٤] ووجّه صاحب المواهب النهي إلى الاغراض البلاغية التي أفادها عند تفسيره الآيات الشريفة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[٥]، فيعتقد إنّ الوهن والحزن لمن يسلك طريق الحقّ لا يقرّه العقل، لذا

---

[١] الأصول في النحو، أبي بكر ابن السراج: ٢ / ١٦٣.

[٢] الطراز: ٥٣١.

[٣] علم المعاني: د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ٢ / ٨١

[٤] ينظر: الاتقان: ٣ / ٢٠٩.

[٥] آل عمران: الاية / ١٣٩.

لا يمكن أن يكون النهي حقيقياً، قال: «إنّ الوهن والحزن في الحق قبيح عقلاً مع العلم بالعلو، فالنهي إرشادي لا أن يكون مولوياً»[١].

وفي موضع آخر يرى السيّد السبزواري في قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢]، أنّ النهي أفاد غرض الارشاد أيضاً، قال: «النهي عن التمني إنّما لأجل عدم امكان تحقق المسبب بدون سببه فيكون النهي ارشادياً تكوينياً لا نهياً مولوياً وهو يرشد الناس إلى حفظ القانون والنظام والتكويني»[٣].

اثبت المفسّر أنّ النهي في الآية الكريمة إرشادي، يرشد المؤمنين إلى الخير، وترك تمني ما ليس لهم، لأنّه يدعو إلى الحسد ولا يمكن أن يتصف به مؤمن، فغرض الإرشاد يناسب المعنى الظاهر من السياق.

٢ ـ التعظيم:

يرى صاحب المواهب أنّ النهي يراد به غرض التعظيم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[٤]، وقد أوضح هذا الغرض من خلال الأسلوب الذي ورد به الذي يبرز عظمة الاقتراب من الصلاة في حالة السكر، وقد أورد أيضاً أمثلة قرآنية أخرى لها نسق الأسلوب نفسه، قال: ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ﴾ أبلغ من أن نقول لا تصلّوا، لأنّه يشمل الغشيان والتلبس بالفعل وجميع أنحاء القرب والدنو منه، ومنها الدخول في مواضع الصلاة ومقدماتها

---

[١] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٨٧.

[٢] النساء: الآية / ٣٢.

[٣] مواهب الرحمن: ٨ / ١٦٤.

[٤] النساء: الآية / ٤٣.

كما عرفت في التفسير، وقد ورد مثل هذه العبارة في غير المقام مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾[٢]، لبيان شدّة النكير وعظمة الأمر»[٣].

وذكر الزمخشري غرض التحريم عند تفسيره هذه الآية الكريمة[٤]، والسيّد السبزواري لا ينفي إفادتها التحريم، وإنّما إتيان النهي عن القرب منها يدخل في النفس عظمة الأمر المنهي عنه، فهو لا يصرح في هذا المثال عن الغرض إلا بعد أن يبيّن الأمر المنهي عنه، فالسكر لا يكون مع الصلاة التي هي غشيان وتلبس واتحاد بالقرب والدنو من حالة العبودية.

٣ ـ الدعاء:

ذكر سيبويه أنّ (لا) الناهية قد تستعمل في معنى (الدعاء)[٥]، وأشار المفسّر إلى هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٦]، يرى أنّ جملة ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قد أفادت (المبالغة في الدعاء والالحاح في بما استولى عليهم من الرهبة»[٧].

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

---

[١] الاسراء: الآية / ٣٤.

[٢] الأنعام: الآية / ١٥١.

[٣] مواهب الرحمن: ٨ / ٢٦٣.

[٤] ينظر: الكشّاف / ١ / ٥٤٥.

[٥] ينظر: الكتاب: ١ / ١٤٢.

[٦] آل عمران: الآية / ١٩٤.

[٧] مواهب الرحمن / ٧ / ١٧٩.

إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا﴾[١]، رأى أنّ النهي يتضمن «الدعاء بالتوفيق والسداد لتحمل الدين بعد حدوثه، وبقاءه وإقامته، ولا أثر لأحدهما بدون الآخر، ولذا كان هذا الدعاء بعد السمع والطاعة لأصل الدين وتحمله بالوجه الصحيح، ثمّ نشره لأعلان الحق»[٢]، وقد وجّه الزمخشري النهي في الآية الكريمة للغرض نفسه وإن رأى أنّ الدعاء لأستدامة فضل الله والاعتداد بالنعمة فيه[٣].

٤ ـ التنزيه:

وهو من المعاني المجازية التي يفيدها النهي، وتنبّه إلى ذلك الزمخشري فوجّه النهي في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ﴾[٤] إليه، فرأى أنّه أفاد تنزيه الله عن الشريك والولد[٥].

واعتقد السيّد السبزواري أنّ جميع نواهي الآية الكريمة ﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا

---

[١] البقرة: الآية / ٢٨٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٥١٥.

[٣] ينظر: الكشاف: ١ / ٣٥٩.

[٤] النساء: الآية / ١٧١.

[٥] ينظر: الكشاف: ١ / ٦٢٦.

يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً...﴾[١]، قد أفادت التنزيه، قال: «ما علّمه الله، أعمّ من أن يكون بواسطة أنبيائه، ورسله، أو ما أرشد العقل إليه، والنهي فيها للتنزيه»[٢]، وقال في مكان آخر: «النهي للتنزيه كما في سائر نواهي هذه الآية الكريمة، ولدلالة السنّة الشريفة عليه»[٣]، فهو قد اعتمد ما جاء في السنّة الشريفة لتوجيه دلالة النهي إذ أنّها تؤكد على تنزيه النفس فيما بينها وبين الله تعالى عن خيانة الأمانة، ولا يكون ذلك إلا بدافع التقوى التي تحفظ الإنسان من عدم الاخلال بالشهادة، وأرى أنّ التنزيه مناسب لسياق النهي الذي ورد في الآية الكريمة.

٥ ـ التحريم:

أشار السيّد السبزواري إلى هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[٤]، قال إنّ النهي: «يدل على حرمة الأموال بالباطل والتصرف فيها بما نهى عنها الشارع»[٥]، وأشار الطبري إلى نفس الغرض عند تفسيره الآية الكريمة قال: «إنّ الله تعالى حرّم أكل أموالنا بيننا بالباطل، ولا خلاف بين المسلمين أن أكل ذلك حرام بيننا، فإنّ الله لم يحلّ قط أكل الأموال بالباطل»[٦].

---

[١] البقرة: الآية / ٢٨٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٧٨.

[٣] المصدر نفسه: ٤ / ٤٨٢.

[٤] النساء: الآية / ٢٩.

[٥] مواهب الرحمن: ٨ / ١٢٣.

[٦] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ٨ / ٢١٨.

وأثبت صاحب المواهب هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾[١]، قال: «حرمة الابتزاز والاستبداد بالمرأة، والنهي عن التضييق على النساء بكل وجه من وجوه التضييق، وحرمة إضطهادهن ليستفيدوا منهن أية فائدة»[٢].

فالتحريم من الأغراض المجازية التي أشار إليها المفسّر، التي تستفاد من أسلوب النهي ويكون تمييزه عن باقي الأغراض من خلال فهم سياق الخطاب القرآني، وأيضاً باتباع ما جاء في السنّة الشريفة بحسب ما أشار المفسّر.

٦ ـ التوبيخ:

يرى صاحب المواهب أنّ النهي يخرج لغرض التوبيخ أيضاً، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، قال: «توبيخ للمخاطب العاقل على صورة النهي يعني أنّه مع علمكم بألطافه تعالى وعناياته عليكم تجعلون له شريكاً ومثلاً»[٤].

فالتوبيخ للمخاطب العاقل، الذي حصل عنده العلم بألطاف الله وعناياته الشاملة، مع ذلك فإنّه يجعل له شريك ولا يقرّ بالوحدانية.

وفي ضوء ذلك نجد أن السيّد السبزواري يحدد الأغراض البلاغية التي أفادها النهي بتحليله الخطاب القرآني وفهم مستوياته التعبيرية، وارتباط الآية المشتملة

---

[١] النساء: الآية: ١٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ٤٠٥.

[٣] البقرة: الآية / ٢٢.

[٤] مواهب الرحمن: ١ / ١٥١.

على النهي بما قبلها وما بعدها للكشف عن سياقها العام وصولاً إلى المعنى المقصود، وأيضاً اعتماده على السنّة الشريفة للوصول إلى المعنى المراد من الآيات الكريمة.

وهذا يؤكد اعتماده على مباحث البلاغة وعدّها ركناً أساسياً في تفسير القرآن، فمن خلالها يتحدد المعنى بدقّة، ويعرف المراد منه.

«الاستفهام»

الاستفهام في اللغة من: استفهمه، أي: سأله أن يُفَهمّه إيّاه، واستفهمني الشيء فأفهمته وفهّمته تفهيماً[١]، أمّا في الاصطلاح فقد حدّه ابن فارس بقوله: «هو طلب الفهم لشيء لم يكن مفهوماً عند المستفهم»[٢]، وذهب المبرد (ت: ٢٨٥ هـ) إلى أنّ الاستفهام في القرآن الكريم يختلف عن غيره، لأنّ الله سبحانه وتعالى منزّه من عدم العلم، وإنّما الاستفهام يكون عن شيء لم يكن مفهوماً عند المستفهم، والله سبحانه وتعالى لا يستفهم خلقه عن شيء، فالاستفهام في القرآن غير حقيقي، لأنّه واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الافهام، وإنّما يخرج الاستفهام في القرآن مخرج التوبيخ والتقرير، فالله تعالى يستفهم عباده ليقرّرهم ويذكّرهم أنّهم قد علموا حقّ ذلك الشيء[٣].

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (فهم): ١٠ / ٣٤٣.

[٢] الصاحبي في فقه اللغة: ١٨١.

[٣] ينظر: المقتضب، المبرد: ٢ / ٢٩٢.

وتبعاً لذلك، فالاستفهام في القرآن الكريم يفيد معاني أخرى على سبيل المجاز تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، وأشار السيّد السبزواري إلى تلك المعاني عند تفسيره الآيات المشتملة على الاستفهام، مبيّناً الأغراض التي أفادها، ومن أهمها:

١ ـ الإنكار:

قال ابن هشام (ت: ٧٦١ هـ): إنّ الهمزة تفيد (الإنكار التوبيخي)، فيقتضي أنّ ما بعدها واقع وأنّ فاعلها ملوم[١]، وأشار إلى هذا الغرض السكاكي في قوله: «أما ترى الإنكار في ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]»[٣].

ويرى صاحب المواهب أنّ الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[٤] قد أفاد غرض الانكار، إذ قال: «(من) للأستفهام الانكاري أي: لا يرغب عن ملّة ابراهيم الداعية إلى التوحيد والأخلاق والحنفيّة إلا السفيه»[٥].

وقد أشار المفسّر إلى مواطن كثيرة يفيد فيها الاستفهام الانكار[٦]، منها في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾[٧]، قال: «الاستفهام

---

[١] ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام الانصاري: ١ / ١٧ ـ ١٨.

[٢] الأنبياء: الآية / ٦.

[٣] مفتاح العلوم: ٥٩٨.

[٤] البقرة: الآية / ١٣٠.

[٥] مواهب الرحمن: ٢ / ٦٧.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ٢٦٠، ١١ / ٣١٥.

[٧] الأنعام: الآية / ٥٠.

إنكاري، أي إنكار استواء من لا يعلم الحقائق ومن يعلمها والناظر والمفكّر إليها»[١].

لقد وجّه المراد من الاستفهام في الآية الكريمة، أي: إنكار استواء الأعمى والبصير فلا وجه للاستفهام الحقيقي لاختلاف الرتبة بين الذي يعلم والذي لا يعلم، وهذا المعنى هو الذي ناسب السياق.

٢ ـ التعجب:

ذكر سيبويه هذا الغرض، قال: «إنّك تقول سبحان الله من هو، وما هو! فهذا استفهام فيه معنى التعجب»[٢]، وذكر السيّد السبزواري هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[٣]، حيث قال: «أنّى: كلمة استفهام بمعنى أين تدل على السؤال عن الوضع والجهات وفيها معنى التعجب، والسؤال إنّما كان لعظمة هذا الرزق كما عرفت مع أنّها امرأة عاجزة عن تحصيله في هذا الوضع المعين وفي هذا الحال»[٤]، اعتمد صاحب المواهب على سياق قصة مريم عليها السلام لابراز هذا الغرض، فكان سؤال زكريا عليه السلام لها، لمعرفته بحالها وعجزها عن استحصال هكذا رزق، فالاستفهام من قبله يكشف عن استغرابه وتعجبه، وفي مثال قرآني آخر يرى أنّ الاستفهام أفاد معنى التعجب أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٣٦.

[٢] الكتاب: ٣ / ١٨١.

[٣] آل عمران: الآية / ٣٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٩٥.

يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١]، إذ يرى أنّ: «الاستفهام للتعجب من حالهم واصرارهم على التثليث مع وضوح بطلانه وما جاءهم من البينات والنذر»[٢]، ويرى المفسّر أنّه ممكن أن يكون لإفادة التقرير والتوبيخ أيضاً[٣]، وواضح وأنّه أقرب لافادة التوبيخ من التعجب، فالله يوبّخهم لعدم توبتهم واستغفارهم مع علمهم أنّه غفور رحيم.

٣ ـ التقرير:

قال أبو عبيدة (ت: ٢٠٨ هـ): «تقول وأنت تضرب الغلام على الذنب: (ألست الفاعل كذا؟)، ليس باستفهام ولكن تقرير»[٤]، فمعنى التقرير إذن حمل المخاطب على الاقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[٥].

ووجّه المفسّر بعض مواطن الاستفهام لهذا الغرض، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾[٦]، قال: «الاستفهام تقريري، أي: أنظر أحوالهم تراهم كذلك فيتطابق المخبر مع المحسوس وهذا أحسن وجه لبيان فساد طريقتهم وسوء عقيدتهم ونفاق سريرتهم»[٧]، ففي الكلام إقرار بالرؤية «وذلك أنّه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا، لأنّ ذلك يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص

---

[١] المائدة: الآيتان / ٧٣ ـ ٧٤.

[٢] مواهب الرحمن: ١٢ / ٧٤.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ١٢ / ٧٤.

[٤] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى: ١ / ٣٦.

[٥] ينظر: البرهان: ٢ / ٣٣١.

[٦] آل عمران: الآية / ٢٣.

[٧] مواهب الرحمن: ٥ / ١٩٣.

نحو أن تقول: من قال هذا الشعر؟»[١].

وفي موطن آخر يصرّح بمعنى التقرير عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾[٢]، حيث رأى أنّه «خطاب للمأخوذ منه الكتاب والاستفهام تقريري، والاقرار معروف وهو الاثبات والالزام»[٣].

إنّ صاحب المواهب لا يذكر معنى الآية الكريمة المشتملة على الاستفهام إلا بعد بيان الغرض البلاغي الذي أفاده، وهذا يدل على أنّ للبلاغة شأناً رفيعاً، فالقرآن مشتمل على جلّ فنونها، لذا لا بدّ للمفسّر من أن يكون على معرفة بها حتّى يتأتّى له الكشف عن المعنى.

٤ ـ الاستبعاد:

لقد ذكر هذا الغرض يحيى العلوي، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾[٤]، أي: يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم الرسول ثمّ تولوا عنه[٥]، وقد بيّن المفسّر هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[٦]، قال: «إنّ الاستفهام في الآية الشريفة لغرض استبعادهم، أن يكون صلّى الله عليه وآله شهيداً يشهد على

---

[١] دلائل الاعجاز: ٨٨.

[٢] آل عمران: الآية / ٨١.

[٣] مواهب الرحمن: ٦ / ١٠٧.

[٤] الدخان: الآية / ١٣.

[٥] ينظر: الطراز: ٥٣٤، وينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس اسماعيل الأوسي: ٤٦٠.

[٦] النساء: الآية / ٤١.

أعمالهم وسرائرهم وهو من أفراد الإنسان ويكون مطّلعاً على جميع حالاتهم وقد تفانوا في طلب الدنيا وجبلت قلوبهم على حبّها»[١].

إنّه يشير إلى الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام من خلال ما يكشف عنه السياق العام للآيات الشريفة، ومن ثمّ يوجّه معناها، ويلحظ ذلك أيضاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾[٢]، حيث قال: «أسلوب الآية الكريمة الفصيح يدل على استبعاد وقوع هذه الشهادة التي تخالف الفطرة بعد بيان الشهادة الحقّة»[٣]، فهو يستبعد شهادتهم الباطلة، وكان استعمال أسلوب الاستفهام الفصيح هو من كشف له عن هذا المعنى.

٥ ـ الأمر:

وهو من المعاني التي يفيدها الاستفهام، وذكر ذلك السيوطي في نحو قوله تعالى: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾[٤]، أي: أسلموا، و ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٥]، أي: انتهوا[٦]، وذهب السيّد السبزواري أنّ الآية الكريمة: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾[٧]، أفاد الاستفهام فيها معنى الأمر، واتفق بذلك مع السيوطي، قال: «الاستفهام في الآية المباركة فيه الأمر بالإسلام، والمعنى: قل يا

---

[١] مواهب الرحمن: ٨ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

[٢] الأنعام: الآية / ١٩.

[٣] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٤٢.

[٤] آل عمران: الآية / ٢٠.

[٥] المائدة: الآية / ٩١.

[٦] ينظر: الاتقان: ٢ / ٢٠٤.

[٧] آل عمران: الآية / ٢٠.

رسول الله لليهود والنصارى ومشركي العرب أسلموا وأدخلوا في سلم الله تعالى ولا تحاربوه بعدما جاءكم من البينات»[١]، لكنّه لم يتفق مع السيوطي في توجيه الاستفهام إلى معنى الأمر في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٢]، فرأى أنّ الاستفهام أفاد المبالغة في الوعيد والتهديد، وهو أبلغ من (انتهوا)[٣]، والظاهر أنّه أقرب للإدراك، وأسلم للمعنى الذي يريد أن يخبر عنه السياق.

٦ ـ النفي:

ذكر هذا الغرض الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٤] فالمعنى أنّه لا يأسى عليهم لأنّهم ليسوا أحقاء بالأسى[٥].

وبيّن السيّد السبزواري أنّ الاستفهام يفيد معنى النفي، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾[٦]، إذ قال: «هل يهلك معناها النفي أي: ما يهلك إلا القوم الظالمون ولذلك دخلت (إلا)»[٧]، وذهب الزمخشري إلى المعنى نفسه عند تفسيره هذه الآية الكريمة بقوله: «أي: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون»[٨].

---

[١] مواهب الرحمن: ٥ / ١٧٢.

[٢] المائدة: الآية / ٩١.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ١٢ / ٢١٧.

[٤] الأعراف: الآية / ٩٣.

[٥] ينظر: الكشّاف: ٢ / ١٢٥.

[٦] الأنعام: الآية / ٤٧.

[٧] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٢٥.

[٨] الكشاف: ٢ / ٢٤.

ويصف المفسّر في موطن آخر أسلوب الاستفهام المتضمن معنى النفي، بأنّه أسلوب بلاغي فصيح وهو حاصل بنفي الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[١]، إذ قال: «في التعبير ايحاء عجيب، وكمال العطف بخلقه، ويستفاد من هذا الأسلوب البديع الذي اشتمل الاستفهام فيه (ما) على النفي الموجب عن العذاب بنفي الفعل، وهو أسلوب بلاغي فصيح، فما يفعل الله بعذاب أحد لأنّه لم يكن فيه موجب لعقابه تعالى»[٢].

٧ ـ التوبيخ:

ذكر هذا الغرض البلاغي الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[٣]، رأى أنّ الاستفهام أفاد التوبيخ على ما سلف وفرط من اجرامهم[٤] وذكر هذا الغرض ايضاً الزركشي عند حديثه عن المعاني المجازية التي يخرج لها الاستفهام[٥].

وأشار إليه صاحب المواهب وعدّه من المعاني التي يفيدها الاستفهام، ونلحظ ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[٦]، إذ قال: «الاستفهام توبيخي، يعني: فلم تنازعون وتحاجّون في أمور لا تعلمون

---

[١] النساء: الآية / ١٤٧.

[٢] مواهب الرحمن: ١٠ / ٥٩.

[٣] البقرة: الآية / ٢٨.

[٤] ينظر: جامع البيان: ١ / ٤٢٢.

[٥] ينظر: البرهان: ٢ / ٣٥٧.

[٦] آل عمران: الآية / ٦٦.

بها وتغالطون فيها، والواجب عليكم اتباع الوحي المبين ومتابعة سيّد المرسلين»[١] ويثبت هذا الغرض أيضاً للاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾[٢]، قال: «توبيخ لهم بعدم اتباع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إليهم لهدايتهم»[٣].

يتضح من خلال ذلك أن السيّد السبزواري لم يهمل الحديث عن المعاني المستفادة من أسلوب الاستفهام والتوبيخ أحدها، ونراه في مواضع أخرى يشير إليه مع غرض آخر يستفاد من الاستفهام في نفس السياق، كإشارته إلى التوبيخ والتعجيز[٤]، وإلى التوبيخ والتعيير[٥].

٨ ـ التقريع:

وهو من الأغراض البلاغية التي يخرج لها الاستفهام، ذكره السيوطي وضرب له الأمثلة من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[٦]، وأحياناً يعبّر عن التوبيخ به[٧]، وأشار إليه صاحب المواهب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

---

[١] مواهب الرحمن: ٦ / ٤١.

[٢] الأنعام: الآية / ١٣٠.

[٣] مواهب الرحمن: ١٤ / ٣٩١.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ١٤ / ٤٣٣.

[٥] ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ١٠٢.

[٦] طه: الآية / ٩٣.

[٧] ينظر: الاتقان: ٢ / ٢٠٢.

تَكْفُرُونَ﴾[١]، إذ قال: «الهمزة في (أليس) للتقريع، أي ليس هذا البعث كائناً مشاهداً بالعيان، وهذا الكلام تعبير منه عزّ وجلّ لهم عن تكذيبهم بالبعث»[٢]، وقد ذكر الزمخشري غرض التقريع عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٣]، فرأى أن في الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، فيكون تقريعهم أشد[٤].

وفي موضع آخر بين السيّد السبزواري أنّ الاستفهام يفيد التقريع والتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾[٥]، رأى أنّ: الواو في (أو) حرف عطف تصدر بأداة الاستفهام الدالة على التوبيخ والتقريع لعادتهم في نقض العهود»[٦].

وأشار إلى التقريع والتوبيخ أيضاً في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾[٧]، يرى أنّه أفاد التقريع والتوبيخ لبني اسرائيل لطغيانهم رغم ما آتاهم الله من آيات بينات[٨]، وأشار السيّد السبزواري إلى أغراض أخرى من مثل التوجيه والاختبار وقد لا أجد من أشار إليهما قبله، وذكر كلاً منهما في

---

[١] الأنعام: الآية / ٣٠.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٩٠.

[٣] سبأ: الآية / ٤٠.

[٤] ينظر: الكشاف: ٣ / ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

[٥] البقرة: الآية / ١٠٠.

[٦] مواهب الرحمن: ١ / ٤٨٠.

[٧] البقرة: الآية / ٢١١.

[٨] ينظر: مواهب الرحمن: ٣ / ٢٦٥.

موضع واحد فقط، فلقد أشار إلى التوجيه في قوله تعالى: « ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾[١]، قال: «إنّما أتى سبحانه وتعالى بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب... وهو أسلوب فصيح يؤثّر في النفس ويستفزّها على اصغاء الجواب»[٢].

وأشار إلى الاختبار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[٣]، قال: «الاستفهام في الآية الشريفة لاختبار القوم ومعرفة المؤمن منهم عن غيره وبيان أهمية النصرة الله تعالى»[٤].

يتضح ممّا تقدم أن صاحب المواهب قد اتبع من سبقه في توجيه الاستفهام الوارد في القرآن الكريم إلى المعاني التي أفادها، وخروج الاستفهام إلى هذه المعاني من المسلّمات عند العرب، قيل: «قد توسّعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته تلك المعاني»[٥]، وهذه المعاني معروفة، وهي مذكورة في الكتب المختصة، إلا أنّه يبقى للمفسّر رأيه، وهو قد يتفق مع غيره في موضع من مواضع الاستفهام، أو يختلف عنه بحسب ما يمليه عليه فهمه لسياق الآيات الكريمة وما المراد منها.

وقد زاد المفسّر على هذه الأغراض غرضي التوجيه والاختبار، كما أشرت فيما سبق، أمّا ما عدا هذين الغرضين فإنّه جاء مجارياً لمن سبقه.

---

[١] آل عمران: الآية / ١٥.

[٢] مواهب الرحمن: ٥ / ١٣٦.

[٣] آل عمران: الآية / ٥٢.

[٤] مواهب الرحمن: ١١ / ٣٧٨.

[٥] الاتقان: ٢ / ٢٠١ ـ ٢٠٢.

المبحث الثالث
«التقديم والتأخير»

إن الجملة في اللغة العربية لها نظام خاص يقوم بناؤها عليه، ويحدّد هذا البناء علم النحو، ويحدد طرائقه ومواقع ألفاظه، وهو المتعارف عليه في نظام الجملة الفعلية والجملة الاسمية، وقد تخرج هذه الجملة عن هذا البناء فيقدم ما كان مؤخراً، ويؤخر ما حقّه التقديم أو أنّ تقدّم ألفاظ بعضها على بعض، وكلّ ذلك خاضع لأغراض أسلوبية تستفاد من الكلام عندما توجد الرغبة لدى المتكلم لتحقيقها، وهذه الأغراض لها أثرها الفني في المعنى الذي هو غاية الكلام.

وقد وصف عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير بقوله: «باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية»[١]، بينما قال فيه الزركشي: «هو أحد أساليب البلاغة، فإنّهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق»[٢].

وأكّد علماء البلاغة المحدثون أنّ التقديم والتأخير لا يكون إلا لأجل فائدة بلاغية، كما هو واضح من قول الدكتور عبد العزيز عتيق: «تقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وتأليفه، وإنّما يكون عملاً مقصوداً

---

[١] دلائل الاعجاز: ٨٣.

[٢] البرهان: ٣ / ٣٢٥.

يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيها»[١].

واهتم السيّد السبزواري بالتقديم والتأخير في تفسيره وهو بذلك يذكر جملة من الأغراض البلاغية التي من أجلها حصل التقديم والتأخير، منها:

١ ـ التشريف:

ذكر هذا الغرض يحيى العلوي ومثّل له بنحو تقدّم الأنبياء على الاتباع والعلماء على الجهّال[٢]، وأكد صاحب المواهب هذا المعنى عند حديثه عن سبب تقديم إبراهيم عليه السلام على باقي الأنبياء عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[٣]، قال: «إنّما قدّم إبراهيم عليه السلام تشريفاً لأنّه عليه السلام أبو الأنبياء الذين بعده، وقد اعترفت بنبوته جميع الأديان الإلهية»[٤]، ويرى في موطن آخر أنّ الغرض من تقديم خطاب النبي صلّى الله عليه وآله لأجل التشريف أيضاً في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٥]، حيث يرى: «في تقديم خطابه صلّى الله عليه وآله في الموضعين الشريفين للتشريف، وإلا كان بحسب الظاهر أن يكون (وما عليهم من حسابك من شيء) بتقديم على ومجرورها، كما في الأول، أو تقديم (عليك) في الجملة

---

[١] علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق: ١١٦.

[٢] ينظر: الطراز: ٢٣٠، ٢٣٨.

[٣] النساء: الآية / ١٦٣.

[٤] مواهب الرحمن: ١٠ / ١٩١.

[٥] الأنعام: الآية / ٥٢.

الأولى»[١]، فالمفسّر كشف عن الغرض من التقديم الحاصل في المثالين السابقين، وهذا يدل على أنّ له إطلاعاً على أحوال التقديم، وإنّما يكون في القرآن الكريم لإفادة أغراض معينة، فمن المحال أن يرد اعتباطاً ليس له غاية تذكر، وتشريف المقدّم هو أحد هذه الأغراض التي يحصل لأجلها التقديم.

٢ ـ التخصيص:

ذكر السكاكي أنّ التقديم يفيد زيادة التخصيص[٢]، ورأى يحيى العلوي أنّ الشيئين إذا كان كلّ واحد منهما مختصاً بصفة تقتضي تقديمه على الآخر، فقدّم أيهما شئت منهما[٣]، وقد بيّن السيّد السبزواري هذا الغرض وبيّن فائدته في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[٤]، إذ قال: «وتقديم المفعول (حكم) للتخصيص المفيد لتأكيد الانكار والتعجب»[٥]، لقد رأى أنّ التخصيص الحاصل من التقديم قد أفاد تأكيد غرض الانكار والتعجب الحاصل من الاستفهام، وفي موضع آخر وجّه التقديم لأجل التخصيص وليس رعاية للفواصل في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[٦]، قال: «(إيّاه) مفعول مقدّم، وفيه الاخبار عمّا تقتضيه فطرتهم، فإنّه إذا

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٤٦.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٩٠.

[٣] ينظر: الطراز: ٢٣٧.

[٤] المائدة: الآية / ٥٠.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ٣١٨.

[٦] الأنعام: الآية / ٤١.

حلّ بالإنسان العذاب واستمر عليه لا يدعو إلا الله تعالى وحده دون غيره، فيكون تقديم المفعول لإفادة التخصيص دون رعاية الفواصل»[١].

وقد ذكر الزمخشري أنّ التقديم في هذه الآية يفيد التخصيص، أي: تخصيص الله بالدعاء دون غيره[٢]، وصاحب المواهب قد تابعه في ذلك، وهو ما يفرضه سياق الكلام، فوقت الشدة يخلص الانسان في دعائه، ويخصّصه لله دون غيره.

٣ ـ السبق:

تُقدّم بعض الألفاظ على بعض، بسبب سبقها في الوجود، وذكر يحيى العلوي الظلمات على النور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[٣]، لأنّ الظلمة سابقة على النور، وعدم الشيء سابق على وجوده[٤]، وأشار صاحب المواهب المعنى نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾[٥]، قال: «إنّما قدّم عزّ وجلّ الليل على النهار في الآيات المشتملة عليهما، لأنّ ضوء النهار أمر وجودي متقوّم بطلوع الشمس وغروبها وهو مسبوق بالعدم، فيكون الأصل هو الظلمة وإن كان الليل والنهار متلازمين في التحقّق الخارجي»[٦].

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٨٢.

[٢] ينظر: الكشاف: ٢ / ٢٢.

[٣] الأنعام: الآية ١٧.

[٤] ينظر: الطراز: ٢٣١.

[٥] البقرة: الآية / ١٦٤.

[٦] مواهب الرحمن: ٢ / ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

وأشار إليه المفسّر أيضا في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[١]، إذ قال: «إنّما قدّم عزّ وجلّ التمحيص على المحق لسبق رحمته على غضبه»[٢]، فالسبق إذن يفسّر تقديم بعض الألفاظ على بعض في القرآن الكريم، وأقرّ ذلك صاحب المواهب في تفسيره.

٤ ـ التشويق:

ذكر السكاكي أنّ في التقديم تشويقاً إلى الخبر ليتمكّن في ذهن السامع[٣]، وذكر المعنى نفسه التفتازاني، وأضاف إنّ حصول الشيء بعد التشوّق ألذّ وأوقع في النفس[٤]، وأشار صاحب المواهب إليه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٥]، رأى أنّ: «تقديم الجار للأيذان بأنّ الاكمال إنّما يكون لمصلحتكم ومنفعتكم، وتشويق إلى ذكر المؤخر»[٦]، وفي مثال قرآني آخر رأى أنّ التقديم أفاد العناية بالمقدم وتشويق السامع إليه، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[٧] إذ: «فريقاً في الموضعين مفعولان للفعلين بعدهما، قُدّما عليه عناية بأمرهما وتشويق السامع إلى ما فعلوه به»[٨].

---

[١] آل عمران: الآية / ١٤١.

[٢] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

[٣] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٨٨.

[٤] ينظر: المطول: ٢٤٣.

[٥] المائدة: الآية / ٣.

[٦] مواهب الرحمن: ١٠ / ٣٦١.

[٧] المائدة: الآية / ٧٠.

[٨] مواهب الرحمن: ١٢ / ٥٧.

فالتشويق غرض بلاغي، كان وراء تقديم بعض الألفاظ على بعض، وقد أكد المفسّر ذلك بتوجيهه بعض مواضع التقديم إليه.

٥ ـ الشيوع:

وهو من الأغراض التي أشار إليها السيّد السبزواري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾[١]، إذ قال: «إنّما قدّم السارق في آية السرقة، وقدم الزانية في آية الزنا[٢]، لأنّ السرقة في الرجال أشيع منها في النساء، لأنّها مبنية على القوة، وهي في الرجال أكثر، كما أنّ الزنا في النساء أشيع منه في الرجال، لأنّه مبني على الشهوة، وهي في النساء أشدّ»[٣].

وذكر السيوطي أنّ الله سبحانه وتعالى قدّم السارق على السارقة لأنّ السرقة في الذكور أكثر، وقدّم الزانية على الزاني، لأنّ الزنا في النساء أكثر[٤].

والظاهر أنه ليس هناك فرق بين الشيوع والكثرة وأنّهما يدلان على معنى واحد، فشيوع صفة عند فلان لأنّه يأتي بها على وجه الكثرة، فالمعنى واحد وليس هناك غرض جديد أتى به صاحب المواهب.

٦ ـ الاهتمام:

ذكر عبد القاهر هذا الغرض، ورأى أنّه الأصل في كلّ تقديم جرى عليه العرب، فكأنّهم يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى[٥]، وبين السيّد

---

[١] المائدة: الآية: ٣٨.

[٢] إشارة إلى الآية: ٢ / من سورة النور.

[٣] مواهب الرحمن: ١١ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

[٤] ينظر: الاتقان: ٢ / ١٥.

[٥] ينظر: دلائل الاعجاز: ٨٤.

السبزواري أنّ بعض مواضع التقديم في القرآن الكريم كانت لغرض الاهتمام، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ﴾[١]، قال: «إنّما قدّم الصغير للاهتمام به، أي: لا تكون القلّة مانعة عن الكتابة»[٢].

ورأى أنّ تقديم الظرف يفيد الاهتمام أيضاً، في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾[٣]، قال: «إنّما قدّم الظرف (عليها) على الفاعل (زكريا) لاظهار كمال العناية والاهتمام بأمرها»[٤].

وفي موطن آخر يرى أنّ تقديم المفعول على الفاعل كان لغرض الاهتمام في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[٥]، قال: «إنّما قدّم المفعول على الفاعل في الآية الشريفة اهتماماً بالموضوع»[٦].

أكد صاحب المواهب ورود التقديم لغرض الاهتمام، من خلال إيرار الأمثلة على ذلك، والاعتماد عليه في ابراز المعنى، وهو بذلك يذكر العلّة لبعض مواضع التقديم في القرآن الكريم.

٧ ـ وهناك أغراض أخرى مستفادة من التقديم والتأخير، كشف عنها صاحب المواهب إلا أنّه لم يذكرها إلا لمرة واحدة، منها: التفضيل، وذكر هذا الغرض

---

[١] البقرة: الآية / ٢٨٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٨٢.

[٣] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٨٢.

[٤] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٩٤.

[٥] البقرة: الآية / ١٢٤.

[٦] مواهب الرحمن: ٢ / ٥.

الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[١]، رأى أنّ تقديم الرسول (صلّى الله عليه وآله) على باقي الأنبياء المذكورين في الآية الكريمة لبيان أنّه أفضلهم[٢]، وذكر صاحب المواهب هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾[٣] قال: «إنّما قدّم سبحانه وتعالى الليل والسر على النهار والعلانية لبيان فضل صدقة السرّ، لأنّ العمل فيها أخلص لله تعالى فيكون أقرب للقبول»[٤].

ومنها ما يكون (للدلالة على سرعة استجابة الدعاء)، وقد لا أجد من أشار إلى هذا الغرض قبله، وذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[٥]، قال: «إنّما قدّم سبحانه أنّه يكون بعد قتل جالوت عادةً للدلالة على سرعة استجابة دعائهم، فإنّ الدعاء حين تحقق الابتلاء أقرب إلى الاستجابة»[٦].

ومنها ما يكون بسبب أنّ اللفظ المقدّم أساساً للفظ المؤخر، كما في تقديم الشكر على العبادة في قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

---

[١] الأحزاب: الآية / ٧.

[٢] ينظر: الكشاف / ٣ / ٥٣٣.

[٣] البقرة: الآية / ٢٧٤.

[٤] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٩٩.

[٥] البقرة: الآية / ٢٥١ .

[٦] مواهب الرحمن: ٤ / ١٥٦.

تَعْبُدُونَ﴾[١]، قال: «الشكر على نعمائه ملازم لعبادته، وهي متوقفة على معرفة المعبود ولو إجمالاً، ومن أهم مقدمات المعرفة وجوب شكر المنعم، بل هو أساس العبادة وغاية العبودية، ولذا قدّم عزّ وجلّ الشكر على العبادة في المقام»[٢]، وقد لا أجد من ذكر هذه العلّة من تقديم لفظ الشكر على العبادة.

كشفت الأمثلة المتقدّمة أنّ المفسّر قد تابع من سبقه في ذكر العلّة أو الغرض من تقديم بعض الألفاظ على بعض، وأنّه اجتهد في بعض المواضع وأتى على ذكر أسباب جديدة، إذا أمعنت النظر فيها وجدتها هي المناسبة للسياق كما في المثالين السابقين.

«التقديم والتأخير معاً»

وهو تقديم لفظة في مقام على لفظة أخرى وتأخيرها عن اللفظة نفسها في مقام آخر[٣]، ويرى السيّد السبزواري أنّ السياق العام للآية الشريفة هو الذي يحدد تقدّم اللفظة في موضع وتأخرها في موضع آخر، وهو يوضح ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤]، فبيّن المفسّر علّة تقديم القتل على الموت في الآية الأولى بقوله: «إنّما قدّم القتل في سبيل الله على الموت

---

[١] البقرة: الآية / ١٧٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٢ / ٣٥٠.

[٣] ينظر: التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ٥٩.

[٤] آل عمران: الآيتان / ١٥٧ – ١٥٨.

لأنّ القتل أقرب إلى المغفرة والرحمة والترغيب إليه، والتعريض بما كان يثبّط المؤمنين عنه والرد على الكفار»[١]، وبين علّة تقديم الموت على القتل في الآية الثانية بقوله: «وإنّما قدّم الموت على القتل لأنّ الأول أعم من الثاني وأكثر فناسب الترتيب الطبيعي بخلاف الآية السابقة»[٢]، نراه يعلل التقديم الحاصل في الآيتين بما يناسب سياق كلّ آية، فعند ذكر القتل في سبيل الله قدّم القتل على الموت للترغيب فيه والتعريض بالمتخلفين عنه، وقدّم الموت في الآية الثانية بما يناسب سياقها، وفي مقام آخر يفسّر التقديم والتأخير معاً بما يناسب السياق العام للآيات الشريفة، فهو يتعرض لتقديم (اللعب) على (اللهو) في ثلاثة مواضع ، ومن ثمّ يفسر تقديم (اللهو) على (اللعب) في موضع آخر لاختلاف السياق.

وقد ورد هذا التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٤]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٦]، قال : «إنّ في آيات ثلاث منها ذكر فيها اللعب قبل اللهو، ولعلّ الوجه في تقديم اللعب لأنّه المتقدم في الوجود في الدنيا على اللهو، ولأنّ أول ابتداء تعقل الإنسان حال اللعب فهو المتطابق لسن الابتداء، فإذا استمر اللاهي عن التدبّر والاعتبار وشغل

---

[١] مواهب الرحمن : ٦ / ٤٣٠.

[٢] المصدر نفسه : ٦ / ٤٣٠.

[٣] الأنعام : الآية / ٣٢.

[٤] العنكبوت : الآية / ٦٤.

[٥] الحديد : الآية / ٢٠.

[٦] محمد : الآية / ٣٦.

تماديه عن التفكّر فيما به النجاة والفوز، فجرت الآيات الثلاث على وفق الأعمار والطبيعة»[١]، أمّا سياق آية العنكبوت فالمراد منها يختلف بحسب ما تقدمها من آيات ، قال: «أمّا آية العنكبوت فقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢] ومثل هذا السؤال والجواب لا يتحققان إلا من جاوز سن اللعب وبلغ سن الرشد والتكليف، ممّا يصحّ خطابه وعتابه، فناسب ذكر اللهو واللعب، كما أنّ تأخير اللعب لأنّه متبوع اللهو لزوماً... فكانت في مقام المحاجة مع المشركين وإقامة الحجة عليهم فذكر فيها اللهو قبل اللعب»[٣].

وفي موطن آخر يوجّه صاحب المواهب التقديم والتأخير معاً لما تحمله من مراتب كثيرة، وهي تقدّم في موطن وتؤخر في آخر لحملها على بعض المراتب، وأشار إلى ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٤] حيث رأى: «أنّه الله تعالى قدّم التزكية على التعليم في هذه الآية الشريفة وأخّرها عنه في دعاء ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٥]، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ للتزكية مراتباً كثيرة، منها الارشاد المحض ولاتمام الحجة، ومنها التخلي عن الرذائل، ومنها التحلي بالفضائل، ومنها التجلي بمظاهر الأسماء والصفات الربوبية، ولكل واحد منها

---

[١] مواهب الرحمن : ١٣ / ٢٠٥ – ٢٠٦.

[٢] العنكبوت : الآية / ٦١.

[٣] مواهب الرحمن : ١٣ / ٢٠٦.

[٤] البقرة: الآية / ١٥١.

[٥] البقرة: الآية / ١٢٩.

درجات، فيحمل ما قدمت فيها التزكية على بعض المراتب، وما أخرت فيها عن البعض الآخر»[1]، الظاهر أنّ السيّد السبزواري يوجّه تقديم بعض الألفاظ أو تأخيرها في مواضع أخرى، بما يناسب السياق العام والمعنى الذي يراد من الآيات الشريفة، بذكر ما تقدمها من آيات لتوجيه المعنى المقصود أو أنّ للفظة مراتباً مختلفة، فتقدم في موضع لحملها على بعض مراتبها، وتؤخر لحملها على مراتب أخرى، من خلال ما تقدم نجد أنّه اهتم بالتقديم اهتماماً كبيراً ولم يهمل مواضعه، وإنّما بذل جهده لتفسير ذلك، والكشف عن العلّة التي من أجلها حصل التقديم والتأخير.

[1] مواهب الرحمن: ٢ / ١٨٩.

المبحث الرابع
«التعريف والتنكير»

التعريف بالإضافة

التعريف بالاضافة يكون لفوائد وأغراض، وقد أشار السكاكي إلى ذلك، إذ رأى أنّ الذي يقتضي التعريف اذا كان المقصود من الكلام إفادة من يسمعه فائدة يعتدّ بها[١]، وهو أيضاً يعرض إلى قوة هذه الفائدة وضعفها من حيث الاستعمال بقوله: «ولا شبه إنّ احتمال تحقيق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة في تعريفه أقوى ومتى كان أقرب كانت أضعف»[٢]، وقد تعرّض السيّد السبزواري إلى بيان الأغراض التي تتحقق من التعريف بالإضافة وذكر الفائدة المتحققة منه في المواطن المشتمل عليها، منها:

١ ـ التشريف:

وهو من الأغراض التي يفيدها التعريف بالإضافة، ذكر ذلك يحيى العلوي إذ رأى أنّ التعريف بالإضافة يكون لإفادة مزيد الشرف وقرب المنزلة [٣]، ولم يخفَ ذلك على صاحب المواهب، فعند تفسيره لقوله تعالى:

---

[١] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٦٥.

[٢] المصدر نفسه: ٣٦٥.

[٣] ينظر: الطراز: ٥٢٤.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾[١] قال: «قد أضاف سبحانه وتعالى الجزاء إلى الضمير (هم) تشريفاً، وفي ذكر الرب المضاف إلى (هم) لبيان العلّة في نيلهم لذلك الجزاء العظيم وتربيته تعالى المعنوية لهم»[٢]، ورأى أنّ الإضافة قد أفادت التشريف أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[٣]، قال: «إضافة القبلة إلى النبي ﷺ إضافة تشريفية، وإلا فالكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام وقبلة جميع المسلمين وفيه إيماء إلى أنّه كان معهوداً عندهم»[٤].

يتضح من خلال ما تقدم أنّ المفسّر يوجّه الإضافة إلى الغرض الذي أفادته بما يتناسب مع السياق وبما لا يأباه العقل ويقرّ به الذوق السليم، وهذا واضح من تعليله لإضافة القبلة إلى الرسول صلّى الله عليه وآله مع أنّها قبلة المسلمين جميعاً.

٢ ـ التعظيم:

ذكر هذا الغرض يحيى العلوي[٥]، وذكره أيضاً التفتازاني (ت: ٧٧٣ هـ) ورأى أنّه من الأغراض المستفادة من التعريف بالإضافة لتعظيم شأنه وإن أُضيف إلى المتكلّم فهو لأجل تعظيم شأن المتكلم[٦].

---

[١] آل عمران: الآية / ١٣٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٥٠.

[٣] البقرة: الآية / ١٤٥.

[٤] مواهب الرحمن: ٢ / ١٣٧ ـ ١٣٨.

[٥] ينظر: الطراز: ٥٢٤.

[٦] ينظر: المطول، سعد الدين التفتازاني: ٢١٥.

وبيّن صاحب المواهب إفادة الإضافة التعظيم في قوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[١] قال: «إضافة النصر إلى ضمير العظمة العائد على القدير المتعال يدل على عظمة شأنه، وكونه من الآيات المؤكدة العظيمة لرسله»[٢].

قال: ومن أشار من المفسرين إلى هذا الغرض الزمخشري في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٣]، فرأى أنّ دار السلام هي الجنّة أضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه تعظيماً[٤].

٣ ـ العناية:

رأى السكاكي أنّ الإضافة ممكن أن تتضمّن اعتباراً لطيفاً مجازياً أو أي غرض من الأغراض ممكن التعليق بالإضافة[٥]، والعناية من الأغراض التي أشار إليها صاحب المواهب والمستفادة من الإضافة، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[٦]، قال: «في إضافة البيت إلى نفسه المقدّسة ثمّ التفضل بقبول العبادة الواقعة فيه، إيماءاً إلى كثرة عنايته تعالى بالبيت وبالعبادة الواقعة فيه»[٧]، وأشار إليه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ

---

[١] الأنعام: الآية / ٣٤.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٤٧.

[٣] الأنعام: الآية / ١٢٧.

[٤] ينظر: الكشاف: ٢ / ٦٠.

[٥] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٨٠.

[٦] البقرة: الآية / ١٢٥.

[٧] مواهب الرحمن: ٢ / ٢٩.

تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾[١]، إذ قال: «في إضافة الادخال إلى ذاته المقدسة فيها غاية اللطف ونهاية العناية وكمال المحبة حيث أنّه تعالى بعد المخالفة وكفران السيئات باجتناب الكبائر يدخل العبد مدخلاً كريماً»[٢].

لقد كشف في المثالين أنّ الغرض من الإضافة هو العناية بالمضاف إليه، فهو بحسّه البلاغي أدرك هذا المعنى، وهو من الاعتبارات المجازية اللطيفة التي تتضمنها الإضافة، وهو ممّا يناسب السياق ويؤكّد معناه.

وذكر السيّد السبزواري أغراضاً أخرى من مثل التهويل والاختصاص، إلا أنّه لم يشر إليها إلا مرّة واحدة ولم أجد لها نماذج أخرى، فذكر التهويل عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٣]، قال: «إضافة الاعتداد لضمير التعظيم (نا) للتهويل وللأشعار بأنّ عذاب العظيم عظيم»[٤].

وذكر الاختصاص عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[٥]، حيث رأى أنّ: «في ذكر الرب مضافاً إليهم دلالة على كمال العطف واختصاصهم بالرحمة الإلهية»[٦]، ولم يغلق علماء البلاغة الباب أمام من يأتي بعدهم لأكتشاف هذه المعاني الدقيقة والإشارة إليها وقد رأى يحيى العلوي أنّ

---

[١] النساء: الآية / ٣١.

[٢] مواهب الرحمن: ٨ / ١٣٨.

[٣] النساء: الآية / ٣٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٨ / ٢١٦.

[٥] آل عمران: الآية / ١٩٥.

[٦] مواهب الرحمن: ٧ / ١٨٠.

تحت الإضافة أسرارا ورموزاً تختلف باختلاف مواقعها، ورأى أيضاً أنّ على الفطن اعمال نظره واستنهاض فكرته ليحصل عليها[١].

التعريف بالإشارة

يؤتى باسم الاشارة في سياق الكلام لإفادة أغراض بلاغية عدة[٢]، وهو يفيد زيادة الدلالة على المقصود[٣]، ورأى يحيى العلوي أنّ التعريف بالإشارة يكون لتعريف حاله وايضاحه، ويرى أنّ لطائفه لا تنحصر ومواقعه أكثر من أن تحصى[٤].

وقد تعرض السيّد السبزواري لبيان الأغراض التي أفادها التعريف بالإشارة، وإنّما يكون ذلك بما يخدم السياق العام للآيات الشريفة، فالمعنى البلاغي يؤكد المقصود ويدل عليه مع ما يضفيه على الأسلوب من جمال، ومن هذه الأغراض التي أشار لها:

١ ـ التعظيم:

ذكر هذا الغرض السكاكي ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾[٥]، فرأى أنّ التبعيد لقصد التعظيم[٦].

---

[١] ينظر: الطراز: ٥٢٤

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٧٥، وينظر: الايضاح: ٢٧.

[٣] ينظر: الايضاح: ٢٧.

[٤] ينظر: الطراز: ٥٢٢.

[٥] الزخرف: الآية / ٧٢.

[٦] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٧٦.

وأشار إلى هذا الغرض صاحب المواهب عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، قال: «إنّ هذه الجملة المباركة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ في مقام التعظيم والاجلال للقرآن الكريم»[٢].

وقد أشار من قبله يحيى العلوي إلى هذه الآية وإفادة اسم الإشارة فيها التعظيم[٣]، وفي موضع آخر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٤] يرى أنّ: «الاسم (ذلك) إشارة إلى العذاب الذي نزل منزلة المحسوس المشاهد لتحققّه ولتهويل الأمر وتعظيم شأنه»[٥]، وذكر هذا المعنى لأسماء الإشارة التفتازاني، أي: الاشارة بها إلى محسوس غير مشاهد أو إلى ما يستحيل احساسه ومشاهدته وتصيّره كالمشاهد وتنزيل الإشارة العقلية منزلة الحسّية، ورأى أنّ ذلك يكون لأغراض معينة[٦].

وفي موضع آخر بيّن أنّ الإشارة بالبعيد لإفادة غرضي التعظيم والتفخيم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[٧]، رأى أنّ ما: «تدل عليه الإشارة بالبعيد إلى الحجّة تفخيماً وتعظيماً لأمرها»[٨]، ومن أشار من

---

[١] البقرة: الآية / ٢.

[٢] مواهب الرحمن: ١ / ٨١.

[٣] ينظر: الطراز: ٥٢٢.

[٤] آل عمران: الآية / ١٨٢.

[٥] مواهب الرحمن: ٧ / ١٢٤ ـ ١٢٥.

[٦] ينظر: المطول: ١٩٩.

[٧] الأنعام: الآية / ٨٣.

[٨] مواهب الرحمن: ١٤ / ٧٠.

المفسرين إلى هذين الغرضين الذين يفيدهما الإشارة بلفظ البعيد السيّد الطباطبائي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[١]، إذ ذكر أنّ الإشارة بلفظ البعيد للتعظيم والتفخيم[٢].

٢ ـ التحقير:

أشار إلى هذا الغرض التفتازاني عند حديثه عن المعاني المستفادة من اسم الإشارة[٣]، وبيّن صاحب المواهب هذا الغرض وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، قال: «الاتيان باسم الإشارة (أولئك) قصداً إلى احضارهم في الذهن بما وصفوا به من القبائح ولبيان العلّة بأنّهم تميّزوا عن غيرهم أكمل تمييز حتّى انتظموا في سلك المشاهدة»[٥].

وأشار إلى التحقير والتنقيص في كلامه عن قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[٦]، قال: «إنّما أتى سبحانه باسم الإشارة أمّا للتحقير والتنقيص، أو لبيان أنّ الخطاب والتوبيخ إنّما يكون إليكم وفي أنفسكم دون أسلافكم»[٧]، هذا أهم ما أشار إليه المفسّر من المعاني المستفادة من اسم الإشارة،

---

[١] يوسف: الآية / ١.

[٢] ينظر: الميزان: ١١ / ٨٠، وينظر: البحث البلاغي في تفسير الميزان: ٧٠.

[٣] ينظر: المطول: ٢٠١.

[٤] المائدة: الآية ٤٣.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ٢٧٥.

[٦] آل عمران: الآية / ٦٦.

[٧] مواهب الرحمن: ٦ / ٤٠.

وقد استعمل القرآن الكريم اسم الإشارة للبعيد للدلالة على ارتفاع مكانة المشار إليه[١] أو للإشارة على عظيم منزلته وكرامته وشرفه، وهي معانٍ معروفة عند السابقين، كما أسلف ذكرها إنّما معرفتها واستخراجها يحتاج إلى ذوق بلاغي رفيع، وقد ذكر السكّاكي من قبل أنّ لطائف اسم الإشارة لا تكاد تنضبط[٢].

«التنكير»

إنّ ألفاظ القرآن الكريم روعي في تعريفها وفي تنكيرها الحال المقصودة من كلّ منهما، وما ممكن أن تؤديه اللفظة من معنى في سياقها المناسب، لأنّ كلّ لفظة بل كلّ حرف فيه وضع وضعاً فنّياً مقصوداً[٣]، و«التنكير أبلغ من التعريف في تقدير المقاصد المعنوية»[٤] إذ «إنّ العلّة في إيثار التنكير على التعريف، هو إنّ الغرض إخراجها مخرج الإطلاق عن كلّ قيد من القيود اللازمة لها... وفيه من التعظيم والفخامة ما يُرى، فهذا هو الوجه اللائق بفصاحة القرآن»[٥].

والسيّد السبزواري لم تستتر عليه أغراض التنكير في السياق القرآني، إنّما بتحليله الدقيق كشف عنها وعن فائدتها بما يناسب السياق ويخدم المعنى ليكون

---

[١] من أسرار البلاغة في القرآن، د. محمّد السيّد شيخون: ٧٩.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٧٦.

[٣] ينظر: التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: ١٢.

[٤] الطراز: ٢٠٩.

[٥] المصدر نفسه: ٢١٠.

واضحاً جليّاً للقارئ، ومن هذه الأغراض:

١ ـ التعظيم:

ذكر السكاكي هذا الغرض فرأى أنّه يطلب التعظيم بالتنكير[١]، وقد كشف السيّد السبزواري عن هذا الغرض، ووجه إليه بعض مواطن التنكير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، قال: «إنّ تنكير لفظ هدى يفيد العظمة وعدم محدودية الهداية بحد، لأنّها مفاضة من ربهم عليهم»[٣]، واعتقد المفسّر أيضاً أن تنكير لفظة الرزق أفاد التعظيم في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾[٤]، قال: «التنكير للإعظام من كلّ جهة، وفيه الإيماء إلى كونه رزقاً غير معهود»[٥].

يتضح أنّ التعظيم من الأغراض المستفادة من التنكير، وهذا واضح من إشارة صاحب المواهب إلى ذلك، ومن إشارة السكاكي قبله.

٢ ـ التحقير:

ذكر التفتازاني هذا الغرض عند حديثه عن الأغراض المستفادة من التنكير ومثّل له بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنّاً﴾[٦]، أي: ظنّاً ضعيفاً حقيراً[٧].

---

[١] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٨٧.

[٢] البقرة: الآية / ٥.

[٣] مواهب الرحمن: ١ / ١٠٠.

[٤] آل عمران: الآية: ٣٧.

[٥] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٩٤.

[٦] الجاثية: الآية / ٣٢.

[٧] ينظر: المطول / ٢١٨.

وبيّن المفسر هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[١] قال: «تنكير الحياة للتحقير، أي: يحبّون البقاء في الحياة ولو كانت حياة بؤس وشقاء، أو كانت قليلة، لأنّه يعلم بأنّه يرد إلى أشد العذاب»[٢]، ورأى أيضاً أنّ تنكير لفظة أصنام أفاد التحقير في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[٣]، قال: «ورد لفظ الأصنام نكرة للدلالة على حقارتها وهوان أمرها»[٤]، لقد أظهر صاحب المواهب المعنى المستفاد من التنكير، وهو على دراية تامّة بأسلوب القرآن الكريم، وأنّه لا ترد لفظة بهيئة التعريف أو التنكير إلا لغرض يستدعيه المقام، لذلك نراه دائماً يوجهها إلى المعنى المراد منها.

٣ ـ التهويل:

ذكر هذا الغرض ابن الناظم (ت: ٦٨٦ هـ) ومثّل له بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٥]، حيث رأى أنّ تنكير الغشاوة أفاد التهويل[٦]، وذكر صاحب المواهب هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٧]، قال: «التنكير في السعير للتهويل، أي:

---

[١] البقرة: الآية / ٩٦.

[٢] مواهب الرحمن: ١ / ٤٦٧.

[٣] الأنعام: الآية / ٧٤.

[٤] مواهب الرحمن: ١٤ / ١٨.

[٥] البقرة: الآية / ٧.

[٦] ينظر: المصباح، بدر الدين بن مالك المعروف بابن الناظم: ١١٢.

[٧] النساء: الآية / ١٠.

أنهم سيدخلون ناراً عظيمة لا يعلم أحد وصفها إلا الله تعالى»[١].

وذكر أيضاً أنّ لفظ ظلم أفاد التهويل في قوله تعالى: «﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾[٢] قال: «التنكير للتهويل[٣]، أرى ممّا تقدم أنّ المفسّر كان حريصاً على ذكر الأغراض المستفادة من التنكير، وكان منها غرض التهويل.

٤ ـ التفخيم:

ذكر هذا الغرض التفتازاني[٤]، وأتى صاحب المواهب على ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥] اعتقد أنّ تنكير لفظة (خزي) أفاد التفخيم، لأنّه يحيط ـ أي الخزي ـ بجميع ما يسلكوه في هذه الدنيا قبل أن يردوا إلى عذاب عظيم[٦].

واعتقد صاحب المواهب أنّ تنكير لفظة (قوماً) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٧]، أفادت الغرض نفسه بقوله: «التنكير في (قوماً) للدلالة على فخامة هؤلاء القوم، وأنّ لهم خطراً عظيماً، وأنّهم على إيمان تام واستقامة عليه»[٨]، إنّ المفسّر يوجّه الأغراض التي يفيدها التنكير، بما يناسب

---

[١] مواهب الرحمن: ٧ / ٣١٠.

[٢] النساء: الآية / ١٦٠.

[٣] مواهب الرحمن: ١٠ / ١٤٤.

[٤] ينظر: المطول: ٢١٩.

[٥] المائدة: الآية / ٤١.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ١١ / ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

[٧] الأنعام: الآية / ٨٩.

[٨] مواهب الرحمن: ١٤ / ١٣٠ ـ ١٣١.

السياق ويكون مكملاً ومؤكداً للمعنى كما في المثالين السابقين، فالتفخيم هو جزء من المعنى وهو مؤكدٌ له.

٥ ـ التعميم:

يرى صاحب المواهب أنّ التنكير يفيد التعميم، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾[١]، فهو يثبت الغرض بما يناسب المعنى العام للسياق كما في الآية الشريفة، فالتعميم يشمل كل ما يمكن أن يوصف بالخير، قال: «التنكير في (خير) للتعميم والشمول للجميع، أي كلّ خير، وهو يشمل جميع أنواع الخير في الاعتقاد أو الأقوال أو الأفعال حركةً وسكوناً»[٢].

وذكر المفسّر أن مجيء النكرة في سياق النفي يفيد العموم، وذكر ذلك محمد محيي الدين عبد الحميد في تحقيقة لشرح ابن عقيل، قال إنّ: «تقدم حرف النفي على النكرة يجعلها عامّة»[٣]، وذكر ذلك صاحب المواهب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[٤]، إذ قال: «إنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، ففي المقام وردت لنفي الشرك في الاعتقاد والعمل والعبادة والقول»[٥]، لقد أوضح الحالة التي تقتضي التنكير، وهي لإفادة العموم كما يدل على ذلك سياق الكلام.

---

[١] آل عمران: الآية / ٣٠.

[٢] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٤٦.

[٣] شرح ابن عقيل: ١ / ٢١٧.

[٤] النساء: الآية / ٣٦.

[٥] مواهب الرحمن: ٨ / ٢٠٧.

وأشار إلى غرضين آخرين، ورأى إنّهما مستفادان من التنكير، ولم أعثر إلا على شاهد واحد لكلّ منهما في تفسير المواهب:

أولهما: (التقييد)، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾[١]، قال: «التنكير فيه يوجب تقييده بالسفر الذي لا يحصل فيه الماء»[٢]، فاعتمد المفسّر على تنكير لفظة (سفر) لبيان حكم فقهي، وهو التيمم في السفر الذي لا يحصل لكم فيه الماء، فليس كلّ سفر يوجب معه التيمم، وإنّما السفر المقيّد بعدم الحصول على الماء، والثاني: (لبيان أنّ اللفظ من الغيب)، وذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾[٣] قال: «تنكير الأجل لبيان أنّه من الغيب، لا سبيل إلى معرفته بالطرق العادية»[٤]، يكشف ما تقدم، أنّه قد يحسن تعريف الكلمة في موضع لا يحسن فيه تنكيرها، وذلك أنّ ما يفيده التعريف غير ما يفيده التنكير[٥]، وقد انتبه المفسّر إلى ذلك ووجّه التنكير في كلّ موضع إلى الغرض الملائم له بما يناسب السياق ومقتضى حال الكلام، كأنّه يؤكد أنّ كلّ أسلوب في القرآن الكريم كان مقصوداً ويراد به معنىً معيناً

«التعريف والتنكير معاً»

ترد بعض ألفاظ القرآن الكريم في مقام معرفة وفي مقام آخر نكرة،

---

[١] النساء: الآية / ٤٣.

[٢] مواهب الرحمن: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

[٣] المائدة: الآية / ٢.

[٤] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٦.

[٥] ينظر: من بلاغة القرآن الكريم، أحمد أحمد بدوي: ١٨٢.

والسبب اختلاف السياق الذي ترد فيه كل لفظة، فتعريف اللفظ يراد منه معنى في سياق ما، أمّا تنكيره فبسبب أنّه يراد منه معنىً آخر، والسيّد السبزواري أشار إلى ذلك مبيّناً أنّ منشأه يعود إلى ما يناسب الحال، كلّ ذلك لأجل ضرورة المعنى، وارتباط سياقها بسياق الآيات السابقة واللاحقة لها، أوضح ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[١]، إذ ذكر آيات أخرى تأتي (كذباً) في سياقها نكرة، وفي مقام واحد فقط تأتي معرفة، في الأمثلة القرآنية الآتية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾[٢]، وقوله تعالى: «﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾[٦].

يرى صاحب المواهب أنّ التعريف الذي ورد في آية الصف وانفردت به دون غيرها يعود إلى اختلاف السياق بينها وبين الآيات الأخرى، إذ علّل تعريف (الكذب) في آية الصف لأنّها سبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً

---

[١] الأنعام: الآية / ٢١.

[٢] الأنعام: الآية / ٩٣.

[٣] الأعراف: الآية / ٣٧.

[٤] يونس: الآية / ١٧.

[٥] العنكبوت: الآية / ٦٨.

[٦] الصف: الآية / ٧.

بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١]، فقد جاءهم عيسى بالبينات والدلائل الواضحة القاطعة فافتروا الكذب، وارتكبوا أشدّ الافتراء فيما لا توقف فيه ولا اشكال، فورد قوله تعجباً من جهلهم معرّفاً بأداة العهد ليقوم مقام الوصف الذي يرجع إلى حدّ قول القائل: هذا الكذب الذي لا افتراء فيه ولا شبه ولا توقف، ولم يرد مثل ذلك في الآيات الأخرى فورد بهيئة النكرة، فكلّ واحدة منها وردت ما يناسب الحال والسياق[٢].

وفي موضع آخر يشير صاحب المواهب إلى لفظة البلد، إذ أتت في سياق معرفة، وفي سياق آخر نكرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾[٤]، وأوضح العلّة في الفرق بين الأسلوبين إلى: «أنّ الأول إنما صدر منه (عليه السلام) حين كان المحل وادياً غير ذي زرع، فدعا (عليه السلام) بأصل حدوث البلد في الجملة، والثاني إنّما صدر بعد صيرورة المحل معرّضاً للبلدية»[٥].

وذكر صاحب المواهب أنّ تنكير ألفاظ (الميّتة، والدم، ولحم الخنزير) وتعريفها في مقام آخر، كان للإشارة إلى حرمتها بجميع المراتب والشؤون بحسب صرف الوجود في ما لا يكون شائعاً وبحسب الوجود الساري في غير

---

[١] الصف: الآية / ٦.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١٣ / ١٦٢ ـ ١٦٣.

[٣] البقرة: الآية / ١٢٦.

[٤] ابراهيم: الآية / ٣٥.

[٥] مواهب الرحمن: ٢ / ٣٠.

ذلك، فهي محرمة في كل حال وفي كلّ وقت وليست لحرمتها انقطاع[١]، وذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾[٣].

يلحظ خلال ما تقدم أنّ المفسر قد ميّز بين المعاني المستفادة من التنكير أو التعريف للألفاظ المتشابهة في السياقات المختلفة، وما يراد منها من فائدة لا تحصل إلا بها تزيد المعني دقة ووضوحاً، ومنها ما تبنى عليه بعض الأحكام، وهذا من أسلوب القرآن الكريم الذي يمتاز بأعلى مراتب الفصاحة ومنتهى البلاغة، ويلحظ أيضاً أنّ لفنون البلاغة مكاناً مميّزاً عند المفسر، لما تقدمه من حلول منطقية تكشف عن كثير من أسرار القرآن الكريم، وبالذات ما يكون فيه للسياق دور فعّال في تحديد المعنى.

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٣٥٦.

[٢] البقرة: الآية / ١٧٣.

[٣] الأنعام: الآية / ١٤٥.

المبحث الخامس
«التغليب»

وهو أحد الأساليب البلاغية المعروفة، أشار له المفسرون في مواضعه، ومنهم الزمخشري، إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾[١]، رأى أن المقصود بـ ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾، ما ذكر من خلائقه: من الملائكة، والسماوات والأرض، والمشارق، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة، وغُلب أولي العقل على غيرهم، فقال: من خلقنا[٢]، وقد عرّفه الدكتور بسيوني عبد الفتاح بأنّه: «إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقاً له في الهيئة أو المادة»[٣].

وقد تعرض له صاحب المواهب، وأبان عنه في مواضعه، وذكر منه تغليب العاقل على غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[٤]، إذ رأى أنّ التعبير بـ (من) لأجل الغلبة، لأنّها ممّا يستعمل في ذوي العقول[٥].

---

[١] الصافات: الآية / ١١.

[٢] ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٠.

[٣] علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح: ١ / ٢٤٩.

[٤] آل عمران: الآية / ٨٣

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ٦ / ١١٠.

ورأى أنّ التغليب لذوي العقول أيضاً ونفى الحصر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]، إذ قال: «ذكر لفظ (من) الظاهر في ذوي العقول من باب التغليب لا الحصر»[٢]، وذكر أيضاً تغليب المذكر على المؤنث، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[٣]، فأوضح أنّ (البنين) جمع (ابن) وهو الذكر من الأولاد، إلا أنّه في المقام يشمل الذكور والاناث، وأكّد أنّ الله عزّ وجلّ أتى به بصيغة الذكور للتغليب[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[٥] رأى أن في لفظ (إخوة) تغليب الذكور على الاناث، قال: «في الآية المباركة تغليب الذكور على الاناث وإن قوله ﴿رِجَالاً وَنِسَاءً﴾ بدل كما هو واضح»[٦].

ومن أنواع التغليب الأخرى التي كشف عنها صاحب المواهب تغليب التثنية، وجاء ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾[٧]، قال: «اللذان تثنية (الذي) والتثنية باعتبار الزانية والزاني تغليباً كما عليه المشهور»[٨]،

---

[١] البقرة: الآية / ٢١٣.

[٢] مواهب الرحمن: ٣ / ٢٩١.

[٣] آل عمران: الآية / ١٤.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٥ / ١٣٢.

[٥] النساء: الآية / ١٧٦.

[٦] مواهب الرحمن: ١٠ / ٢٦٨.

[٧] النساء: الآية / ١٦.

[٨] مواهب الرحمن: ٧ / ٣٦٨.

وأكّد الطبري أنّ المعني بـ (اللّذان): الرجل والمرأة، ورأى أنّ العرب تفعل ذلك فتقول: (الذين يفعلون كذا فلهم كذا)، (والذي يفعل كذا فله كذا) و (اللذان يفعلان كذا فلهما كذا)، اذا وقع الفعل من شخصين مختلفين[١]، فهو قد أوضح معنى التغليب إلا أنّه لم يذكره بلفظه.

وأشار السيّد السبزواري إلى هذا النوع من التغليب أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾[٢]، فهو يرى أنّه تغليب بالتثنية، وأنّه من استعمالات العرب الفصيحة، فالمراد بالأبوين هما الأب والأم تغليباً للفظ، فيغلب أحدهما على الآخر كالقمرين والحسنين والمولوين[٣].

يظهر أنّ المفسّر قد ميّز التغليب بذكر حالاته التي يكون عليها، من تغليب ذوي العقول، وتغليب المذكر على المؤنث وتغليب التثنية، وهو ممّا يساعد المفسر في تحديد معاني الآيات الشريفة وما يراد منها، ويكون له عوناً في إدراك الأحكام، فهو من الاستعمالات الفصيحة والمعاني البليغة، وقد جرى في كلام العرب وعرف في لغتهم.

---

[١] ينظر: جامع البيان: ٨ / ٨٣.

[٢] النساء: الآية / ١١.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ٣٢٥.

المبحث السادس
«القصـــر»

القصـر لغـة: الحبس[١]، واصطلاحاً هـو تخصيص أمـر بـآخر بطريـق مخصوص، أو هـو إثبات الحكـم لما يذكر في الكلام ونفيـه عمّا عـداه، ويجـيء لقصر الموصوف على الصفة أو لقصر الصفة على الموصـوف: إمّا قصر إفراد وإمّا قصر قلب[٢].

وذكر بعض البلاغيين الحصر أو الاختصاص، ويعنون بـه المعنـى نفسـه الـذي يدرس (القصر) من خلاله[٣]، وصاحب المواهب لـم يفـرق بـين القصـر والحصـر، وإنّما هما عنده يدلان على معنى واحد، كما جاء في تفسيره لقولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾[٤]، قال: «أداة الحـصر (إنّمـا) الـتـي تـدل على أن القصر في هذه الآية الكريمة هو قصر إفراد»[٥].

---

[١] ينظر: لسان العرب: مادة (نصر): ١١ / ١٨٣.

[٢] ينظر: المصباح: ١٥٥.

[٣] ينظر: علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم، د. مختار عطيه: ١٤١.

[٤] المائدة: الآية / ٥٥.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٠١.

وللقصر أربع طرق[١]، ذكر منها صاحب المواهب في خلال تفسيره ثلاثاً فقط:

١ ـ النفي والاستثناء:

ويكون القصر به إفراداً أو قلباً[٢]، وأشار المفسّر إلى كلا النوعين، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ﴾[٣]، رأى أنّ الجملة تفيد قصر الألوهية في الله عزّ وجلّ، وتنفي ما سواه ممّا يدّعيه المشركون، فالآية تقيّد توحيد الذات وتنفي الشرك في العبودية وفي مقام الذات، فهو قصر أفراد لأنّه أزال الشركة مع الله سبحانه وتعالى[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٥]، يرى أنّه قصر قلب، لأنّه يقلب حكم السامع وتصوره عن الدنيا التي لا بقاء لها، فكل فعل وعمل في هذه الدنيا، سواء صدر من الأخيار أم من الفساق الفجار فإنّه لا محالة محدد لا بقاء له، وفائدة هذا القصر الترغيب إلى العمل والأعراض عن زخارف الدنيا ومباهجها التي تبعد الإنسان عن كلّ خير وسعادة[٦].

---

[١] ينظر: مفتاح العلوم: ٥٠٧ ـ ٥١٠.

[٢] قصر أفراد: وهو إزالة الشركة إذا اعتقدها المخاطب، قصر قلب: وهو أن يقلب المتكلم فيه حكم السامع، ينظر: مفتاح العلوم ٥٠٧.

[٣] آل عمران: الآية / ٦٢.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٦ / ١١.

[٥] آل عمران: الآية / ١٨٥.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ١٤٥ ـ ١٥٧.

٢ ـ القصر بـ(إنّما):

ذكر صاحب المواهب هذا القصر في خلال تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١]، قال: «أداة الحصر (إنّما) التي تدل على أنّ القصر في هذه الآية الكريمة هو قصر الافراد، لدفع ما ربما يتوهم أنّ الولاية ثابتة للمذكورين في الآية وغيرهم، ويمكن أن تحمل الآية على قصر القلب أيضاً»[٢].

إنّ قصر الموصوف على الصفة في الآية الكريمة أفاد قصر الافراد، أي: نفي الشركة في ولاية غير المذكورين، ورأى المفسّر أنّه يمكن أن تحمل الآية على القصر بـ(إنّما) يفيد قصر الافراد[٣].

وذكر المفسر قصر القلب بـ(إنّما) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٤]، رأى أنّ القصر قصر قلب، ردّاً لما زعمه القاتل من قبول عمله حسباناً منه أنّ الأمر لا يدور مدار التقوى، وأنّ التقي وغير التقي على حدٍ سواء، إلا أنّ الآية الكريمة قصرت القبول على المتقي فقط[٥].

٣ ـ التقديم:

وهو من طرق القصر أشار إليه السيّد السبزواري في تفسيره لقوله تعالى:

---

[١] المائدة: الآية / ٥٥.

[٢] مواهب الرحمن: ١٢ / ٤٠١.

[٣] ينظر: مفتاح العلوم: ٥١٠.

[٤] المائدة: الآية / ٢٧.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ١١ / ١٩٠.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]، إذ رأى أنّ الخطاب (إيّاكَ) استعمل في مقام الحصر، وذكر أنّ الحصر في المقام يستفاد من أمرين، الأول: سياق الآية المباركة فمن كان (رب العالمين) و(الرحمن الرحيم) و(مالك يوم الدين) لا وجه لعبادة غيره، فإنّ غيره مطلقاً مملوك له ومحتاج إليه، والثاني: استفاد الحصر من انفصال الضمير وتقديمه، وينحلّ الحصر إلى النفي والاثبات، كأنّه قال: (لا نعبد غيرك ونعبدك)، كما في (لا إله إلا الله)، وسائر موارد الحصر[٢]، وهو قصر إفراد ينفي الشركة في عبادة الله عزّ وجلّ، ورأى أنّ الحصر في «إيّاك نستعين» كالحصر في «إيّاك نعبد» لفظي وسياقي وحالي، لأنّ الغني المطلق من كلّ جهة، لا بدّ أن تنحصر الاستعانة به، وإلا تكون شركاً من هذه الجهة[٣].

وأوضح المفسر القصر بالتقديم في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، قال: «إنّ جملة ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، جملة مؤلفة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر تفيد الحصر»[٥]، فإنّ الآية الشريفة تدل على انحصار الخير فيه تعالى، فيستفاد منها ومن أمثالها أمران، الأول: إنّ ذاته تبارك وتعالى خير محض، والأمر الثاني: أنّها تدل على أصالة الماهية في الجعل، كما عليها

---

[١] الحمد: الآية / ٥.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١ / ٤٣.

[٣] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ٤٨.

[٤] أل عمران: الآية / ٢٦.

[٥] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٢٠.

أغلب المتكلمين وجمع كثير من الفلاسفة[١]، والجملة تفيد قصر القلب، لأنّه يقلب ما في ذهن السامع من حكم، وجعل الخير بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الخير المطلق.

من خلال ما تقدم يتضح أنّ صاحب المواهب قد أشار إلى مواضع القصر، وميّز بين طرائقه، وأشار إلى فائدته، فهو من أساليب القرآن الكريم وسياقاته المختلفة، لا يرد إلا لفائدة جليلة وغرضٍ سام يتناسب مع سموّ المعنى القرآني، إنّ المفسّر قد أعطى هذا الأسلوب حقّه بذكر فوائده كما أشار لها البلاغيون من قبله[٢].

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٥ / ٢١٣ ـ ٢١٤.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٥٠٧، وينظر: المصباح: ١٥٥، وينظر: التلخيص: ٣٨، وينظر المطول: ٣٧٥.

المبحث السابع
«الفصل والوصل»

عدّ الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) البلاغة معرفة الفصل من الوصل[١]، ولم يكن البلاغيون يريدون بهذه العبارة أنّ البلاغة تنحصر في الفصل والوصل، إنّما يريدون أن يبينوا صعوبة هذا المسلك وأنّ من اتقنه قد عرف البلاغة[٢].

وأشار عبد القاهر إلى معنى قريب منه، بقوله: «وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنّهم جعلوه حدّاً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل: ذاك لغموضه ودقة مسلكه وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[٣]، وبيّن القزويني الفصل والوصل بقوله: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل ترك هذا العطف»[٤].

وذكر السيّد السبزواري الفصل بمعنى القطع والمفارقة، ومنه الفصل المعروف في العلوم لانقطاع ما قبلها عما بعدها[٥].

وقد أشار إلى الغرض من الفصل والوصل عند تفسيره الآيات الشريفة

---

[١] ينظر: البيان والتبيين: ١ / ٨٨.

[٢] ينظر: البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب: ٨٤.

[٣] دلائل الاعجاز: ١٧٠.

[٤] شروح التلخيص: ٩٢.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ١٤٧ ـ ١٤٨.

المشتملة عليه، ففي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾[١]، رأى أنّ ترك العاطف بين (تعالوا) و (قاتلوا)، لبيان التلازم بينهما، وأنّ المقصود بهما واحد[٢].

رأى أنّ الفصل هنا أبان عن التلازم بين الجملتين، أي: كمال الاتصال بينهما كما أشار التفتازاني إلى ذلك في حديثه عن الفائدة من الفصل[٣].

وفي مقام آخر ذكر أنّ الفصل أي ترك العطف أفاد غرض التوكيد، فتكون الجملة الثانية مؤكدة للاولى، فحذف العطف بين قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[٥]، كان لأجل أنّ الآية الثانية تبين كمال قدرته وعلمه وحكمته في ملكه فهي مؤكدة للآية الأولى[٦] وقد بيّن هذه الفائدة من الفصل ابن الناظم في حديثه عن المقام الذي يقتضيه الوصل والفصل[٧].

وذكر صاحب المواهب في موطن آخر أنّ الفصل يكون لغرض الاهتمام والتعظيم، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ

---

[١] آل عمران: الآية / ١٦٧.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ٥٧.

[٣] ينظر: المطول: ٤٤٠.

[٤] آل عمران: الآية / ١٨٩.

[٥] آل عمران: الآية / ١٩٠.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ١٨٤.

[٧] ينظر: المصباح: ١٣٥.

خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[١]، قال: «جملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ مستقلة لم يذكر فيها حرف العطف اهتماماً وتعظيماً، لأنّ مفادها نعمة عظيمة فوق كل النعم»[٢].

ومنه يكون للأبانة عن شرف الإمامة وفضل الله ولطفه، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]، إذ رأى أنّ فصل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ عن الجملة السابقة، ومن إضافته إليه تعالى يرشد إلى شرف الإمامة وأنّها فضل من الله تعالى ولطف إلهي، وهي لا تنال بالكسب[٤].

وقد وجّه المفسّر الفصل والوصل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[٥] توجيها بليغاً مقارناً بينها وبين آيات أخرى شبيهة بها، رأى اجتماع الفصل والوصل في الآية الكريمة، فقد عطف البكم على الصم، وتحقق الفصل بينهما وبين ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وله نظائر في القرآن الكريم، فقد ورد في سورة البقرة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[٦]، والصفات مفصولة فيهما من دون عطف، وفي سورة الاسراء قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى

---

[١] آل عمران: الآيتان / ١٧٠ ـ ١٧١.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ٦٥.

[٣] البقرة: الآية / ١٢٤.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ١٥.

[٥] الانعام: الآية / ٣٩.

[٦] البقرة: الآية / ١٨.

وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾[١] وهي معطوفة، وإنّ آية البقرة راجعة إلى صنف خاص وهم المنافقون الذين وصفوا بأنّهم الصم البكم العمي الذين صمّت آذانهم عن سماع الحق، وبكموا فلا ينطقون به، وعميت أنظارهم عن النظر في الآيات، فاجتمعت فيهم هذه الصفات فأوجبت الختم على القلوب، وأمّا آية الاسراء فهي ترجع إلى بيان حالة الكفار والمنافقين يوم القيامة، والصفات جزاء أعمالهم ومعتقداتهم الباطلة، ويرى أنّ آية المقام تشير إلى طوائف من الظالمين الذين تعدد فيهم أسباب الظلم من الشرك والكفر، والعناد واللجاج، والاستكبار، فإنّ بعضها توجب الصم وبعضها توجب البكم، والجميع يتخبطون في ظلمات تمنع من شروق نور الايمان في قلوبهم، وأوضح أنّه لأجل ذلك ثبت العطف بين الوصفين، وتركه مع ما بعدهما، وكان ذكر الظلمات أبلغ وأشمل[٢].

لقد أدرك صاحب المواهب أهمية الفصل والوصل في الإبانة عن المعنى، فالسياق القرآني يقع ضمن الأساليب العربية المعروفة، فلا بدّ من معرفتها حتّى يتم الوصول إلى المعنى، والفصل والوصل أسلوب من هذه الأساليب إن استعمل في مقام ما فإنّه لأجل فائدة ما، والحق أنّه أوضح ذلك، والتزم بالكشف عن هذه الأساليب التي قادته بدورها إلى المعنى.

---

[١] الاسراء: الآية / ٩٧.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٩٢ ـ ٢٩٤.

المبحث الثامن
«وضع الظاهر موضع المضمر»

ذكر السيوطي الفوائد المستفادة من وضع الظاهر موضع المضمر، ورأى أنّ إعادة الظاهر بمعناه أحسن من إعادته بلفظه[١]، وهو من المباحث البلاغية التي أدخلها المتأخرون ضمن مباحث علم المعاني، وترى البليغ يضع الظاهر موضع المضمر ليحقق أغراضاً بلاغية يقتضيها المقام ويقصد إليها البلاغي[٢].

وأشار صاحب المواهب إلى أغراض عدة أفادها وضع الظاهر موضع المضمر عند تفسيره الآيات الشريفة، منها:

- لتعظيم شأن الكتاب، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٣]، إذ رأى أنّ وضع الظاهر موضع المضمر لبيان أنّ كتاب الله أعظم شأناً وارفع منزلةً من أن يشتمل عل المفتريات والأباطيل، وأبعد من أن يندرس بالتحريف[٤].
- ويوضع الظاهر موضع المضمر لاختلاف معنى اللفظ، ومثال ذلك ما جاء في

---

[١] ينظر: الاتقان: ٣ / ١٨٨.

[٢] ينظر: من بلاغة النظم العربي، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه: ١ / ١٩٦.

[٣] آل عمران: الآية / ٧٨

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٦ / ٨٠

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[١] قال: «إنّما وضع سبحانه الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى لاختلاف معنى اللفظ في الموضعين، فإنّ المراد في الثانية إحداهما بعد ضلال الأخرى، والمراد من الأولى ضلال إحداهما لا على التعيين»[٢].

أشار صاحب المواهب في هذا المثال إلى اختلاف دلالة الكلمة الواحدة داخل سياق النص الواحد، فالمراد من إحداهما الثانية التي في مقابل الأخرى، أمّا إحداهما الأولى قد تكون أيّاً منهما لا على التعيين.

- يعتقد صاحب المواهب أنّ وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣]، يفيد التوكيد، قال: «تأكيد بليغ واعلام بأنّ التولي ـ الذي هو من شروط الإسلام ـ لا يتحقق إلا بأخذ من ذكر في الآية السابقة وليّاً، ويتعهد بمراعاة الطاعة لهم، وتطبيق الإسلام فيهم، وإلا فلا يكون مؤمناً متولياً، ولعلّه لأجل ذلك وضع الظاهر موضع المضمر»[٤].

أوضح أنّ الآية الثانية مؤكدة للآية الأولى، وهي جاءت بمنزلة النتيجة لها في سياق واحد، وهو يؤكد على أهمية التولي الذي بدونه يخرج الفرد من الإسلام،

---

[١] البقرة: الآية / ٢٨٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٨٢.

[٣] المادة: الآيتان / ٥٥ ـ ٥٦.

[٤] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٠٩.

ويرى أنّ وضع الظاهر موضع المضمر يفيد الارشاد في قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[١]، قال إنّه: «للارشاد إلى أنّ ذلك من المصالح العامّة، فيطالب به المجتمع والأمة، فيلزمهم مراعاة حال الزوجين ومساعدتهما في هذه الحالة، ولأجل ذلك عدل عن الاضمار إلى التصريح، فقال تعالى: ﴿أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾[٢]».

- ويعتقد أنّ وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾[٣]، لبيان اشتراكهما في الولد مع ملاحظة كلّ منهما والاهتمام به، فقال تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، لبيانّ أن الولد لهما ومتكون منهما معاً فلا بدّ من مراعاة الجانبين له، فإنّه كما يحتاج إلى الرضاعة والحضانة يحتاج إلى التربية والرعاية من الوالد والانفاق عليه، أو لأجل بيان أنّ الولادة تضاف إلى الجانبين فيقال ولد الأب وولد الأم فهما في النسبة سواء[٤].
- ومن الفوائد التي ذكرها المفسر لوضع الظاهر موضع المضمر هي رفع الابهام كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ

---

[١] البقرة: الآية / ٢٢٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ١٣.

[٣] البقرة: الآية / ٢٣٣.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ٥٩.

الَّذي عَلَيْه الْحَقُّ سَفيهاً أَوْ ضَعيفاً أَوْ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [١]، قال: «إنّما وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى لرفع الابهام في رجوع الضمير إلى الكاتب المذكور سابقاً»[٢]، فلأنّ الآية الشريفة في مصاف تشريع الأحكام، لذا لا بدّ أن تكون عودة الضمائر غير مبهمة في سياق النص حتّى لا يكون الحكم مبهماً، وهو محل خطير نبّه عليه صاحب المواهب حتّى لا تفهم الأحكام عكس ما أراد لها الله، وهو ممّا تزل عنده الأقدام.

- وأشار إلى وضع الظاهر موضع المضمر لغرض زيادة الرهبة، كما في اظهار لفظ الجلالة (الله) في موضع ينهى فيه عن الشرك ويعده ذنباً عظيماً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِه وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[٣]، ولاظهار اسم الجلالة لزيادة الرهبة وادخال الروع في النفوس وإظهار تقبيح الشرك والتشهير بعمل المشرك[٤].
- ويعتقد المفسر أيضاً أنّه يوضع الظاهر موضع المضمر لدفع اللبس، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾[٥] قال: «الاظهار في موقع الاضمار لدفع كلّ لبس واحتمال، ولبيان أنّ السبب في التوارث هو الولادة

---

[١] البقرة: الآية / ٢٨٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٨٠.

[٣] النساء: الآية / ٤٨.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٨ / ٢٩٨.

[٥] النساء: الآية / ٧.

والقرابة»[١] لأنّه لو قال: «للنساء نصيب ممّا تركا» لوقع لبس في هذا الحكم في عودة الضمير ـ ألهنّ نصيب من الوالدين أم من الأقربين أم من كليهما.

يتضح ممّا تقدم أنّ وضع الظاهر موضع المضمر من أساليب اللغة العربية، ويستعمل في الكلام لأغراض عدّة، وهو من أبواب الفصاحة والبلاغة، والقرآن الكريم مثال أعلى ونموذج أرقى للفصاحة والبلاغة، وصاحب المواهب أدرك ذلك وحصل له العلم به، وهذا واضح ممّا تقدم، ومن بيانه للأغراض التي أفادها وضع الظاهر موضع المضمر. فليس هناك ما يرد اعتباطاً في القرآن الكريم، إنّما هو أسلوب محكم من لدن خبير عليم.

---

[١] مواهب الرحمن: ٧ / ٣٠٣.

المبحث التاسع
«الإيجاز والاطناب»

الإيجاز

الإيجاز لغة من وجزَ الكلام وجازةَ ووَجزاً، وأوجز: قلّ في بلاغة، وأوجزهُ اختصره، في حديث جرير: قال له (عليه السلام): إذا قلت فأوجز أي: أسرع واقتصر، وأوجز القول والعطاء: قلّله[١].

أمّا في الاصطلاح، فقد رأى الجاحظ أنّه التعبير بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة[٢].

وذكر الرمّاني (ت: ٣٨٦ هـ) أنّ: «الإيجاز: البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»[٣]، ولم يزد شيئاً ممن جاء بعدهم على هذا التعريف، فيذكرون المعنى نفسه لكن بصياغة مختلفة[٤].

ويعدّ الإيجاز من أهم مصطلحات البلاغة العربية المنتمية لعلم المعاني، التي تعدّ مناطاً للحكم على روعة الأسلوب العربي ودقّته[٥]، وهو يناسب طبيعة التعبير

---

[١] ينظر: لسان العرب: مادة (وجز): ١٥ / ٢٢١ .

[٢] ينظر: الحيوان: ٣ / ٨٦.

[٣] النكت في إعجاز القرآن: ٧٤.

[٤] ينظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي: ١٨١، وينظر: الطراز: ٢٤٥، وينظر: الروض المريع في صناعة البديع، ابن البناء المراكشي: ١٤٣.

[٥] ينظر: علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم: ١٥١.

باللغة العربية، إذ كان أسلوباً محموداً لدى العرب لخفته ويسره في التعبير والحفظ، ولذلك حمده العرب[١].

وقد وصف السيّد السبزواري الإيجاز في مواطن عدّة، ورأى أنّه من البلاغة والابداع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾[٢]، أكّد أنّ الآية الشريفة بإيجازها تشتمل على معانٍ دقيقة بالإشارة والتلويح، وأيضاً فيها ترك التصريح إلى ما تتشوق إليه النساء[٣]، وهذا البيان يتفق مع معنى الإيجاز، فهذه الجملة القصيرة تندرج تحتها معانٍ كثيرة يمكن أن تفهم من سياقها.

ورأى أنّ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾[٤]، اختصاراً بديعاً وإيجازاً حسناً لاشتراك اليهود والنصارى في المفعول فأوجب جمعهما في القول، وتقدير الكلام: قالت اليهود لن يدخل الجنّة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم[٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[٦]، رأى المفسر أنّها: «قد اشتملت على أسلوب بليغ وفيه من محاسن إيجاز القرآن ما لا يخفى»[٧].

من خلال ما تقدم يظهر أنّ صاحب المواهب يشير إلى مواطن الإيجاز،

---

[١] ينظر: البلاغة العربية (البيان والبديع) د. ناصر حلاوي: ٣٤.

[٢] البقرة: الآية / ٢٢٨.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ١٥.

[٤] البقرة: الآية / ١١١.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ١ / ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

[٦] الأنعام: الآية / ٥٥.

[٧] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٥٦.

ويؤكد أنّه من البلاغة والابداع، وأنّه من المحاسن الكثيرة التي يتميذز بها الأسلوب القرآني.

وقد ذكر القزويني الإيجاز وقسّمه على ضربين، الأول إيجاز القصر، وهو ما ليس بحذف، فإنّ معناه كثير ولفظه يسير ولا حذف فيه[١]، وذكره يحيى العلوي بأنّه: «الذي تزيد فيه المعاني على الألفاظ وتفوق»[٢]، والأمثلة السابقة التي ذكرت في بداية هذا المبحث شاهدة على هذا النوع من الإيجاز، وإنّ صاحب المواهب قد أشار اليه في مواطن عدّة[٣]، والثاني: إيجاز الحذف، وقد عرض له في مواطن مختلفة عند تفسيره الآيات الشريفة.

ـ إيجاز الحذف:

ذكر عبد القاهر الجرجاني هذا الباب من الإيجاز، ووصفه بقوله أنّه: «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك عن أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن»[٤].

واشترط يحيى العلوي أن يكون الحذف ممّا لا يخل بالمعنى ولا يضرّ ببلاغة القول، بقوله: «اعلم أنّ مدار الإيجاز على الحذف لأنّ موضوعه على الاختصار، وذلك إنّما يكون بحذف ما لا يخل بالمعنى ولا ينقص من

---

[١] ينظر: التلخيص: ٥٥.

[٢] الطراز: ٢٦٢.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٥ / ٢٨٩، ٥ / ٣٩٦، ١٤ / ٢٤.

[٤] دلائل الاعجاز: ١١٢.

البلاغة»[١].

وعرّفه الدكتور بسيوني عبد الفتاح، بأنّه: «التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة وذلك بحذف شيء من التراكيب مع عدم الاخلال بتلك المعاني»[٢].

ومن أشكال الحذف التي أشار إليها صاحب المواهب:

١ ـ حذف المضاف:

أكد يحيى العلوي أنّ هذا الحذف يرد كثيراً في كلام الله تعالى وكلام الفصحاء[٣]، وقد كشف السيّد السبزواري عن مواضع عدة كان المضاف فيها محذوفاً، منها في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ﴾[٤]، قال: «التنوين في (الكل) عوض عن المضاف إليه والمعروف أنّ (كل) هي بمعنى الاحاطة والعموم ولا تأتي مفردة فإذا كانت كذلك فلا بدّ من التقدير، وهو في المقام الصنفان المذكوران في صدر الآية المباركة وهما صنف الرجال وصنف النساء، والمعنى: ولكلّ صنفي الرجال والنساء أولياء يرثونهم بمقتضى قانون الأقربية»[٥]، وذكر صاحب الطراز هذا التنوين الذي هو عوض عن جملة وعدّه من الإيجاز، إذ قال أنّه: «إيجاز لا محالة، لأنّه حذفت هذه الجملة الطويلة وأقيم

---

[١] الطراز: ٢٤٦.

[٢] علم المعاني: ٢ / ١٨٨.

[٣] ينظر: الطراز: ٢٥٣.

[٤] النساء: الآية / ٣٣.

[٥] مواهب الرحمن: ٨ / ١٧١.

حرف واحد مقامها، وأي إيجاز أبلغ من هذا الإيجاز وأدخل منه في البلاغة»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾[٢]، يرى صاحب المواهب أنّ في الكلام مضافاً محذوفاً، والتقدير: بدا لهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا، وتمنّوا الرد إلى الدنيا للتخلص من ذلك العذاب[٣].

ويرى ابن البناء المراكشي أنّه يحذف المضاف إليه إذا كانت دلالة السياق قاطعة به[٤]، وقد أوضح المفسّر المحذوف في المثالين السابقين وقدّره بما يدل عليه السياق وبما يكشف عن معناه.

٢ ـ حذف المبتدأ:

وهو حذف اسم، لأنّ المبتدأ لا يكون إلا اسما[٥]، وأشار المفسّر إلى هذا النوع من الحذف عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٦]، فرأى أنّ: «(عدة) بالرفع على أنّه خبر لمحذوف، أي كتب عليه صوم، أو فالواجب عليه صوم عدة أيام أخر»[٧].

وفي مقام آخر يرى أنّ المحذوف هو المبتدأ أيضاً في قوله تعالى:

---

[١] الطراز: ٢٥٣.

[٢] الأنعام: الآية / ٢٨.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ١٣ / ١٨٦.

[٤] ينظر: الروض البديع: ١٤٧.

[٥] ينظر: دلائل الاعجاز: ١١٨.

[٦] البقرة: الآية / ١٨٤.

[٧] مواهب الرحمن: ٣ / ١٢.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[١]، وتقديره (الأمر والتقدير كذلك) وهو ظاهر في كونه من القضاء المحتم فتكون (كذلك) في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف[٢].

٣ ـ حذف الخبر:

إنّ حذف الخبر في الكلام أكثر من حذف المبتدأ، والسبب يعود إلى أنّ المبتدأ طريق لمعرفة الخبر[٣]، ويؤكد صاحب المواهب أنّ الخبر يحذف إذا ما كان هناك ما يدل عليه في المقام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٤]، فيرى أنّ جملة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ «مبتدأ والخبر محذوف لدلالة المقام عليه، أي: حلٌّ لكم»[٥].

وأشار إلى حذف الخبر أيضاً في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٦]، فرأى أنّ محل (ذلك) الرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف، أي ذلك الشأن، والمعنى: إنّ ذلك الذي تقرر في شأنهم إنّما هو بسبب أنّ الكتاب نزل بالحق وأنّهم على الباطل[٧]، وهذا الحذف ممّا يدل عليه المقام أيضاً، وإذا ظهر

---

[١] آل عمران: الآية / ٤٠.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ٥ / ٣٠٧.

[٣] ينظر: الطراز: ٢٥٨.

[٤] المائدة: الآية / ٥.

[٥] مواهب الرحمن: ١٠ / ٤٠٧.

[٦] البقرة: الآية / ١٧٦.

[٧] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ٣٦٧.

في سياق النص فإنّه يخل ببلاغته لمنافاته الإيجاز الذي عليه جرى الأسلوب القرآني.

٤ ـ حذف المفعول:

لقد ذكر عبد القاهر الجرجاني حذف المفعول، وأشار إلى أنّه طريق إلى ضروب من الصنعة وإلى لطائف لا تحصى[١].

وبيّن صاحب المواهب اللطائف المستفادة من هذا الحذف، ففي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٢]، رأى أنّ حذف مفعول (يبين) حتّى يذهب ذهن السامع في تقديره كلّ مذهب، وتستخرجه العقول السليمة وذوي الفطرة المستقيمة، والتقدير أي: يبين لكم أمور دينكم وما يصلح شأنكم ويحقق سعادتكم وفوزكم[٣].

وفي مقام آخر رأى أنّ حذف المفعول وهو اسم الجلالة (الله) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾[٤]، «لترتيب المهابة وتنشيط هممهم، والإرشاد بأنّ الذين يخاف منهم ليسوا كذلك، وإنّ الخوف حقيقة ينبغي أن يكون من الله تعالى»[٥]، ففي كلّ موضع أشار إلى الفائدة من حذف المفعول، فضلاً عمّا يرصد له من الإيجاز، لأنّ الحذف باب من أبوابه.

---

[١] ينظر: دلائل الاعجاز: ١١٨.

[٢] النساء: الآية / ٢٦.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٨ / ٨٢

[٤] المائدة: الآية / ٢٣.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ١٤٨.

٥ ـ حذف جواب (لو):

ذكر هذا النوع من الحذف يحيى العلوي، وأكّد أنّه من محاسن الإيجاز ومواقعه البديعة[١]، ويرى المفسّر أنّ حذفه أبلغ من ذكره لفوائد عدّة منها: لكي يذهب الوهم في تقديره كلّ مذهب، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، قال: «حذف جواب (لو) وعدم ذكره ليذهب الوهم كلّ مذهب فيكون أبلغ من التخويف»[٣].

ويرى في مقام آخر أنّ حذف جواب (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[٤]، لدلالة سياق الكلام عليه، ولتعظيم الأمر وتهويله[٥]، وأشار الزمخشري إلى هذا الحذف ورأى أنّ تقديره «ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً»[٦]، وهو لا يفرق عن المعنى الذي ذكره صاحب المواهب.

يؤكّد ما تقدم أنّ السيّد السبزواري كان حريصاً على الإشارة إلى مواضع الإيجاز وبيانها والكشف عن المعنى إذا كان الإيجاز إيجاز قصر، وتقدير المحذوف وبيان نوعه إذا كان إيجاز حذف، فضلاً عن ذكر الفائدة المتحصلة

---

[١] ينظر: الطراز: ٢٥٦.

[٢] الأنعام: الآية / ٢٧.

[٣] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٨١.

[٤] البقرة: الآية / ١٦٥.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ٣١٦.

[٦] الكشاف: ١ / ٢٣٨.

منه، وهو يصدر عن حس بلاغي دقيق وذهن متتبع لدقائق الأسلوب القرآني، وما ذاك إلا دليلٌ على أهمية مباحث البلاغة وأنّها وجه من أوجه تفسير القرآن الكريم، فبدون معرفتها والإحاطة بها يبقى كلّ عمل غرضه تفسير القرآن بعيداً عن الصواب.

«الاطناب»

الاطناب في اللغة: البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً كان أو ذماً، والاطناب: المبالغة في مدح أو ذم والاكثار فيه، وأطنب في الوصف اذا بالغ واجتهد، وفرس في ظهره طنب: أي طول، ومنه أطنب في الكلام إذا أبعد[١]، وقد ورد الاطناب عند الجاحظ بمعنى الاطالة[٢].

وعند المبرد بمعنى التطويل[٣]، ثمّ استقر المصطلح عند أبي هلال العسكري ومن جاء بعده[٤]، ولم يُعب الاطناب من قبل علماء البلاغة، فهو مقابل للإيجاز اذا كان لفائدة، «فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الاطناب في مكانه»[٥]، ومن هذا يوضح أنّ الاطناب من البلاغة يلجأ إليه في مقامات يتطلبها السياق حيث يتضمن فائدة لا تكون في غيره، وهو ما عبّر عنه السكاكي

---

[١] ينظر: لسان العرب: مادة (طنب): ٨ / ٢٠٥.

[٢] ينظر: البيان والتبيين: ١ / ١٠٤ ـ ١٠٥.

[٣] ينظر: البلاغة، المبرد: ٨١.

[٤] ينظر: كتاب الصناعتين: ١٩٠.

[٥] المصدر نفسه: ١٩٠.

بأداء المقصود بقوله أنه: «أداء المقصود بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»[١].

وفرّق البلاغيون بين الأطناب بوصفه أسلوباً من الأساليب البلاغية إذا اقتضاه السياق وطلبه المعنى وبين الحشو والتطويل الذي هو عيب وليس له من فائدة تعود على المعنى، وقد أشار ابن الاثير (ت: ٦٣٧ هـ) إلى ذلك، فعنده: «الاطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، وهذا يميزه عن التطويل، الذي هو زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة»[٢].

وقد أشار السيّد السبزواري إلى الآيات الشريفة المشتملة على الاطناب، وهو يرجعه إلى مناسبة السياق له، ويوضح ذلك من خلال المقارنة بين آيتين كريمتين في مقامين مختلفين ذات أسلوب واحد مع زيادة باللفظ لأحداهما على الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٤]، إذ يرى أنّ: «الآيتين تشتركان في الأسلوب والوعد والوعيد والتخويف والايثار، ولكنهما تفترقان من جهة أنّ آية الشعراء حذف فيها معمول (كذبوا) واستبدال السين بالتنفيس (سوف)، ويرجع إلى أنّ آية الأنعام جاءت بعد بسط من الكلام في ذكر آيات الحمد وانفراده عزّ وجلّ بالخلق والابداع، والاطناب في

---

[١] مفتاح العلوم: ٤٩٣.

[٢] المثل السائر: ٢ / ١٢٩.

[٣] الأنعام: الآية / ٥.

[٤] الشعراء: الآية ٦٧.

ذكر أفراد المخلوقات، فناسب هذا الاطناب ذكر الحق، بخلاف آية الشعراء فإنّها سيقت على نحو الإيجاز، فناسب الإيجاز المعمول، كما ناسب الاختصار ذكر السين بدل حرف التنفيس»[١].

أكّد المفسّر أنّ الاطناب له فائده إذا طلبه السياق وناسب ما جاء فيه، كما في آية الأنعام في ذكر أفراد المخلوقات.

ويؤكد في مقام آخر أنّ الاطناب غير مخلّ بفصاحة الكلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٢]، إذ يرى أنّ قوله تعالى يشتمل: «على الاطناب غير المخل بالفصاحة، ايماءً إلى أنّهم على دين النصرانية بزعمهم، ولكنّهم على خلافها لعدم العمل بموجبها»[٣].

ويرى المفسّر أن في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤]، إيجاز بعد اطناب، لأنّ الآية ابتدأت بالخطاب لأهل الكتاب انكاراً عليهم، إذ زعموا أنّ إبراهيم ويعقوب عليهما السلام على ملّتهم، وقد أبطل الله تعالى حجتهم بأنّه إن كان بدعوى حضورهم

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٥١.

[٢] المائدة: الآية / ١٤.

[٣] مواهب الرحمن: ١١ / ٨٥.

[٤] البقرة: الآية / ١٣٣.

عند موت يعقوب ووصيته، فهذه يبطلها الحس والوجدان، وإن كان لأجل وصوله إليهم من التوراة والانجيل فما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده[١]، لقد ناسب الاطناب مستهل الآية الكريمة وناسب الإيجاز ختامها، بالإشارة إلى التوحيد بقوله: ﴿إِلَهاً وَاحِداً﴾ وبيّن المفسّر ذلك بأحسن وجه.

ومن أهم أقسام الاطناب التي تعرض لها السيّد السبزواري في تفسيره:

١ ـ ذكر الخاص بعد العام:

ذكر القزويني أنّ الاطناب يكون بذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله حتّى كأنّه من جنسه[٢]، وأشار صاحب المواهب في مقامات عدّة إلى هذا اللون من الأطناب وذكر الأغراض التي يفيدها، منها:

أ ـ التأكيد والتعظيم:

وهما من المعاني المستفادة من ذكر الخاص بعد العام، ذكرهما صاحب المواهب وهو يفسر قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[٣]، إذ قال: «الصد عن المسجد الحرام، اذا كان عطف (والمسجد الحرام) على سبيل الله، فيكون من باب ذكر الخاص بعد العام تأكيداً وتعظيماً»[٤].

وذكر غرض التعظيم أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ٧٣ ـ ٧٥.

[٢] ينظر: التلخيص: ٥٨.

[٣] البقرة: الآية / ٢١٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٣ / ٣٢٢.

بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾[١]، رأى أنّ في الآية الكريمة تخصيص بعد تعميم للتأكيد على أهمية الصلاة، وعظيم أثرها في حياة الفرد المؤمن الظاهرية والمعنوية، ولأنّها مشتملة على الذكر العظيم مع الخضوع والخشوع[٢].

يظهر أنّه لا يكتفي بذكر الخاص بعد العام وتعيينه، وإنّما يذهب إلى ذكر الفائدة المتحققة منه، فليس هناك ضمن السياق القرآني تطويل أو حشو، إنّما كلّ ما يظهر من جنس السياق وله فائدة لا يمكن غضّ النظر عنها.

ب ـ الاهتمام والترغيب:

هذان الغرضان ممّا أشار لهما المفسر في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾[٣]، فاعتقد أنّ تخصيص الصلاة الوسطى بالذكر بعد ذكر عموم الصلوات لأجل الاهتمام بها والترغيب إليها[٤]، وقد ذكر التفتازاني هذه الآية في ضمن استشهاداته على ذكر الخاص بعد العام، ورأى أنّ الغرض من ذكر الصلاة الوسطى للتنبيه على فضلها[٥]، ويظهر أنّه ليس هناك فرقٌ بين المعنيين، لأنّ من عرف فضل الصلاة الوسطى فإنّه بالضرورة سيهتم بها ويرغب إليها.

ج ـ لبيان الشمول والاستيعاب:

يعتقد صاحب المواهب أنّ ذكر الخاص بعد العام في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ

---

[١] المائدة: الآية / ٩١.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٠٣.

[٣] البقرة: الآية / ٢٣٨.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ٩١.

[٥] ينظر: المطول: ٤٩٤.

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّه كَتَبَ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيه الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١].

لبيان الشمول والاستيعاب، فإنّ عموم قوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يشمل جميع ما سواه من المخلوقات وعوارضها، وهذه الآية تخص بما يجري في الليل والنهار، وقد خصّها الله سبحانه وتعالى لبيان الشمول والاستيعاب، فإنّه ذكر في الأول المكان وفي الثاني الزمان وهما ظرفان للمحدثات، وهو عزّ وجلّ مالك المكان والمكانيات، والزمان والزمانيات[٢].

يؤكد ما تقدّم أنّ صاحب المواهب عند ذكره الأغراض المستفادة من المباحث البلاغية المختلفة، فإنّه لا ينأى بها عن مضمون السياق، وإنّما يكون مناسباً له ومكملاً لمعناه ومترشحاً عنه.

٢ ـ التكرار:

أشار الفراء (ت: ٢٠٧ هـ) إلى التكرار وإلى الغرض منه، بأنّ العرب تكرر الكلمة للتغليظ والتخويف[٣]، وليس في القرآن مكرر لا فائدة من تكريره، فإن أمعنت النظر إلى سوابقه ولواحقه، انكشفت لك هذه الفائدة[٤]، والتكرار بدلالته الواسعة يشكل القانون الأساس لظواهر الإيقاع في الكلام وهو علاوة على ذلك

---

[١] الأنعام: الآيتان / ١٢ ـ ١٣.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١٣ / ٩٦ ـ ٩٧.

[٣] ينظر: معاني القرآن: ٣ / ٢٨٧.

[٤] ينظر: البلاغة الغنية، علي الجندي: ١٩٢.

ذو دلالة تعبيرية[١]، وأكد أحمد الهاشمي أنّ التكرار لا يكون إلا لأغراض[٢]، ووصف السيّد السبزواري التكرار الوارد في القرآن الكريم بأنّه ليس من التكرار الممل، ويعدّه من معاجز الكتاب العظيم[٣]، وقد كشف عن الغرض منه في كلّ موضع من مواضعه، ومن الأغراض التي ذكرها:

أ ـ التأكيد:

يعتقد صاحب المواهب أنّ تكرار لفظ (بأذني) أفاد التوكيد، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[٤]، قال: «كان تكرار (بأذني) في هذه الآية أدعى للتأكيد ولدفع كلّ عنوان من العناوين التي تنسب إليه، ممّا يناسب مقام الالوهية والربوبية»[٥]، وفي مقام آخر رأى أنّ تكرار الضمير (هم) أفاد التوكيد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٧]، حيث رأى أنّ سبحانه وتعالى أكد من حيث تكرار الآية نفسها،

---

[١] ينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال: ٢٣٩.

[٢] ينظر: جوهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي: ١٤٤.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ١١ / ٢٤٠.

[٤] المائدة: الآية / ١١٠.

[٥] مواهب الرحمن: ١٢ / ٣٩٦.

[٦] لقمان: الآيتان / ٤ ـ ٥.

[٧] البقرة: الآية / ٥.

وتكرار الضمير (هم) فيها، تأكيداً بليغاً كاشفاً عن أهمية المورد[١].

ب ـ الترغيب:

ويرى أنّ وجه تكرار جملة (ون انتهوا) لغرض الترغيب في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٢]، قال: «إنّما كرر سبحانه وتعالى (فإن انتهوا)، للترغيب إلى الكف عن القتال، وإنّ الانتهاء يرفع القتل عمّن ينتهي، ويدخله في غفرانه ورحمته في المآل ويوجب محو ما سلف عنه»[٣].

ويعتقد أنّ تكرار الأمر بالذكر خمس مرّات لبيان شدة عناية الله بخلقه والترغيب لهم بفعل الأصلح لأجل القيام بما هو كثير الفائدة والجزاء لهم، لذا أمرهم بالذكر في هذه المواطن الكريمة والأزمنة الشريفة[٤]، ذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[٥]، يبيّن ما سبق أنّ التكرار يفيد الترغيب، وهو ممّا يشعر به السياق القرآني، ومعرفته جزء من إدراك المعنى المراد.

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ١ / ٩٩.

[٢] البقرة: الآيتان / ١٩٢ ـ ١٩٣.

[٣] مواهب الرحمن: ٣ / ١٥٦.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ١٩٩.

[٥] البقرة: الآيات / ١٩٨ ـ ٢٠٠ ـ ٢٠٣.

ج ـ التعظيم:

ومن المعاني المستفادة من التكرار التي بيّنها صاحب المواهب، التعظيم، وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾[١]، إذ رأى أنّ الله سبحانه وتعالى كرر الظالمين في الآية المباركة تعظيماً للأمر واظهاراً لقبح ظلمهم[٢]، ورأى الزمخشري أنّ تكرير ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ زيادة في تقبيح أمرهم وايذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم[٣]، وهو لم يشر إلى التعظيم الذي أشار إليه السيّد السبزواري مع اتفاقهم على فائدة التقبيح، ويظهر أنّ غرض التعظيم هو المناسب للسياق، فبعد إنزال الرجس والعذاب عليهم فليس هناك فائدة من التقبيح، إنّما كان ظلمهم عظيماً فاستحقوا العذاب.

وفي مقام آخر يرى المفسّر أنّ تكرار النداء لبيان عظمة المنادي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٤]، قال: «تكرار النداء لبيان عظمة المنادي وللإشارة إلى تتابع النداء على مريم وحثّها على الاستماع والاصغاء والتحبب إليها والاهتمام بشأنها»[٥]، فتكرر النداء لأنّه من الله سبحانه وتعالى، وهو يشعر بعظمته.

---

[١] البقرة: الآية / ٥٩.

[٢] ينظر: مواهب الرحمن: ١ / ٣٥٤.

[٣] ينظر: الكشاف / ١ / ١٧٢.

[٤] آل عمران: الآيتان: ٤٢ ـ ٤٣.

[٥] مواهب الرحمن: ٥ / ٣٣٤.

تؤكد الأمثلة السابقة أنّ صاحب المواهب قد تناول الاطناب، وكان حريصاً على الإبانة عنه، والإبانة عن ملائمة السياق له، وحرص أيضاً على بيان الأغراض المستفادة منه بما يوافق المعنى القرآني، ويوضح دلالته، فالاطناب في موضعه كالإيجاز في موضعه فهو لا يكون إلا لهدف وغرض.

الفَصْلُ الثَّانِي

مباحث علم البيان

علم البيان

إنّ البلاغة ـ وبضمنها علم البيان ـ كان لها أثر كبير في الذائقة العربية، وما أن نزل القرآن بلغة العرب حتّى أبهر بجمال أسلوبه كلّ من كان يتكلم الضاد، وكان ذلك أحد الحوافز لدراسة البلاغة وعلومها من قبل العلماء، وجاء علم البيان في مقدمة اهتماماتهم، لأنّه يعد «الأساس في بلاغة العرب إن لم نقل هو البلاغة بعينها»[1].

والبيان في اللغة: الفصاحة، والبيان: الإيضاح مع ذكاء أو هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وقالوا: بأنّ الشيء بياناً، اتضح، فهو بيّن، وأبان الشيء فهو مبين، وأبنته أنا: أي وضّحته[2].

وقد تعرّض الجاحظ لوصف (البيان)، وسمّى أحد كتبه بـ(البيان والتبيين)، وفي كتابه هذا يقول: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتّى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3].

---

[1] أصول البيان العربي (رؤية بلاغية معاصرة)، د. ـ محمد حسين علي الصغير: ٣٠.

[2] ينظر: لسان العرب، مادة (بين): ١ / ٥٩٥.

[3] البيان والتبيين: ١ / ٧٦.

ونجد الرماني لا يختلف عن الجاحظ في تحديد معنى البيان، فقال: «وليس بحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبح من الكلام، لأنّ الله مدح البيان وأعتدَ به في اباديه الجسام»[١]، إلا أنّ الكلام الذي يستوفي خصائص البيان الحسن عند الرماني لا يقع كلّه في مستوى واحد، وإنّما تتفاوت مراتبه[٢]، ثمّ يأتي ابن رشيق القيرواني (ت: ٤٥٦ هـ)، فيقول: «البيان: الكشف عن المعنى حتّى تدركه النفس من غير عقلة، وإنّما قيل ذلك لأنّه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم بيان»[٣].

ويبدو ممّا سبق أنّ البيان لم ينتقل عن معناه الواسع منذ عهد الجاحظ حتّى عصر ابن رشيق، بل كان دائراً في فلك المداليل العامّة، التي تعني بجمال القول، وبلاغة الكلام وانسجام العبارة، وحسن الأداء[٤].

ومن ثمّ يتناول عبد القاهر الجرجاني علم البيان مصرحاً باسمه وواصفاً له وواضعه في أعلى مراتب القول، لكنّه لم يضع له تعريفاً اصطلاحياً، فيقول: «ثمّ إنّك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جناً، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من (علم البيان) الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر، والذي لولا تحفّيه بالعلوم وعنايته بها،

---

[١] النكت في اعجاز القرآن (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن): ٩٨.

[٢] ينظر: التعبير القرآني (رؤية بلاغية نقدية)، د. شفيع السيد: ١٠.

[٣] العمدة: ١ / ٢٥٤.

[٤] ينظر: أصول البيان العربي: ١٨.

وتصويره إيّاه، لبقيت كامنة مستورة، ولما استنبت لها يد الدهر صورة»[١].

وقبله الزمخشري في تفسيره الكشاف ذكر مصطلحي علم المعاني والبيان، قال: «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان»[٢]، ممّا دفع الدكتور شوقي ضيف أن يعد الزمخشري أول من ميّز بين علوم البلاغة وقسمها على علمين هما علم المعاني وعلم البيان[٣].

غير أنّ الدكتور أحمد مطلوب يرى أنّ كلام الزمخشري غير واضح، لأنّه كثيراً ما يردد هذين المصطلحين، وكثيراً ما يطلق مصطلح البيان على البلاغة كلّها، يضاف إلى ذلك أنّه لم يضع حدّاً بين موضوعات علم المعاني وعلم البيان، وإن ذكر كثيراً من موضوعاتهما[٤].

وقد ذكر الرازي مصطلحي المعاني والبيان في كتابه (نهاية الإيجاز) عند كلامه عن الخبر، فقال: «ولكن الخبر هو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتظهر فيه الدقائق العجيبة والأسرار الغريبة من علم المعاني والبيان»[٥].

وبقي معنى البيان يدلّ على أمور كثيرة ويطلق على البلاغة كلّها طوال العصور التي سبقت السكاكي، وحتّى في عصر السكاكي نجد ضياء الدين بن الأثير يطلق البيان على علوم البلاغة كلها[٦].

---

[١] دلائل الاعجاز: ٤.

[٢] الكشاف: ١ / ٤٣.

[٣] ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف: ٢٢٢.

[٤] ينظر: البلاغة عند السكاكي: ١١٩.

[٥] نهاية الإيجاز: ٣٦.

[٦] ينظر: البلاغة عند السكاكي: ١٢٠.

فالبيان ـ وهو من علوم البلاغة ـ كان اسمه يطلق على ما يراد منها جميعاً[١].

وقد استقر البلاغيون على تعريف السكاكي لعلم البيان «فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»[٢].

وهذه الدلالة (البيان) أخذت تتطور شيئاً فشيئاً حتّى انتهت عند البلاغيين المتأخرين إلى أنّها العلم الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[٣].

ولا يمكن لمفسّر أن يغض النظر عمّا في القرآن الكريم من ثروة بيانية لأنّ القرآن الكريم يمثل الذروة البيانية في الموروث البلاغي عند العرب»[٤]، لذا لم يغفل السيّد السبزواري في تفسيره مباحث (علم البيان) ـ وإن لم يشر إليه بمعناه الاصطلاحي ـ إنّما أفاض في ذكرها والإشارة إليها من حقيقة ومجاز واستعارة وتشبيه وكناية، ممّا يؤكد إحاطته بها وأهميتها في التفسير، لأنّها ركن من أركانه تؤدي للكشف عن المعنى المقصود.

---

[١] ينظر: البيان العربي، د. بدوي طبانه: ١٨.

[٢] مفتاح العلوم: ٣٤٢.

[٣] ينظر: البلاغة العربية، د. سعد سليمان حموده: ١٤.

[٤] تطور البحث الدلالي (دراسة في النقد البلاغي واللغوي) د. محمّد حسين علي الصغير: ٥٥.

المبحث الأول
«الحقيقة والمجاز»

المجاز في اللغة من جزت الطريق جوازاً ومجازاً، وجاوزته جوازاً في معنى: جزته، والمجاز والمجازة: الموضع، وتجاوز بهم الطريق: خلفه[١].

ولقد تحدث سيبويه عن المجاز بمعناه المقابل للحقيقة، واستعمل مصطلح (الاتساع في الكلام) ويريد به المعنى المجازي الذي يفيده[٢].

وأفرد ابن قتيبه باباً لدراسة المجاز ردّ فيه على من نفاه عن القرآن الكريم بدعوى أنّه كذب، فقال: «وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم وقلة إفهامهم، ولو كان المجاز كذباً وكل فعل ينسب إلى الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً لأنّا نقول: (نت البقل) و (طالت الشجرة) و (أينعت الثمرة) و (أقام الجبل) و (رخص السعر)»[٣]، وجاء ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) فعرّف الحقيقة وحدّ المجاز بقوله: «الحقيقة: ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز: ما كان بضد ذلك»[٤]، ثمّ يذكر سبب وقوع المجاز، ويكون ذلك لأجل معانٍ ثلاث، هي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن لم يفد أحد هذه الأوصاف، كانت

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (جوز): ٢ / ٤١٧.

[٢] ينظر: الكتاب: ١ / ٢١١.

[٣] تأويل مشكل القرآن: ١٣٢.

[٤] الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني: ٢ / ٤٤٢.

الحقيقة دون المجاز[١]، وقد أكّد عبد القاهر الجرجاني على أنّ هناك علاقة بين اللغة والاصطلاح في اشتقاق لفظ المجاز، فيقول: «المجاز مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه، وإذا عدل باللفظ عمّا يوحيه أصل اللغة وصف بأنّه مجاز على معنى أنّهم جازوا به موضوعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً»[٢]، ثمّ وضع تعريفاً للمجاز والحقيقة فقال عن المجاز: «كلّ كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الأول والثاني فهي مجاز، وإن شئت قلت: كلّ كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز»[٣].

وقال عن الحقيقة: «كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع ـ وإن شئت قلت: في مواضعة ـ وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره»[٤].

وجاء فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) لينقل تعريف عبد القاهر نصّاً دون أن يضيف شيئاً عليه، موضحا العلاقة بين اللغة والاصطلاح والحقيقة والمجاز[٥].

ثمّ جاء السكاكي وعرّف المجاز والحقيقة، فرأى أنّ المجاز: «هي الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٤٤٢.

[٢] أسرار البلاغة: ٢ / ١٧٧ ـ ٢٨٠.

[٣] أسرار البلاغة: ٢ / ٢٣٢.

[٤] المصدر نفسه: ٢ / ٢٣٠.

[٥] ينظر: نهاية الإيجاز: ٤٦.

مع قرينة مانعة عن إرادة معناه ذلك النوع»[١]، وقال في حدّ الحقيقة: «هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليها بنفسها دلالة ظاهرة»[٢].

ثمّ حد ابن الأثير المجاز بقوله: «ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه إليه»[٣].

ثمّ وضح شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣ هـ) الصلة القائمة في المجاز بين اللغة والاصطلاح، فقال: «المجاز من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، فإذا عدل باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة وصف بأنّه مجاز، على أنّهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً، لأنّه ليس بموضع أصلي لهذا اللفظ، ولكنّه مجازه ومتعداه يقع فيه كالواقف بمكان غيره ثمّ يتعداه إلى مكانه الأصلي»[٤]، فالمجاز إذن أبلغ في المعنى لذا يحسن العدول من الحقيقة إليه إذا كان فيه غرض صحيح من اختصار أو رشاقة لفظ وعذوبة، أو مبالغة في الوصف[٥]، وهو حدث لغوي يفسر لنا تطور اللغة بتطور دلالة ألفاظها على المعاني الجديدة، والمجاز خير وسيلة للتعبير عن ذلك بما يضيفه من قرائن وما يضيفه من علاقات لغوية جديدة توازن بين المعاني والألفاظ في الشكل والمضمون[٦].

---

[١] مفتاح العلوم: ٥٨٩.

[٢] المصدر نفسه: ٥٨٨.

[٣] المثل السائر: ١ / ٥٨.

[٤] نهاية الارب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: ٧ / ٣٧.

[٥] ينظر: أساليب البيان في القرآن، سيّد جعفر الحسيني: ٣٨٩.

[٦] ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني،، د. محمّد حسين علي الصغير: ١٥٣.

فالمجاز وفقاً لما مرّ، باب من أبواب البلاغة والتصرف في الكلام، فهو أبلغ في التعبير وأكثر اتساعاً وأبعد افقاً، لذا يحسن العدول من الحقيقة إليه.

ويرى الدكتور تمام حسان أنّ تعدد معاني اللفظ الواحد في المعجم لا يفسّره إلا المجاز، فيقول: «إذا نظرنا إلى المعاني المتعددة للفظ الواحد في أحد المعاجم فسنجد أحدها يفهم من اللفظ بطريق الحقيقة ونجد بقيتها مجازات عن هذه الحقيقة»[١].

ويرى العلماء أنّ الحقيقة قد تتحول إلى مجاز أو يتحول المجاز إلى حقيقة وهذا يعود إلى: «أنّه قد يقلّ استعمال الحقيقة، ويتغير حالها فتصير كالمجاز، وكذلك المجاز قد يكثر استعماله في العرف فيلحق بحكم الحقائق كما هو الحال في المنقول الشرعي، مع هجر معناه اللغوي كالصلاة»[٢].

وهذا يؤكده الدكتور أحمد مطلوب إذ لم يتقيد بما أقرّه اللغويون في الوضع الأول، فيقول: «لا يتقيد كل التقيد بمسألة الوضع الأول الذي أقرّه اللغويون ركناً أساسياً للحقيقة وإنّما يعتمد معيار العقل الذي يتخذه فيصلاً بين الحكم الحقيقي والحكم غير الحقيقي والمؤول المجازي»[٣].

ومن خلال استعراض تفسير مواهب الرحمن نجد أنّ السيّد السبزواري يفرّق بين الحقيقة والمجاز ويستعمل أحدهما في مقابل الآخر، فهو يحدد اللفظ أو الكلام، إن كان على الحقيقة أو على المجاز، ويكون الوضع اللغوي أساساً

---

[١] اللغة العربية، معناها ومبناها، د. تمام حسان: ١٩.

[٢] أساليب البيان في القرآن: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

[٣] البلاغة والتطبيق: ٣٢١.

للحكم على اللفظ ثمّ التوسع في استعماله، وهو لا يعد اتساع معنى الألفاظ من المجاز إذا كان الاتساع على نحو الحقيقة وإذا كان اللفظ يفيد المعنى في أصل الوضع اللغوي، كما جاء في حديثه عن لفظ اسم الجلالة (الله)، قال: «كل ما اتسع المعنى ازدادت آثاره ولوازمه وملزوماته، ولا نحتاج إلى تكثير اللفظ خصوصاً فيه جلّت عظمته، ولأجل ذلك قلنا: إنّ لفظ (الله) اسم للذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية الواقعية المسلوب عنه جميع النقائض الواقعية والإدراكية، وتشهد لذلك الأدلة العقلية والسنّة الشريفة فيكون إطلاق ألفاظ كثيرة وسلب معانٍ متعددة وهذا الإطلاق يكون على نحو الحقيقة دون المجاز»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٢]، يرى السيّد السبزواري إنّ جملة: (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً) الكلام فيها جاء على وجه الحقيقة دون المجاز[٣]، ومن ثمّ يذكر رأي غيره بخصوص هذه الآية فيقول: «وقيل: إنّ الكلام على المجاز دون الحقيقة لأنّ المتبادر من (يَأْكُلُونَ) إنّه للحال دون الاستقبال بقرينة العطف عليه بقوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ المشتمل على حرف الاستقبال فلو كان المراد حقيقة الأكل ووقته يوم القيامة لكان الأنسب أن يكون لفظ الآية هكذا (فسيأكلون ناراً ويصلون سعيراً) فيراد به المعنى المجازي أي أنّهم في أكلهم مال اليتامى كمن

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٢٧٢.

[٢] النساء: الآية / ١٠.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ٣٠٩.

يأكل في بطنه ناراً فالأكل عذاب باطن البدن والصلي عذاب ظاهره جزاء اللباس وسائر التصرفات»[١].

ويرى صاحب المواهب أنّ هذا التفسير بعيد عن ظاهر الآية الكريمة وهو يقدّم الأدلة على فساده، قال: «لكن فساد هذا القول ظاهر، لأنّه مخالف لظاهر الآية الشريفة لأنّ المتبادر إلى الذهن هو حقيقة الأكل دون المعنى المجازي والنار الفعلية دون النار في المستقبل مضافاً إلى أنّه يوجب خروج الآية المباركة عن مفادها الواقعي وهو تجسّم الأعمال»[٢]، ويرى أنّ للحقيقة مراتباً كثيرة لأنّ بعض الألفاظ ظاهرة في الحقيقة غير محدودة بعالم فتُحمل على المجاز وهذا ما يتوهم به، وأشار إلى ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٣]، قال: «الكلام محمول على حقيقته دون المجاز ولكن لنفس الحقيقة مراتب كثيرة شدّةً وضعفاً وجوهراً وعرضاً وكمالاً ونقصاً، فلا وجه لحمله على المجاز، كما لا وجه لحمله على الحقيقة التي هي محجوبة عن البصائر والإبصار وهي عالم الغيب لأنّ اللفظ ظاهر في الحقيقة غير المحدودة بعالم دون عالم آخر. نعم، لها مظاهر ومراتب كما مرّ، ففي الآية الكريمة يراد من النور: الإيمان والهداية، ومن الظلمات: الضلال والغواية»[٤]، يتضح من خلال ما

---

[١] المصدر نفسه: ٧ / ٣٠٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ٣٠٩.

[٣] البقرة: الآية / ٢٥٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٠١.

بيّنه صاحب المواهب أنّ اللفظ لا يحمل على الحقيقة أو المجاز إلا من خلال ما أفاده من معنى ضمن السياق، فاستقامة معنى الآية الشريفة هو من يوجه إفادة اللفظ: المجاز أو الحقيقة، ومن ذلك ما ذكره صاحب المواهب في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[١] يرى أنّ: «حقيقة الحمد هو إظهار صفات الكمال بالقول والفعل، كما ذهب إليه بعض المحققين، والفعل أقوى من القول لأنّ الأفعال التي هي من آثار فيض جوده وسخائه عزّ وجلّ تدل عليهما دلالة عقلية قطعية لا يتصور فيها التخلق، بخلاف القول فإنّ دلالتها عليه وضعية وقد يتخلف عنها مدلولها، ومن هنا كان حمده عزّ وجلّ على ذاته على سبيل الحقيقة بل هو أفضل أفراد الحمد، وعلى ذلك لا نحتاج إلى التأويل وإتعاب النفس في تصوير حمده عزّ وجلّ على ذاته المقدسة، وما اشتهر من أنّ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل، وفي العرف أعمّ منه ومن عقد الجنان وفعل الأركان، فهو باعتبار ذكر الفرد المعهود الشائع لذلك المفهوم، لا أن يكون الحمد مختصاً بها حتّى يكون تعالى لذاته مجازاً»[٢]، فهو يتفق مع عبد القاهر الجرجاني في وصف المجاز من جهة احتياجه إلى التأويل، يقول عبد القاهر: «إنّ كلّ جملة أخرجت الحكم المضاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل فهي مجاز»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى

---

[١] الأنعام: الآية / ١.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ٨

[٣] أسرار البلاغة: ٢ / ٢٦٩.

قُلُوبِكُمْ﴾[١]، يرى أنّ لفظ الأخذ حقيقياً ولا وجه لجعله مجازاً، لأنّ سلب الآثار عن الماهيات كأنّه سلب للماهيات، قال: «أخذ في المقام هو سلب قوتي السمع والأبصار وانتزاعهما عنهم، فلم يمكنهم الاستفادة منهما في الجهة النافعة المطلوبة لأصحابها، فيكون الأخذ حقيقياً لأنّ سلب الآثار عن الماهيات سلب للحقيقة ولا وجه لجعله مجازاً»[٢]، وهو يتابع بذلك عبد القاهر الذي يرى أنّ الحقيقة يجب أن تعرّى من التأويل، فالجملة إذا أفادت ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة[٣]، وفي نص قرآني آخر يرى أنّ المعنى المجازي هو المناسب سياق الآية الكريمة من لفظ (أبناء) وكانوا يصفون به أنفسهم لغرض التشريف، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[٤] قال: «الابن: يطلق ويراد منه المعنى المجازي، أي القرب والرحمة، حيث أنّ الأولاد مقربون من آبائهم وموارد رحمتهم وعنايتهم، ولعلّ هذا المعنى هو المناسب في المقام، فيكون قوله تعالى (وَأَحِبَّاؤُهُ) عطفاً تفسيرياً له، ويدل على ذلك أنّهم لم يدّعوا النبوة الحقيقة لغير ما ادعوها فيه كالمسيح وعزير، فلا اليهود تدّعي تلك الحقيقة ولا النصارى، فكانوا يطلقونها على أنفسهم تشريفاً»[٥].

وفي قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[٦]، يرى أنّ استعمال لفظ

---

[١] الأنعام: الآية / ٤٦.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٢٠.

[٣] ينظر: أسرار البلاغة: ٢ / ٢٦٨.

[٤] المائدة: الآية / ١٨.

[٥] مواهب الرحمن: ١١ / ١٠٩.

[٦] المائدة: الآية / ٦٤.

(اليد) يدل على معانٍ مجازية عدة شائعة، قال: «اليد: هي الجارحة المعروفة، وتطلق على معانٍ مجازية، كالنعمة والقدرة والملك والتصرف وغير ذلك ممّا هو كثير، واستعمالها في غير المعنى الحقيقي من الأساليب البلاغية المعروفة وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك، ومنه المقام الذي أريد من اليد: القدرة أو الجود، فيكون غل اليد العجز أو البخل، ويدل على الأخير، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[١]، ويدل على الأولى القرائن الكثيرة كما عرفت، ومنها ما يأتي فإنّه دعاء عليهم بالعجز وسلب القدرة عنهم»[٢].

إنّ السيّد السبزواري في تعليقه على الآية الكريمة، يحمل اللفظ على المجاز إذا كانت هناك قرينة دالة عليه، ولعلّه تابع العلوي في ذلك إذ ذكر الأخير أنّ اللفظ الذي يفيد المجاز مع القرينة هو المجاز بعينه، لأنّ دلالة القرينة ليست دلالة وضعية، وإنّما دلالتها عقليّة[٣].

ويقرّ السيّد السبزواري في موضع آخر ما هو مشهور بين المفسرين من القول بالمجاز والحذف[٤]، في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾[٥]، حيث قال: «المشهور بين المفسرين القول بالمجاز والحذف في مثل الآية فأمّا أن يكون المحذوف (العذاب)، بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ

---

[١] الاسراء: الآية / ٢٩.

[٢] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٦٢.

[٣] ينظر: الطراز: ٣٧.

[٤] ينظر: الكشاف: ١ / ٢٨١.

[٥] البقرة: الآية / ٢١٠.

إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾[١]، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كثير في المحاورات الفصيحة، أو يكون أمره تعالى بقرينة قوله جل شأنه ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[٣].

وغير ذلك ممّا يصح إضماره ولا بدّ من المصير إلى ذلك ـ كما هو كثير في القرآن الكريم ـ تلائم نسبته إلى ذاته الأقدس»[٤].

ويرى صاحب المواهب أنّ التعبير بـ (يسيراً) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾[٥]، تعبيراً مجازياً، وقد استدل على ذلك باعتماد القواعد الفلسفية، فليس هناك شيء يكون معجزاً أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، حتّى يكون شيئاً آخر مقابله يسيراً، قال: «أمّا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾، فقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم ولا ريب في أنّ الممكن من حيث هو ممكن إذا لوحظ بالنسبة إلى الواجب بالذات تكون النسبة نسبة العدم إلى الوجود لما ثبت في الحكمة المتعالية حتّى جعله العلماء من القواعد الفلسفية: (إنّ الممكن من ذاته ليس، ومن علّته أيس)، هذا إذا لوحظ إلى ذات الواجب من حيث هو، وأمّا إذا لوحظ بالنسبة إلى القيوميّة المطلقة، والقدرة غير المتناهية والإحاطة العلمية فوق ما نتعقله من معنى الإحاطة

---

[١] يونس: الآية / ٥٠.

[٢] النحل: الآية / ١.

[٣] النحل: الآية / ٧٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٣ / ٢٦٠ ـ ٢٦١.

[٥] النساء: ٣٠.

فجميع العوالم الإمكانية كالذرة تحت يدي جبّار قاهر، وحينئذ يكون التعبير بـ(يسيراً) تعبيراً مجازياً إذ ليس شيء في مقابل ذلك الجبروت المهيمن حتّى يكون يسيراً»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٢]، يلحظ صاحب المواهب أنّ من دواعي المجاز هو الاستعمال كما في لفظ الطائر، قال: «الطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، وجمعه الطير كالراكب والركب، واستعمل الطائر في العمل والنصيب مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[٣].

ومن الألفاظ التي أفادت المجاز وأشار إليها صاحب المواهب لفظ (اللمس) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٤]، وهو يستعمل مجازاً بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، قال: «اللمس هو إدراك الشيء بظاهر البشرة، وقيل: إنّه اللمس باليد، إذ قد يستعمل مجازاً بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾[٥]، أي تفحصنا، أو لزيادة التعيين وتحقيق القراءة على قرب أي فقرءوه بأيديهم لا بعيداً عنهم، وهو ما يدل على عدم حصول الخداع، فإنّ اللمس، إذا اقترن بالرؤية كان أقرب إلى اليقين وأبعد عن الخداع، بخلاف البصر فإنّه قد يحصل الخداع فيه للتخييل»[٦].

---

[١] مواهب الرحمن: ٨ / ١٢٩ ـ ١٣٠.

[٢] الانعام: الآية / ٣٨.

[٣] الاسراء: الآية / ١٣.

[٤] الأنعام: الآية / ٧.

[٥] الجن: الآية / ٨

[٦] مواهب الرحمن: ١٣ / ٥٨.

من خلال ما تمّ بيانه من المواضع التي عرض لها صاحب المواهب وكشف عن المجاز فيها، يظهر أنّه يقرّ بوجود المجاز في القرآن الكريم، ورأيه فيه يكاد يتفق مع عبد القاهر الجرجاني والعلوي من اشتراط القرينة الدالّة عليه، ومن أصل اللفظ وما يدلّ عليه من معنى حين الوضع، واستعماله على سبيل الاتساع في المعنى مجازاً لإفادة أغراض معينة لا تتحقق بدونه، وما يضفيه من سمات جمالية تجعل القلوب تطرب لما تسمع ويكون تأثيره فيها أقوى وأكثر إشراقاً.

المبحث الثاني
«التشبيه والتمثيل»

التشبيه

التشبيه لغة من: الشَبَه والشبْه، والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشْبَه الشيء الشيء: مائله، وأشْبَهَتُ فلاناً وشابهته واشْتَبَه عليّ وتشابه الشيئان واشتبها: أشْبه كلّ واحد منهما صاحبه، وشبَّهُه إياه وشبّهُه به مثّله، والتشبيه التمثيل[١].

وأمّا في الاصطلاح فالتشبيه «الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى»[٢]، وهو من أكثر الألوان البلاغية التي حفل بها التراث العربي الأدبي نظراً لكونه أوضح الصور المجازية ظهوراً في التعبير وأقربها في التناول لوضوح التعبير وجلائه[٣]، ولعلّ أقدم من وضع حدّاً للتشبيه هو المبرد: (ت: ٢٨٥ هـ) يقول: «واعلم أنّ للتشبيه حدّاً، فالأشياء تتشابه من وجوه، وإنّما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع»[٤].

ثمّ عرّفه قدامه بن جعفر (ت: ٣٣٧ هـ) بقوله: «إنّ الشيء لا يشبّه بنفسه ولا بغيره من كلّ الجهات، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (شبه): ٧ / ٢٤.

[٢] التلخيص في علوم البلاغة: ٦٢.

[٣] ينظر: البلاغة العربية، د. سعد سلمان حموده: ٢٤.

[٤] الكامل: للمبرد: ٢ / ٧٦٦.

تغاير البتّة اتّحدا فصار الاثنان واحداً، فبقي أن يكون التشبيه إنّما يقع بين شيئين بينها اشتراك في معانٍ تعمّهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كلّ واحد منهما عن صاحبه بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه: هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيما يدني بهما إلى حال الاتحاد»[١]، وذكر ابن طباطبا (ت: ٣٢٢ هـ) أشكالاً مختلفة من التشبيهات، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيه به معنى، ومنها تشبيهه به حركةً وبطئاً، ويذهب إلى أنّه إذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان... صار التشبيه قوياً وصادقاً، وهو يرى أنّ أحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض[٢]، وحدّه الرمّاني بأنّه: «العقد على أنّ أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسن أو عقل»[٣]، وأكد ابن رشيق القيرواني على أنّ: «التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه»[٤]، وهو لا يختلف عمّن سبقه من علماء البلاغة، أشار إلى امتناع المطابقة الكلية بين المشبه والمشبه به، لأنّه في هذه الحال سوف يكون هو، فالتشبيه إذن محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل وتطوير اللفظ، ومهمته تقريب المعنى إلى الذهن بتجسيده حيّاً[٥]، وهو تصوير فني يرسم المعنى في الخيال وما

---

[١] نقد الشعر / ١٠٩.

[٢] ينظر: عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: ١٧ـ ٢٣.

[٣] النكت في إعجاز القرآن: ٧٤.

[٤] العمدة: ١ / ٢٨٦.

[٥] ينظر: أصول البيان العربي: ٦٣.

إن دقّ ولطف في التعبير إلا ازداد حسناً وكمالاً[١]، وفائدته توسيع آفاق التعبير أمام المتكلم فيستطيع عن طريق الصورة أن ينقل ما رسم في ذهنه من معان إلى السامع أو القارئ لأنّه يجمع بين الإيجاز وحسن البيان والمبالغة في تأكيد المعاني وتقريرها[٢].

وعليه يكون التشبيه مشابهة شيء لشيء آخر في صفة أو أكثر، وهذه المشاركة في الصفات هي التي دعت إلى التشبيه، وهو أبلغ وأشدّ تأثيراً، لأنّه يعبر عن المعاني الذهنية بالصور، وهو أقرب إلى تحريك النفوس وإثارتها.

ومن ملاحظتي لتفسير المواهب رأيت أنّ السيّد السبزواري قد كشف عن التشبيه وهو يفسر الآيات الكريمة، مفصّلاً القول في هذا اللون البلاغي وموضحاً العلاقات فيما بين المشبه والمشبه به، أو أداة التشبيه أو وجه الشبه، راداً في بعض المواضع على آراء المفسرين الأخرى فيه أو في أركانه، وهو في ذلك كله جارياً مع مراد السياق القرآني، وما يمكن أن يفيده من معنى، حصل التشبيه لأجله، ويشهد لذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾[٣]، قال: «النقير اسم للنقطة التي في ظهر النواة، وهو المقدار اليسير الذي يأخذه الطير من الأرض بنقر منقاره وقيل غير ذلك، وهو تشبيه بما نقر بمنقار الطائر أو منقار الحديد الذي تحفر به الأرض الصلبة، وكيف كان فهو مثال

---

[١] ينظر: تلخيص التمهيد (موجز دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم)، محمّد هادي معرفه: ٢/٣٣١.

[٢] ينظر: علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح فيّود: ٢٨.

[٣] النساء: ٥٣.

للشيء الحقير»[١]، يؤكد هنا أنّ وجه الشبه هو الشيء اليسير أو الحقير لأنّهم مع ما أنعم الله عليهم من النعم الدنيوية الظاهرة من الثروة والزراعة والعقار كانوا قد عرفوا بالشحّ والبخل والحرص على المنع من أدنى الأشياء وأحقرها.

وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾[٢]، رأى أنّ التشبيه بأصحاب السبت كان لأجل إشعارهم بما هم عليه من الضلال حتّى استحقوا الطرد واللعن، وأشار إلى أنّ غرض هذا التشبيه هو: «لبيان تهويل الأمر والإغراق بالوصف»[٣]، وفي مثال قرآني آخر يرى السيّد السبزواري أنّ وجه الشبه ممكن أن يأخذ صوراً متعددة بلحاظ المشبه والمشبه به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً﴾[٤]، قال: «المثل: الشبه، والقول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر يبين أحدهما الآخر، وقد بيّن سبحانه وتعالى إنّ مثل الكفار في عدم التعقل والتدبر في ما يرتبط بشؤون دينهم وآخرتهم، وعدم تأملهم في ما أتى به الأنبياء لأجل سعادتهم ونجاتهم من المفاسد والمهالك، مثل الحيوانات التي لا تفهم من الخطاب إلا مجرد الأصوات التي يصدرها الإنسان لدعوتها إلى شيء أو زجرها عن شئ آخر، فهي لا تعقل شيئاً ممّا يقول، ولا تفهم منها معنى، كذلك شأن الكفار في الجهل وعدم التمييز بمداليل الألفاظ وعدم درك المعاني»[٥]، وأكد

---

[١] مواهب الرحمن: ٨ / ٣١٦.

[٢] النساء: الآية / ٤٧.

[٣] مواهب الرحمن: ٨ / ٢٨٤.

[٤] البقرة: الآية / ١٧١.

[٥] مواهب الرحمن / ٢ / ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

صاحب المواهب أنّ التشبيه في المقام يحتمل وجوها أربعة:

الأول: أن يكون تشبيه حالهم في ترك دعوة الحق وإتباع آباءهم، بالناعق للحيوان، يعني ـ أنّ التابعين كالحيوان، والمتبوعين كالناعق لهم[١]، وهذا الوجه أشار إليه الطبرسي وقال إنّه من اختيار الرمّاني والطبري[٢].

الثاني: أن يكون كالوجه الأول، إلا أنّ التشبيه يكون بالنسبة إلى التابع، يعني: إنّ المتبوع كالحيوان، والتابع كالناعق لهم.

الثالث: لحاظ التشبيه بالنسبة إلى المعبودات الباطلة في الأوثان والأصنام، بل يمكن التعميم كي يشمل كل ما يراد به غير وجه الله تعالى، فيكون المراد به أنّه ليس له إلا التعب والنصب من دعائه.

الرابع: تشبيه واعظ الكفار ـ هم الأنبياء ـ بالراعي الذي ينعق بالحيوان، فلا يسمع منهم ولا يفهمون ما يقولون لهم، ويمكن أن يأخذ معنىً عامّاً يشمل ذلك، وقد أشار إلى الوجه الرابع الطبرسي[٣]، وأشار السبزواري أنّ التشبيه ممكن أن يفيد معنىً عاماً، فتقع هذه الوجوه المحتملة جمعيها في ضمنه[٤].

ومن صور التشبيه التي أشار إليها المفسّر، تشبيه المعقول بالمحسوس، أي شبّه سبحانه وتعالى عظمته وكبرياءه وسلطانه بكرسي الملك المقتدر المدير لرعيته، ورصد ذلك التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٥]، قال:

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٣٣٨.

[٢] ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي / ١ / ٢٥٥.

[٣] ينظر: مجمع البيان / ١ / ٢٥٥.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن / ٢ / ٢٩٥.

[٥] البقرة: الآية / ٢٥٥.

«المراد به في المقام اقتداره التام وسعة سلطانه، وهو تشبيه بليغ بين ما هو المعقول ـ بل فوق المعقول ـ بما هو المحسوس، وله نظائر كثيرة في الكتاب الكريم، وإنّما شبّه سبحانه وتعالى ـ ما في ساحته المقدسة التي تجل عن المادة وشؤونها، فإنّه لا كرسي و ولا جلوس هناك تقريباً إلى الإفهام ـ بما اعتاد في صفات الملوك والعظماء، فشبه عظمته وكبرياءه وسلطانه التام بكرسي الملك المقتدر المدير لرعيته والمدبر لشؤونها وإلا فليس ما سواه إلا من مظاهر أسمائه وصفاته»[1]، فالتشبيه في الآية الشريفة دلّ على تدبير الله عزّ وجلّ وكمال إحاطته بمخلوقاته، فهو الذي يرشدها إلى الكمال المطلوب، ويفيض عليها ممّا يشاء، وهي عاجزةً عن إدراك ذلك، والتشبيه في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[2].

يرى صاحب المواهب أنّه من تشبيه المعقول بالمحسوس أيضاً لكي يقرّب المعنى إلى الأذهان المتعلقة بالأجسام ولبيان أنّ الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت يحققان السعادة واستقرار نفس المؤمن وعدم تأثير الأوهام والشبهات فيها، ففي الآية الشريفة تشبيه بليغ وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس والمعنى عام يشمل جميع العرى الجسمانية والمعنوية والروحانية الداعية إلى الحق والرشاد، ولا عروة أوثق من هدي الرحمن ومعارف القرآن، فلهذه العروة الوثقى حياة معنوية أجلّ وأشرف من الحياة الظاهرية، ولها مظاهر مختلفة في جميع

---

[1] مواهب الرحمن: ٤ / ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

[2] البقرة: الآية / ٢٥٦.

العوالم وهي الصراط المستقيم وسواء السبيل والحياة الأبدية في عالم الآخرة[١]، والتشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[٢]، يرى أنّه من تشبيه المعقول بالمحسوس جرياً على ما كانت تشبّه العرب، قال: «العرب تشبّه النور الممتد بالحبل أو الخيط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٣]، ولعلّ وجه الشبه أنّهم لم يعرفوا من قواعد الهيئة والأفلاك العلوية شيئاً، وإنّما كان أنسهم بالأمور المادية، فشبّه الجليل جلّ وعلا الفجر بالأمر المحسوس، لتقربيه إلى أذهانهم، ولبعده عن الالتباس وسهولة معرفته»[٤]، وفي موضع آخر يبيّن المفسّر الفائدة من التشبيه وأهميته في إتمام المعنى وبيان المراد منه في أجلى صورة، ذكر ذلك وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[٥]، إذ رأى أنّ تشبيه المرأة بالحرث في الآية الكريمة يستفاد منه أمور عدة منها: حاجة الإنسان إلى الحرث والى النساء، لأن في الأول بقاء الحياة وفي الثاني بقاء النسل، ومنها ملاحظة زمان ومكان الحرث وكذلك يلاحظ في النساء هذه الجهة، وملاحظة ومراعاة سقي الزرع وحفظه من حوادث الجو ولا بدّ من مراعاة أحوال النساء كذلك، وعدم تحميل الأرض ما يضرّها من كثرة الماء وزيادة البذر، لأنّه يؤدي إلى تلفها وهكذا حال المرأة فيما يتعلق بها، ومنها أنّ بهجة الارض وخضرتها ممّا

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ٤ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

[٢] البقرة: الآية / ١٨٧.

[٣] آل عمران: الآية / ١٠٣.

[٤] مواهب الرحمن: ٣ / ٩٥.

[٥] البقرة: الآية / ٢٢٣.

يوجب سعادة الحارث وفرحه، كذلك جمال الزوجة ونظافتها ونزاهتها من موجبات فرح الزوج وانبساطه ورغبته على الحياة الزوجية وغير ذلك ممّا هو منشأ لحسن هذا التشبيه[١]، يؤكد أنّ هذا التشبيه حسن لتعدد الفائدة منه، ولأنّه يعبر عن المعنى المراد ويكشف عنه بأقل الألفاظ وأفصحها، فهو تشبيه بليغ لكلّ ما ذكر فيه، وفي نص قرآني آخر يوضح صاحب المواهب أركان التشبيه من مشبه ومشبه به ووجه الشبه وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢]، حيث ذكر أنّ الله سبحانه وتعالى: «شبّه الإسلام بالمطر لأنّه يحيي الأرض بعد موتها والإسلام يحيي القلوب، وجعل تعالى شبهات المنافقين وأباطيلهم كالظلمات، وشبّه ما في الدين من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من أهل الإسلام بالصواعق، وهم في غلو واضطراب وخوف من الناس»[٣]، بيّن في الآية الكريمة أكثر من تشبيه، الأول: تشبيه الإسلام بالمطر، والثاني: شبهات المنافقين بالظلمات، والثالث: الوعد والوعيد الذي في الدين بالرعد والبرق، والرابع: ما يصيبهم من أهل الإسلام بالصواعق، ومن صور التشبيه التي أشار إليها هو التشبيه المركب، وأوضحه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾[٤]، حيث رأى أنّ: «في

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ٣ / ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

[٢] البقرة: الآية / ١٩.

[٣] مواهب الرحمن: ١ / ١٣٩.

[٤] آل عمران: الآية / ١١٧.

الآية الكريمة تشبيه مركب، فقد شبّه سبحانه وتعالى إنفاقهم في مقاصدهم وشؤونهم التي يزعمون أنّها وجه الله أو التي يريدون بها الصدّ عن سبيل الله تعالى بالريح الباردة التي تضرّ بالحرث والزرع، فهي فاسدة ومفسدة فلا ينتفعون من إنفاقهم أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة بل يكون مفسداً لأخلاقهم وموجباً لسقوط الآثار الواقعية التي تترتب على كلّ إنفاق ويحرمهم من السعادة الدنيوية والاخروية فلم يجنوا من إنفاقهم إلا الشقاء والحرمان، فالآية المباركة تبين حال إنفاقهم مع كفرهم في إحباطه له فيكون الكفر والظلم بمنزلة الريح الباردة»[1]، فهو يشبّه الكفر والظلم بالريح الباردة، وهو يتابع عبد القاهر الذي يرى أنّ التشبيه المركب يصوّر الهيئة وأحد المشبهين في المركب تابع للآخر[2].

لقد نال مبحث التشبيه عناية صاحب المواهب إذ تناول فيه أبرز قضاياه، وفصّل القول في أركانه والغرض منه، نلحظ ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

فيرى في الآية الأولى: «أنّ مثل المرائي في إنفاقه، المنافق في عمله مثل ذلك

---

[1] مواهب الرحمن: ٦ / ٢٦٣.

[2] ينظر: أسرار البلاغة / ٢ / ٦١.

[3] البقرة: الآيتان / ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

الحجر الصلب الذي عليه التراب وجعله أملس ليس عليه شيء، وجملة ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ بيان لوجه الشبه، والمشبه به، أي: لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة»[١]، وفي الآية الثانية، قال: وإنّما شبّه سبحانه وتعالى بالجنّة التي فوق الأرض المرتفعة لأنّها أزكى ثماراً وأعظم نماءً وأنقى هواءً وأبهج منظراً وأبعد عمّا يضرّ بالأشجار من المياه العفنة وفساد المستنقعات، فإذا أصاب هذه الجنّة المطر الغزير كانت أسرع نمواً، وأحسن تنمية وأكثر ثمراً، وكذا لو أصابها مطر ضعيف فإنّ الأثر فيها كذلك لكرم منبتها وجودة مغرسها، وحسن موقعها، والغرض منه بيان إنّ الأثر يترتب على الإنفاق في مرضات الله تعالى من دون أن يتخلف كمثل الجنة التي فوق الأرض المرتفعة إذا أصابها المطر فإنّه يجني ثمارها بأحسن وجه، كذلك الإنفاق في مرضات الله تعالى فإنّ آثاره حسنة لاتصاله بالله تعالى فتشمل عنايته له وقبوله عزّ وجلّ بأحسن قبول وخيره دائم وبره أبدي»[٢].

لقد ميّز في الآيتين الكريمتين بين المشبه والمشبه به ثمّ بيّن وجه الشبه، وبيّن السبب من التشبيه بالجنّة، ثمّ بيّن الغرض منه، وقد أتى في هذا التشبيه على ذكر أبرز قضاياه، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣]، يؤكد المفسر على بيان وجه الشبه بين المشبه به آدم عليه السلام وبين المشبه عيسى عليه السلام، قال: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ يدلّ على وجه الشبه

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٦٨.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٧٠ ـ ٣٧١.

[٣] آل عمران: الاية / ٥٩.

بين عيسى وآدم (عليهما السلام) في أنّهما خلقا على خلاف العادة»[١].

كان للسيّد السبزواري رأيه في التشبيه، نلحظ ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾[٢]، فهو يرى أنّ قياسهم في القول في الآية الكريمة باطل، وقد خرجوا عن جادة الصواب في ذلك، لأنّهم قالوا: إنّما البيع مثل الربا ولم يقولوا: إنّما الربا مثل البيع الذي هو أقرب إلى الذهن وسبب ذلك خبط نفوسهم واختلاف أفكارهم وعقولهم، حيث قال: «قد شبّهوا الربا الذي هو خلاف الفطرة المستقيمة بالبيع الذي هو المعروف عند العقلاء وهما نوعان متباينان، ولكن الخبط الذي استقر في نفوسهم جعلوا المأمور به كالمنهي عنه وهو قياس مع الفارق، فإنّه يدل على الخبط في كلامهم وعدم استقامة أفكارهم[٣].

ثمّ يرد على الزمخشري الذي يرى أنّ المراد بقوله: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ المبالغة في التشبيه[٤] كما في قول الشاعر:

ومهمة مغبرة أرجاؤه		كأن لون أرضه سماؤه[٥]

بفساد ما ذكر، قال: «لكن فساد ما ذكره يظهر ممّا تقدم، فإنّ التشبيه إنّما حصل من التخبط الحاصل لهم من مسّ الشيطان والاختلال الناشئ في أفكارهم، وممّا ذكرنا يظهر الوجه فيما ذكره بعض آخر: من أنّ التشبيه بين البيع والربا إنّما

---

[١] مواهب الرحمن: ٥ / ٣٩٧.

[٢] البقرة: الآية / ٢٧٥.

[٣] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

[٤] الكشاف: ١ / ٣٤٨.

[٥] البيت من الرجز لرؤبة بن عبد الله بن العجاج، ينظر: شرح ديوان العجاج: ٣، وينظر: مفتاح العلوم: ٣١٣، وينظر المصباح: ١٢٤.

هو لأجل إنّهما مشتركان في الكسب والفائدة ولكن في الربا واضح معلوم وفي غيره موهوم»[١].

يظهر ممّا تقدم اهتمام السيّد السبزواري بالتشبيه والإشارة إليه في مواضعه من القرآن الكريم، ولم تكن هذه الإشارة عابرة أو محدودة، وإنّما يشير إلى أركانه وأدواته والغرض منه مع بيان وجه الشبه، فهو يعدّه جزءاً من أدوات المفسر للوصول إلى المعنى المقصود، فهو من الأدوات الفنية التي لا يُستغنى عنها.

وقد أشار إلى قيمته الفنية ووضوحه وجماله، فهو يتميز برابطين يزيدان الأسلوب وضوحاً، وهما: الرابط اللفظي المتمثل بالأداة، والرابط المعنوي المتمثل في وجه الشبه[٢]، الأمر الذي جعله من فنون البلاغة، ومن الأدوات التعبيرية المهمة لإيصال المعنى بأوجز لفظ وأبلغ صورة، لذا كان اهتمام المفسرين بالإشارة إلى موارده والاعتناء بذكر أركانه وأهميته والغرض منه.

«تشبيه التمثيل»

من العلماء الذين ميّزوا بين التشبيه والتمثيل قدامه بن جعفر وتحدث عنه في نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى[٣] كما ميّز بينهما عبد القاهر الجرجاني، فجعل وجه الشبه في التمثيل محتاجاً إلى التأويل بأن يكون عقلياً، كقولهم: (حجة كالشمس في الظهور) فالمشبه مفرد عقلي، لأنّ المراد به معنى الكلام المستدل به لا نفس

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٣٦.

[٢] ينظر: بلاغة الصورة القرآنية، الجماليات والتجليات، د. صادق سعد شلبي: ١٨.

[٣] ينظر: نقد الشعر: ١٥٨.

الكلام المسموع، والمشبه به مفرد حسّي، ووصفه وهو الظهور من خواص المحسوسات، وهذا لا يشترك فيه المشبّه لأنّه عقلي، فلا بدّ فيه من التاويل بإرادة لازم الظهور، وهو عدم المانع من الادارك مطلقاً وهذا هو وجه الشبه في الحقيقة، وهو عقلي غير حقيقي، أمّا الأول المؤول فهو وجه الشبه في الظاهر[١]، وقال الجرجاني مفرّقاً بينهما في موضع آخر: «إنّ التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً»[٢].

أمّا ابن الأثير فيعتقد أنّهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبّهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال مثلته به[٣].

ويرى صاحب المواهب أنّ التمثيل من الأساليب المثيرة للإحساس والعواطف[٤]، وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾[٥] يرى أنّ الجملة: «تبيّن غاية الرحمة والرأفة على الذرية الضعاف الذين لا وليّ لهم يذود عنهم الذل والهوان ولا كافل يتكفل أمرهم ويرعى شؤونهم، والآية في مقام التمثيل»[٦]، فالآية تثير الشفقة والرحمة لرعاية شؤون اليتامى والاعتناء بهم وترك ظلمهم، لأنّ كلّ من يخاف أن يترك الذرّية الضعفاء من خلفه لا يريد ذلك بالنسبة إلى ذرّيته.

---

[١] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

[٢] المصدر نفسه: ١ / ١٩٨.

[٣] المثل السائر: ٢ / ١١٦.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ٣٠٧.

[٥] النساء: الآية / ٩.

[٦] مواهب الرحمن: ٧ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

ويعتقد السيّد السبزواري أنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ﴾[١] تمثيل لما يصيروا إليه فهو بيان لحالهم بأن يكون المأكول ناراً في بطن الآكل وإن ظنّ أنّه طعام، قال: «إنّ أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله ـ المشترين به ـ لا يفعلون ذلك إلا بما يؤول بهم إلى النار بسبب أكلهم للثمن الخسيس، فهو تمثيل لمآلهم»[٢]، وهو يرى أنّ القول إن كان يحمل على الحقيقة ففيه تمثيل، أمّا إذا حمل على المعنى الكنائي فهو لا يفيد التمثيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾[٣] إذ قال عند تفسير هذه الآية: «وهي أمّا تحمل على الحقيقة والعموم أي إنّ الموتى المستجيب منهم وغير المستجيب يبعثهم الله تعالى فيعلمهم الحقيقة والواقع حين لا ينفعهم الإيمان، ففيها تمثيل أو تحمل على المعنى الكنائي أي إنّ الموتى هم الذين لا يسمعون الآيات حقّ السمع فلا يصغون إلى الحق ولا يفهموه»[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾[٥]، أجده يتبنّى رأي عبد القاهر بأنّ التمثيل ممّا يدرك عقلاً لا حساً[٦]، فهو يرى أنّ الآية الشريفة تمثّل حقيقة الأعمال

---

[١] البقرة: الآية / ١٧٤.

[٢] مواهب الرحمن: ٢ / ٣٦٣.

[٣] الأنعام: الآية / ٣٦.

[٤] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٤١.

[٥] البقرة: الآية / ٢٦٦.

[٦] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

والنيات وتبيّن تأثير الأفعال الفاسدة والنيّات الباطلة في النفوس، إذ قال: «ووجه التمثيل أنّ الذي ينفق أمواله يعقد عليه آماله في الحصول على ما يترتب عليه من الآثار في الدنيا والآخرة فإذا عقّب إنفاقه المنّ أو الأذى أو سائر ما يوجب حبطه فإنّها تحرقه ويذهب هدراً لا يجني منه شيئاً مع شدّة احتياجه إلى ثمراته»[١]، وفي نص قرآني آخر يرى أنّ القرب من الله وتعالى يعبّر عنه بالعناية والرعاية فهو قريب، تمثيل لإجابة دعاء من دعاه في يسر وسهولة، أشار إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[٢] قال: «فإنّ فيه تمثيلاً لحاله في سهولة إجابة دعائه، وسرعة إنجاح حاجة من سأله، بحال من قرب مكانه»[٣].

إنّ بابي التشبيه والتمثيل من أهم وسائل التعبير القرآني، لا يمكن أن يدرك أسرارهما إلا من أوتي حظاً من العلم والفهم الدقيق لمسائل علم البيان، فضلاً عمّا يحملانه من الإيجاز والمبالغة فأنّهما يضفيان على العبارة جمالاً أخّاذاً مع إيصالهما المعنى المراد بأبهى صورة حتّى كأنّه يقرع النفوس فيثيرا العاطفة ويستفزّا الإحساس ـ وهذا ما أشار إليه السيّد السبزواري في تفسيره[٤] ـ سواء أنّهما مختلفان كما يرى عبد القاهر أو أنّ المراد منهما واحداً كما يرى ابن الأثير[٥].

---

[١] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

[٢] البقرة: الآية / ١٨٦.

[٣] مواهب الرحمن: ٣ / ٥٨.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٧ / ٣٠٧.

[٥] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ١٩٨، وينظر: المثل السائر: ٢ / ١١٦.

المبحث الثالث
«الاستعارة»

باب من أبواب البلاغة وأحد فنونها، أشار إليها علماء العربية في كتبهم، ثمّ عدّوها قسماً من أقسام علم البيان، ويظهر جمالها في أنّها «تصور المعنى تصويراً يحقق غرض القائل، مع مبالغة مقبولة، وتأثير في نفس السامع، وإثارة لخياله دون إطالة أو إطناب»[١].

والاستعارة في اللغة: مأخوذة من العارية: أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتّى تصبح الشيء وأعاره منه وعاوره إيّاه، والمعاوره التعاور شبه المداولة والتداول يكون بين اثنين، واستعارة الشيء واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إيّاه[٢]، وورد في موضع آخر من لسان العرب أنّ: «كلّ ما جاء في القرآن والحديث من إضافة اليد والأيدي واليمين وغير ذلك الجوارح إلى الله (عزّ وجلّ) فإنّما هو على سبيل المجاز والاستعارة، والله منزّه عن التشبيه والتجسيم»[٣]، وذهب الباحث سالم إبراهيم أحمد إلى أنّ أبا عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) كان من أقدم من ذكروا الاستعارة، فقد ذكر أنّه قال: «كانت يدي في يد الفرزدق فأنشدته قول ذي الرمة:

---

[١] أساليب البيان في القرآن: ٦٦.

[٢] ينظر: لسان العرب، مادة (عور): ٩ / ٤٧١.

[٣] المصدر نفسه: مادة (يمن): ١٥ / ٤٥٨.

أقامت به حتّى ذوى العود في الثرى		وساق الثريا في ملاءته الفجر[١]

قال: فقال لي: أأرشدك أم أدعك؟ قلت: بل أرشدني: فقال: إنّ العود لا يذوي أو يجف الثرى، وإنّما الشعر: (حتّى ذوى العود والثرى)، ثمّ قال أبو عمرو: ولا أعلم قولا أحسن من قوله: (وساق الثريّا في ملاءته الفجر) فصيّر للفجر ملاءة ولا ملاءة له وإنّما استعار هذه اللفظة وهو من عجيب الاستعارات»[٢]، ويعد الجاحظ أول من عرّف الاستعارة بقوله: «تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[٣]، وذهب ابن قتيبة إلى تعريفها بقوله: «العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى ومجاوراً لها أو مشاكلاً»[٤].

ويرى ثعلب (ت: ٢٩١ هـ) أنّ الاستعارة هي: «أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه كقول أمرئ القيس في صفة الليل، فاستعار وصف الجمل:

فقلت لها لما تمطّى بصلبه		وأردف أعجازا وناء بكلكلِ[٥]»[٦]

وحدّها ابن المعتز بقوله: «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بهاء»[٧]، ومن ثمّ حدّها القاضي الجرجاني (ت: ٣٦٦ هـ)، ويكاد يكون حدّه لها أكثر دقة وأشمل لخصائص الاستعارة الفنية من الذين سبقوه، يقول:

---

[١] البيت من الطويل لذي الرمه: ينظر: ديوانه: ٢٠٧.

[٢] ينظر: المصطلح البلاغي عند أبي الأصبع المصري، سالم إبراهيم الأحمد: ١٨٩.

[٣] البيان والتبيين: ١ / ١٥٣.

[٤] تأويل مشكل القرآن: ١٠٢.

[٥] البيت من الطويل لامرئ القيس، ينظر: ديوانه: ١٨.

[٦] قواعد الشعر، ثعلب: ٤٧.

[٧] كتاب البديع: ٢.

«الاستعارة ما أكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتّى لا يوجد بينهما مناظرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر»[١]، وقال الرمّاني في تعريفها: «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[٢]، ومن ثمّ كشف أبو هلال العسكري بتعريفه للاستعارة عن أبعاد جديدة وواسعة شملها تعريفه لها مبيناً الغرض منها، ولولاه لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً، يقول: «نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض أما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أنّ الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً»[٣].

ويرى عبد القاهر الجرجاني في الاستعارة: «أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدلّ الشواهد على أنّه اختصت به حين وضع، ثمّ يستعمله الشاعر وغير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية»[٤].

---

[١] الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤١.

[٢] النكت في أعجاز القرآن: ٧٩.

[٣] كتاب الصناعتين: ٢٦٨.

[٤] أسرار البلاغة: ١ / ١٢٣.

ثمّ يحدّها في كتابه دلائل الإعجاز معتمداً في توضيحها على أركان التشبيه، فيقول: «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[١].

وقد تعقّب السكاكي أثر عبد القاهر في حدّه الاستعارة، إذ قال: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»[٢]، واقتفى ابن الأثير خطوات عبد القاهر أيضاً في حدّه الاستعارة، قال: «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء وإظهاره وتجيء على اسم المشبه به وتجريه عليه»[٣].

وسار على خطاهم كلّ من ابن أبي الإصبع المصري[٤] (ت: ٦٥٤ هـ) وابن الناظم[٥] والخطيب القزويني[٦] في تعريف الاستعارة، والإشارة إلى معانيها.

وصاحب المواهب عند تفسيره الآيات المشتملة على الاستعارة، لم يخرج فيما أشار إليه عمّا ذكره العلماء قبله في معنى الاستعارة وفضلها في شرح المعنى والإبانة عنه والتوسع فيه أو إفادتها التوكيد والمبالغة، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[٧] أوضح أنّ المراد ليس القرض الاصطلاحي الذي يؤخذ لرفع

---

[١] دلائل الإعجاز: ٥٣..

[٢] مفتاح العلوم: ٥٩٩.

[٣] الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير: ٨٢.

[٤] ينظر: بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري: ١٩.

[٥] ينظر: المصباح: ١٦.

[٦] ينظر: الايضاح: ٢٧٨.

[٧] المائدة: الآية / ١٢.

الحاجة بل ما يقدم الإنسان من خير لنفسه أو لمجتمعه، ويؤكد ذلك بقوله: «الجملة في غاية الفصاحة والبلاغة، فهو استعارة عن وعده الجميل، وجزائه العظيم بذكر القرض الذي يقضي بمثله، وإنّما ذكره عزّ وجلّ في المقام وأخذ عليه الميثاق لأهميته في ترويض النفوس وشدّ الأزر والتعاون بين أفراد المجتمع وسدّ الحاجة، ولأنّهم عرفوا بالشح والبخل فأراد سبحانه وتعالى تطهيرهم منها»[١].

وترى صاحب المواهب بعد أن يذكر أصل لفظة (بشّر) حين الوضع، يبيّن إفادتها الاستعارة في القرآن الكريم لغرض التهكم، ثمّ يؤكد أنّ هذه اللفظة في أصل الوضع تستعمل لما هو سار ولما هو سيء، فيكون استعمالها حقيقياً، وذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٢]، قال: «البشارة مأخوذة من البشرة، أي: انبساط بشرة الوجه وطلاقته إذا أخبر الإنسان بما يسرّ، كما أنّ السرور مأخوذة من انبساط أساريره، وغالب استعمالها في الأخبار بما يسرّ، وقد يستعملان في غيره تهكماً كما في المقام، ففي الكلام استعارة تهكمية استعملت فيها (بشر) موضع (إنذار) تهكماً بهم وقيل: أنّ البشارة تستعمل فيما يسر ويسوء استعمالاً حقيقياً، فلا استعارة حينئذ لأنّ أصلها الأخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه، سواء كان انبساطاً أو انقباضاً»[٣].

وقد أشار إلى المعنى الأخير، أي: استعمالها فيما يسر ويسوء السيوطي بقوله: «أصل البشارة: الخبر السار الذي يظهر به السرور في بشرة الوجه ثمّ يستعمل في

---

[١] مواهب الرحمن: ١١ / ٧٦.

[٢] النساء: الآية / ١٣٨.

[٣] مواهب الرحمن: ١٠ / ٣٨.

الخبر الذي يغم أيضا»[١]، أمّا معنى التهكم المستفاد من الاستعارة فقد ذكره العلوي بقوله: «إنّ في الاستعارة ما يكون معدوداً في التهكم، وحاصل الاستعارة التهكمية أن تستعمل الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها الذم والإهانة تهكماً بالمخاطب وإنزالاً لقدره»[٢].

ويرى السيّد السبزواري في مكان آخر أنّ: «استعمال هذه المادة بحسب واقعها في كلّ من الأخبار بموجب السرور والغم من دون مجاز واستعارة، نعم إذا أطلقت اختصت بما يوجب السرور، والكلام الفصيح ما كان متكفلاً لجهات شتّى ونواح مختلفة من الدلالة والإفادة فيكون كالبحر الذي فيضه عميم وأمواجه لا تستقيم، ويتضمن الكلام الاستعارة التي تشمل على الحسن والبلاغة كما لا يخفى»[٣]، وقد ذكر ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٤]، فرأيه واحدٌ في الموضعين مع التأكيد على التوسع في المعنى اللذي ينشأ من الاستعارة والفائدة التي تحصل من ذلك.

ويرى المفسّر أيضاً أنّ في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٥]، استعارة تهكمية وهي تأتي من ذكر اللفظ وإرادة ضده، يقول: «إن (قد) في قوله تعالى للتقليل، وقد يراد به في بعض المواضع ضدّه، وهو من باب استعارة أحد الضدين للآخر،

---

[١] مجمع البيان: ٣ / ٢٥٠.

[٢] الطراز: ١١٨.

[٣] مواهب الرحمن: ٥ / ١٨٧.

[٤] آل عمران: الآية / ٢١.

[٥] الأنعام: الآية / ٣٣.

والنكتة هنا أمّا تصبير رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من أذى قومه وتكذيبهم أو أن يكون تهكماً بالمكذبين وتوبيخاً لهم»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٢]، يعتقد أنّ في إسناد الربح إلى التجارة من الاستعارة والمجاز، لأنّ الربح والخسارة إنّما يكون إسناده إلى المتاجر وليس إلى التجارة نفسها، يقول: «في الآية المباركة نحو استعارة ومجاز لإسناد الربح إلى التجارة ومنه يعلم وجه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فتصح نسبته إلى تجارتهم الخاسرة أو إلى جميع شؤونهم التي منها تجارتهم»[٣]، ونرى أنّه يعد الاستعارة من المجاز وهو موافق لما ذكره السيوطي، قال: «الأصح أنّها مجاز لغوي، لأنّها موضوعة للمشبه به لا للمشبه، ولا لأعم منهما»[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ﴾[٥]، يرى أنّ الرحم استعير للقرابة، وهو استعارة الحسّي للعقلي، فإنّ الرحم أمر مادي والقرابة أمر عقلي فاستعير المحسوس للتعبير عن المعقول، قال: «الرحم في الحيوان هو العضو الذي يتكون فيه الجنين إلى حين الولادة ومحل تربية الطفل واستعير للقرابة باعتبار انتهاء أفرادها إلى رحم واحد»[٦].

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٤٤.

[٢] البقرة: الآية ١٦٧.

[٣] مواهب الرحمن: ١ / ١٣٥.

[٤] الاتقان: ٣ / ١١٢.

[٥] آل عمران: الآية ٦.

[٦] مواهب الرحمن: ٥ / ١٧.

والسيّد السبزواري في بيانه الاستعارات يتفق مع رأي العسكري الذي يرى أنّ الاستعارة: «نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض»[١]، إذ جعل الحذر آلة من آلات الدفاع في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[٢]، من الاستعارة اللطيفة أي وجوب اتخاذ الحذر من الكافرين الذين هم أعداء الله تعالى ودين الحق يقول: «الحذر وهو التيقظ وجعل الحذر آلة الدفاع التي يتحصن بها كالأسلحة وهو من الاستعارة اللطيفة حيث أثبت له الأخذ وهو أمر معنوي لا يتصف به تخييلاً وزاده عزّ وجلّ في المقام لشدّة الحيطة والتحرس، لأنّ العدو قد يميل إذا ما تنبّه أنّ المسلمين في الصلاة بعد غفلته في ابتداء الأمر عنهم، فينتهزون الفرصة وهم في حال الركوع والسجود فيهجمون عليهم»[٣].

أمّا قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[٤]، فبيّن أنّ الغرض من الاستعارة للتنبيه والترغيب على ما تمثله الحياة الزوجية بالنسبة إلى المجتمع إذ يقول: «في الكلام من اللطف والحسن ما لا يخفى، وفيه من الاستعارة لأعظم أمر اجتماعي، وهي الحياة الزوجية، كما أنّ فيه من الترغيب إلى حسن المعاشرة والملاحظة والاعتناء بالحياة الزوجية، كما يعتني الإنسان بلباسه وثيابه، فيصحّ التعبير عن الزوجة بلباس الزوج»[٥]، والسيّد السبزواري يوافق علماء البلاغة اعتماد

---

[١] كتاب الصناعتين: ٢٦٨.

[٢] النساء: الآية / ١٠٢.

[٣] مواهب الرحمن: ٩ / ٢٢٧.

[٤] البقرة: الآية / ١٨٧.

[٥] مواهب الرحمن: ٣ / ٩١.

القرينة وجعلها السبب الرابط أو الدليل الواضح بين أصل اللفظ واستعارته[١]، وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾[٢]، يقول: «المراد من إرسال السماء هو إنزال المطر، بقرينة كلمة (مدراراً) التي تدل على الغزارة وكثرة الصب، من الدر ـ بالفتح ـ والدرة ـ بالكسر ـ أي اللبن، أي كثُر وغُزُر، ويستعار للبن نفسه، ومنه: الله درّه، ودرّ درّك، كما استعير للمطر أيضاً»[٣].

إنّ المفسر في أغلب المواضع يبدأ بذكر المعنى اللغوي ثمّ يشير إلى استعارة اللفظ إلى معنى آخر أفاده، كما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾[٤]، قال: «العقدة من العقد بمعنى الشدّ وهما والعهد بمعنى واحد، وفي الآية استعارة بليغة حيّث شبه عقد النكاح بالعقدة التي يعقد بها أحد الحبلين بالآخر، وجعلها أمراً قلبياً لبيان أنّ هذه الأمور من الاعتبارات العقلائية التي يقوم عليها نظام المجتمع»[٥]، وهو من تشبيه الحسي بالعقلي، ويرى عبد القاهر بأنّه الصميم الخالص من الاستعارة ومنه أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس للمعاني المعقولة[٦]، ومثله جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[٧]، فيرى إنّما عبّر سبحانه

---

[١] ينظر: التلخيص في علوم البلاغة / ٧٤، وينظر: الطراز / ١٠٢.

[٢] الأنعام: الآية / ٦.

[٣] مواهب الرحمن: ١٣ / ٥٤.

[٤] البقرة: الآية / ٢٣٥.

[٥] مواهب الرحمن: ٤ / ٧٤.

[٦] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧.

[٧] آل عمران: الآية / ٥٢.

وتعالى: «بأحس مع أنّ الكفر من الأمور المعنوية لبيان أنّ كفرهم بلغ مبلغاً حتّى تعلقت به الحواس الظاهرة فيكون استعارة بليغة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[١]».

وفي نص قرآني آخر، يصفه المفسّر أنّ فيه استعارة بليغة، فجعل الأكنة على القلوب والوقر على الإذن بسبب اعتقادهم الفاسد، وهو ليس من المادة أو الحس، فهو تصوير لسلب التوفيق عنهم نتيجة لإيغالهم بالباطل وابتعادهم عن الحق، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[٢]، يقول: «إنّ الجعل في المقام هو حاصل من اعتقاداتهم الفاسدة وأعمالهم الشنيعة ممّا أدخلوا أنفسهم في غياهب الظلمات وصبّروا قلوبهم في حجب كثيرة متعددة، كالعصبية الشنيعة والاستكبار على الحق والتقليد الأعمى وغير ذلك، وهي لم تكن مادية حسّية، فإذا استولت على القلب منعته من الفهم والتبصر والبحث على الحقيقة، كما أنّهم جعلوا على الإذن ذلك الثقل الشديد فأصمّه عن سماع الحق ليمكنه التمييز بين الحق والباطل، فتغلبه الحمية للباطل والكبر على الحق، وتنشأ قلوبهم على ذلك، ولذلك سلب الله تعالى عنهم التوفيق فكان الجعل منسوباً إليه عزّ وجلّ بهذا المعنى، وفي الآية استعارة بليغة»[٣].

ومن الاستعارات البليغة التي تنبّه إليها صاحب المواهب في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[٤]، يرى أنّ فيه دلالة على أنّهم لم يستفيدوا من الآيات

---

[١] الانبياء: الآية / ١٢.

[٢] الأنعام: الآية / ٢٥.

[٣] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٧٧.

[٤] الأنعام: الآية / ٣٩.

الإلهية، فكانوا صمّاً وبكماً لا يسمعون نداء الفطرة وداعي العقل، يقول: «في قوله تعالى من الاستعارة البليغة الدالة على عدم الانتفاع اللائق بكمال الإنسان»[١].

وفي بعض إشاراته إلى الاستعارة نرى أنّه يتبنّى ما ذكره عبد القاهر من أنّ الاستعارة في الجملة هو كون لفظ الأصل حين الوضع اللغوي معروفاً، وتدل على اختصاصه به الشواهد ثمّ يستعمل في غير ذلك الأصل وينقل إليه نقل غير لازم فيكون هناك كالعارية[٢]، وهو يذكر المعنى نفسه عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٣]، إذ قال: «الاجتناب أبلغ من الترك لأنّه ملحوظ فيه النفور والاشمئزاز وهو مأخوذ من الجنب الذي هو الجارحة، وإنّما بُني عنه الفعل على سبيل الاستعارة، فإنّ الإنسان إذا أعرض عن شيء تركه جانباً»[٤]، يرى أنّ الاجتناب استعير من الجنب الجارحة للمبالغة في الترك وسبب الاستعارة أنّ الإنسان إذا أدار وجهه عن شيء جعله بجانبه دليلاً على الترك والزهد فيه، ويؤكد المعنى نفسه عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾[٥]، إذ يرى أنّ: «مادة (جنح) تأتي بمعنى الإثم المائل عن الحق، واستعير لفظ الجناح لكل إثم ومعنى (لا جناح عليكم): لا إثم عليكم»[٦].

---

[١] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٩٢.

[٢] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ١٢٣.

[٣] النساء: الآية / ٣١.

[٤] مواهب الرحمن: ٨ / ١٣١.

[٥] البقرة: الآية / ٢٣٥.

[٦] مواهب الرحمن: ٤ / ٧١.

ويشير السيّد السبزواري عند تفسيره النصوص القرآنية إلى الاستعارة التمثيلية، وهو لا يخرج في إيضاحها عن معناها الذي أشار إليه علماء البلاغة، ومنهم عبد القادر الجرجاني بقوله: «إنّ الشبه إذا كان موجوداً في الشيء على الانفراد من غير أن يكون نتيجة بينه وبين شيء آخر فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه، وإذا لم يكن نسبة الشيء إلى الشيء على الانفراد وكان مركّباً من حالة مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل»[١] وهو يشير بذلك إلى الفرق بين الاستعارة والاستعارة التمثيلية، فإذا جاء المجاز في الكلمة المفردة التي تدلّ على معنى واحد فهو استعارة، وإذا جاء في التركيب الذي يتألف من جملة أو أكثر، ويعبر عن فكرة أو موقف، فهو استعارة تمثيلية[٢].

ومن المواضع التي ذكر السيّد السبزواري إنّها تتضمن الاستعارة التمثيلية قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٣]، قال: «إنّ في الكلام استعارة تمثيلية بأن شبّه التمسك بالحبل المتدلي من مكان رفيع وثيق مأمون الانقطاع الذي يمنع المتمسك به في السقوط والهلكة»[٤]، وهي صورة مركبة لا يمكن أن تكون إلا استعارة تمثيلية.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً﴾[٥]، يرى استعارة بليغة وهي تمثيلية، والمراد منها المبالغة في كثرة العدد، قال: «معناه لو قدر أن

---

[١] أسرار البلاغة: ٢ / ١٣٣.

[٢] ينظر: التعبير البياني، د. شفيع السيّد / ١٢٦.

[٣] آل عمران: الآية / ١٠٣.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ٢٠٤.

[٥] آل عمران: الآية / ٩١.

تكون لكلمات الحمد أجساماً لبلغت كثرتها أن تملأ السماوات والأرض، فالمراد التمثيل لكثرة العدد وقد شبّه عزّ وجلّ الأرض بالإناء الذي يملأه الذهب فتضمن الكلام استعارة بليغة»[١].

وفي نص قرآني آخر يعتقد المفسّر أنّ الاستعارة التمثيلية ناشئة من تصور عدم تقبّل الله من الكافرين ما يقدموه فدية لأجل إنقاذهم من العذاب الذي استحقوه بسبب أعمالهم ولا سبيل لخلاصهم منه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]، قال: «إنّ الجملة (مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ) تتضمن التمثيل، ويقصد منها تنزيل التقصي عن العذاب منزلة من يكون له ذلك الأمر العظيم ويحاول التخلص من العذاب فلا يتقبل منه، وقال بعضهم إنّه لا يراد منها الاستعارة التمثيلية، بل إيراد مثال وحكم يفهم منه لزوم العذاب لهم»[٣]، يبيّن ما سبق أنّ صاحب المواهب قد توسع في حديثه عن الاستعارة، وفي الإشارة أيضاً إلى أشكالها وأهميتها، رغم أنّ مضمارها واسع وتنوع أشكالها لا متناهياً، وليس هناك تعارض بين الصورة والمدلول فيها، مع تقدم الصورة فيها على المدلول في الأهمية[٤] فهي لذلك باب من أبواب البلاغة المعروفة، وتمتاز في بلاغتها في إيصال المعنى بأسلوب مؤثر، وقد ألمح المفسّر إلى ذلك، وكشف عن سماتها

---

[١] مواهب الرحمن: ٦ / ١٣٦.

[٢] المائدة: الآية / ٣٦.

[٣] مواهب الرحمن: ١١ / ٢٥٠.

[٤] الفن الرمزي، هيجل: ١٥٢.

الأسلوبية والجمالية ممّا يجعلها في المقدمة من الفنون البلاغية التي تمتاز بها الجملة القرآنية.

فما تحقق من التعبير بالاستعارة لا يمكن إيصاله باستعمال الألفاظ ضمن واقعها اللغوي، وقد كشفت الأمثلة السابقة أنّها تتحرك ضمن مستوى آخر من اللغة، في عملية إبداع جديدة بسبب النقل الذي دل على معنى آخر.

المبحث الرابع
«الكناية والتعريض»

الكناية

الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وأسلوب من أساليب البيان، تزيد المعنى قوةً وجمالاً، ولها أهدافها ومقاصدها الخاصة التي تتميز بها عن باقي أساليب البيان.

والكناية في اللغة أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنّى عن الأمر بغيره يكنّي كناية، يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه نحو الرفث والغائط، وتكنّى: تستّر من كنّى عنه إذا وُري، أو من الكنية[١].

ومن تعريف البلاغيين للكناية نجدهم لا يخرجون عمّا ذكره اللغويون من معنى لها ونجد أنّ أبا عبيدة من الأوائل الذين أشاروا إليها، وعدّها من الفنون البلاغية، قال ذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[٢]، فقال أنّ: «الكناية كلّ ما يفهم من الكلام ومن السياق من غير أن يذكر اسمه صريحاً في العبارة»[٣]، وذكرها الجاحظ ولم يفرق بينها وبين التعريض بقوله: «الحدّة كناية عن الجهل والعارضة عن البذاء، وإذا قالوا فلان مقتصد، فتلك كناية عن البخل

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (كنى) / ١٢ / ١٧٤.

[٢] البقرة: الآية / ٢٢٣.

[٣] مجاز القرآن: ١ / ١٥٥.

وإذا قالوا للعامل مستقص فتلك كناية عن الجور»[١]، فلم يعطِ الجاحظ تعريفاً للكناية وإنّما اكتفى بعدها أحد الأساليب البلاغية، ويرى محمد بن يزيد المبرد أنّ الكناية تقع على ثلاث أضرب: أحدها التعمية والتغطية، وثانيها: الرغبة عن الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، وثالثها: التفخيم والتعظيم، ومنه اشتقت الكنية[٢].

أشار المبرد إلى أهداف الكناية ومميزاتها ولم يحدّها، وجعلها ابن المعتز من محاسن الكلام ولم يفرّق بينها وبين التعريض واكتفى بضرب الأمثلة عليها فقط[٣].

وتابع أبو هلال العسكري ابن المعتز في خلطه بين الكناية والتعريض، قال: «الكناية والتعريض أن يكنّى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء»[٤]، وذكر ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦ هـ) الكناية ولم يضع لها حدّاً، وإنّما تكلم عن حسنها، فقال: «حسن الكناية عمّا يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة[٥].

ونجد أنّ عبد القاهر قد وضع حدّاً اصطلاحياً للكناية أوضح وأدق من الذين سبقوه بقوله: «إن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ

---

[١] البيان والتبيين: ١ / ٢٦٣.

[٢] ينظر: الكامل / ٢ / ٦٧٤.

[٣] ينظر: البديع / ٦٤.

[٤] كتاب الصناعتين: ٣٦٨.

[٥] سر الفصاحة: لأبي عبد الله محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ): ١٥٥.

به إليه، ويجعله دليلاً عليه»[١]، ولم يزد العلماء الذين جاؤوا بعده على تعريفه شيئاً، وإنّما كان المادة الأساسية لحديثهم عن الكناية[٢].

ويرى السيّد السبزواري أنّ: «الكنايات من أهم شؤون الفصاحة والبلاغة»[٣]، ويعدّ الكناية أبلغ من التصريح والقرآن العظيم مشتمل على أنحاء الكنايات والاستعارات والتشبيهات البليغة[٤]، وهي عنده من المحكمات لا المتشابهات إذا دلّت قرينة على ذلك، وهو يستدل تارة بالحديث الشريف لإثبات وجود الكناية في القرآن الكريم، فيقول أنّ القرآن مشتمل: «على الكنايات ويعد ذلك من أدب القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صدّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلان الطَّعَامَ﴾[٥]، فإنّه كناية عن البراز، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[٦]، فإنّه كناية عن الجماع، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، فهي لا تكون من المتشابهات بل إنّها من المحكمات، فإنّ لها ظهوراً عرفياً ولو بالقرينة في المعنى المراد»[٧]، ثمّ يعتمد على علم الأصول والأحاديث الشريفة لإثبات أنّ الكناية من المحكمات قال: «وقد أثبتنا في علم الأصول أنّ المدار في المحاورات على الظهورات

---

[١] دلائل الاعجاز: ٥٣.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٦٣٧، وينظر: المثل السائر: ٢ / ٩٤، وينظر: الطراز: ١٧٦.

[٣] مواهب الرحمن: ٥ / ٨٧.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ٨٣، ٣ / ٢٥٨، ٤ / ٧١، ١٣ / ٣٧٧.

[٥] المائدة: الآية / ٧٥.

[٦] البقرة: الآية: ٢٣٧.

[٧] مواهب الرحمن: ٥ / ٨٧.

العرفية ولو كانت مجازية، وكذا ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ القرآن: (نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة)[١] وأمّا اللطائف والإشارات والدقائق فإنّها كانت منساقة من ظاهر اللفظ بحسب المحاورة تكون من المحكمات وإلا فهي من المتشابهات»[٢]، وقد تكون الكناية للتنبيه على عظم القدرة[٣]، وذكر ذلك السيّد السبزواري عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٤]، قال: «إن جملة (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) كناية عن كمال القدرة وغاية القيومية المطلقة على خلقه، كما استعملت هذه الصيغة في موارد أخرى في ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[٥]، أي خلقت بقدرتي التامة الكاملة»[٦] أي أنّ الله القدرة والإرادة التامّة في خلقه وهو القيوم عليهم، هذا ما يراه صاحب المواهب من سبب للكناية في الآية الكريمة، وأشار إليه كذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٧]، إذ إنّه يعتمد على السنّة الشريفة في توجيه بعض دلالات ألفاظ القرآن الكريم، كما في كلمة (يد) في قوله تعالى، قال: «كلمة (يد) تسعمل في الجارحة الخاصة، ويصحّ

---

[١] أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري، ينظر: مجمع الامثال: ١ / ٤٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٥ / ٨٨.

[٣] ينظر: البرهان: ٢ / ٣١٤.

[٤] المائدة: الآية / ٦٤.

[٥] ص: الآية / ٧٥.

[٦] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

[٧] البقرة: الآية / ١٩٥.

أن يكنّى بها عن ذات النفس وعن كلّ ما يحصل بها الاختيار، ونسب إلى نبينا الأعظم (صلّى الله عليه وآله): (على اليد ما أخذت حتّى تؤدي)[١] الشامل لجميع الضمانات الحاصلة ولو بغير اليد وتصح الكناية هنا عن مطلق الاقتدار، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾[٢]، ففي الحديث عن نبينا (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال في المسلمين: (هم يد واحدة على من سواهم) [٣»[٤]، فاعتمد على السنّة الشريفة في توجيه ما تدل عليه كلمة (يد) سواء كنّي بها عن ذات النفس أو عن مطلق الاقتدار، وقد تكون الكناية لأجل ترك اللفظ إلى ما هو أجمل[٥]، وذكر ذلك صاحب المواهب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٦]، يرى أنّ: «الكلمة في المقام كناية عن الاجتماع والاتحاد في العمل بمقتضى مدلول الكلمة ومعناها والإذعان بها ونظير ذلك شايع في الألسنة، يقال: اتفقت كلمة القوم على كذا، أي: اتحدوا واجتمعوا على أمر، وفي الآية المباركة روعة الأسلوب، وتتضمن من النكات البلاغية ولطائف العنايات ما لا يخفى»[٧]، إنّ الكناية عن الاجتماع بالكلمة وما تضمنته من إشارات غاية في الروعة لا تتحقق إلا باستعمال هذا اللفظ، كلّ ذلك

---

[١] ينظر: مستدرك الوسائل: المحدّث النوري: ١٤ / ٨

[٢] الذاريات / الآية / ٤٧.

[٣] ينظر: الكافي، ثقة الاسلام الكليني: ١ / ٤٠٣.

[٤] مواهب الرحمن: ٣ / ١٤٨.

[٥] ينظر: الاتقان: ٣ / ١٢٠.

[٦] آل عمران: الآية / ٦٤.

[٧] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٣، ٣٥.

حقق المراد من الآية الكريمة، لأنّ الاجتماع على كلمة (لا اله إلا الله) يزيل الشرك بكلّ أنواعه، وأشار إلى الكناية لنفس الغاية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[١] قال: «الإخراج من الديار يوجب ذهاب الاستقلال والوهن في العزيمة والمنع عن التمتع بملاذ الدنيا فقد كنّى سبحانه وتعالى عن جميع ذلك بالإخراج»[٢]، فقد كنّى سبحانه وتعالى بالبعد عن الأهل والوطن والأولاد وما يتبع ذلك من فقدان الاستقلال والحرية بالإخراج، فترك هذه المعاني كلّها وكنّى عنها بلفظ واحد أبلغ وأجمل منها، وقد تكون الكناية لئلا يكون التصريح بما يستقبح ذكره، ككناية الله سبحانه وتعالى عن الجماع بالملامسة والمباشرة والإفضاء والرفث والدخول[٣]، ويعدها صاحب المواهب من أحسن الكنايات عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[٤]، قال: «الإفضاء يكنّى به في النكاح عن الجماع غالباً، والإفضاء من الكلمات التي تستعمل في الحياة الزوجية، لأنّها تشتمل على الارتباط والتمتع ورفع ورفع الحشمة، وهي من أحسن الكنايات في هذا المجال»[٥]، ونظيره ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٦]، حيث أكد أنّ الكناية أسلوب أدبي رفيع، وهو من الأدب

---

[١] البقرة: الآية / ٢٤٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ١٣٧.

[٣] ينظر: الاتقان: ٣ / ١٢٠.

[٤] النساء / الآية / ٢١.

[٥] مواهب الرحمن: ٧ / ٤٠٣.

[٦] المائدة: الآية / ٦.

القرآني إذ تحجز الألفاظ المستقبح ذكرها، وهذا من دواعي استعمالها في السياق القرآني، وقد أشار إلى ذلك العلوي في الطراز[١]، وقال صاحب المواهب: (الآية الشريفة في غاية الأدب ومنتهى الفصاحة، حيث كنّي فيها عمّا يستقبح ذكره بأسلوب أدبي رفيع، وبولغ في الإفهام من دون الإضافة التي شوب التعيين رعاية لجانب الأدب، والغائط: المكان المنخفض في الأرض، وقد كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس وتأدباً، وقيل: إنّه المطمئن من الأرض، وقيل عمق الأرض الأبعد، وكيف كان، فسمّي الحال باسم المحل حتّى غلب استعماله في معناه المعروف، وهو النجو نفسه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية عن الجماع، وهو أيضا أدب قرآني، صوناً للسان عمّا يستقبح ذكره»[٢]، وأشار إلى نفس السبب لاستعمال القرآن للكناية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[٣] قال: «المراد من القرب: خصوص الوطي، وهو في مقابل البعد، لأنّ من أدب القرآن الكريم الكناية عمّا يستقبح ذكره بألفاظ أخرى حسنة، كقوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[٤]»[٥]، هناك مواضع أخرى ذكرها صاحب المواهب وجّه فيها سبب استعمال الكناية لما يقتضيه الأدب القرآني، كما هو دأبه في استعمال الألفاظ الكنائية عمّا يستقبح من الوطي والجماع

---

[١] ينظر: الطراز: ٢٠٢.

[٢] مواهب الرحمن: ١١ / ٢٦.

[٣] البقرة: الآية / ٢٢٢.

[٤] البقرة: الآية / ١٨٧.

[٥] مواهب الرحمن: ٣ / ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

كالمباشرة، واللمس، والدخول، والغائط ونحو ذلك[١].

وتكون الكناية لأجل المبالغة[٢]، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾[٣] يرى السيّد السبزواري أنّ في جملة: ﴿إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ معنىً مجازياً، قال: «يراد منه الكناية عن شدة الإلحاح في التقاضي والوفاء، فإنّ قيام المطالب على رأس المديون، وملازمته له فيه المبالغة في الاقتضاء والمطالبة»[٤]، أي: إنّه لا يؤدي الأمانة التي ائتمنه إيّاها إلا إذا ألجأته إلى ذلك بدوام المطالبة على وجه المبالغة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[٥]، يعتقد صاحب المواهب أنّ الاشراب كناية عن شدة حبهم، قال: «الاشراب المخالطة والامتزاج وهو كناية عن انهماكهم في حب العجل حتّى كأنّه خالط قلوبهم كما يخالط الصبغ الثوب، أو كما يدخل المشروب في بدن الإنسان أي أنّهم بسبب كفرهم قد انهمكوا في حب العجل، وذلك لأنّ كثرة ملازمة الشيء ومحبته توجب الصيرورة في القلب والإرادة مظهراً من مظاهره»[٦] ويرى أنّ الكناية قد تأتي ويستفاد منها المبالغة في التحذير، كما جاء عند تفسيره قوله

---

[١] ينظر مواهب الرحمن: ٣ / ٩٠، ٤ / ٣٣، ٤ / ٨١، ٥ / ٣٠٧، ٥ / ٣٥٠، ٨ / ٢٥٧.

[٢] ينظر البرهان / ٢ / ٣٢١.

[٣] آل عمران: الآية / ٧٥.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ٧٤.

[٥] البقرة: الآية / ٩٣.

[٦] مواهب الرحمن: ١ / ٤٦٤.

تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾[١]، قال: «حدود الله شرايعه وأحكامه المحرمة التي قرنها بالعقوبة، والنهي عن الاقتراب إليها كناية عن مخالفتها، عبّر عنها بالاقتراب لشدة الحيطة ومبالغة في التحذير فإنّ من قرب من شيء أوشك أن يتعداه»[٢] وأشار السيّد السبزواري إلى نصوص قرآنية أخرى أفادت فيها الكناية معنى الكثرة والمبالغة[٣].

وقد تستعمل الكناية لقصد البلاغة[٤]، وقد «أطبق البلغاء وأجمعوا على أنّ المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، وذلك لأنّ الانتقال في المجاز والكناية انتقال من الملزوم إلى اللازم»[٥]، وترى السيّد السبزواري أشار إلى ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٦]، قال إنّ في الآية الكريمة: «بيان لبطلان عبادة المشركين لمن يدعونه من دون الله سبحانه بنوع من الكناية البليغة التي هي أبلغ من التصريح»[٧] ويؤكد المعنى نفسه، أي: قصد البلاغة لأنّها أبلغ من التصريح عند عروجه في التفسير على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٨]، قال: «التعبير بالزلة ـ وهي ما يصدر

---

[١] البقرة: الآية / ١٨٧.

[٢] مواهب الرحمن: ٣ / ٩٩.

[٣] ينظر: المصدر نفسه: ١٢ / ٢٣٢، ١٢ / ٣٩٠، ٤ / ٣٧٢، ١٣ / ٣٤٢.

[٤] ينظر: البرهان / ٢ / ٣٢١.

[٥] شرح التلخيص: ١٥٩.

[٦] الأنعام: الآية / ٥٦.

[٧] مواهب الرحمن: ١٣ / ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

[٨] البقرة: الآية / ٢٠٩.

من غير عمد والتفات ـ للإعلام بأنّ التعمد في التقصير بعد تمامية الحجة مفروض العدم، وفيها كناية عن أنّه لا ينبغي أن يصدر من العاقل ذلك، والكناية أبلغ من التصريح في المحاورات»[١].

ومن أسباب الكناية قصد الاختصار، كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ[٢]، وأوضح ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٣]، فيرى أنّ فيها: «كناية عن إتباعه حق الإتباع وعدم المفارقة عنه في وقت من الأوقات فيغتنم الشيطان ذلك فيردهم عن الملة الحنيفية ودين الإسلام فيموتوا غير مسلمين، وفي الكلام إيجاز بليغ»[٤]، ففيها اختصار وإيجاز وصفه بأنّه بليغ لأنّه أدّى المعنى المطلوب بأقلّ لفظ، ونرى نظيره ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[٥]، قال: «الجملة كناية عن خيبة آمالهم في الوسائل والروابط حينما يرون العذاب ويدركون أهواله فلا يمكن الاستفادة من تلك الأسباب التي عاشوا بها برهةً من الزمن فلا تجديهم نفعاً»[٦]، فالكناية في المثال الأخير عبّرت عن مشهد مربع بالنسبة للكافرين في يوم الحشر، حينما لا يجدون ما ينفعهم فقد عبّر الله سبحانه وتعالى بهذه الجملة روماً للاختصار ولتهويل ما هم عليه، وأشار السيّد السبزواري إلى نصوص قرآنية أخرى اشتملت

---

[١] مواهب الرحمن: ٣ / ٢٥٨.

[٢] ينظر: الاتقان: ٣ / ١٢١، وينظر: البرهان: ٢ / ٣٢٢.

[٣] البقرة: الآية / ١٣٢.

[٤] مواهب الرحمن: ٢ / ٧٢.

[٥] البقرة: الآية / ١٦٦.

[٦] مواهب الرحمن: ٢ / ٣١٨.

على الكناية[١]، وهذا يؤكد أنّ للبلاغة ومنها الكناية عناية خاصة من قبل صاحب المواهب، لأنّه يعتمد عليها كأحد أدوات المفسّر التي لا بدّ أن يركن إليها للوصول إلى المعاني الشريفة.

«التعريض»

إنّ كثيراً من البلاغيين قد قرن الكناية بالتعريض، ولم تبن في كلامهم معالم واضحة لكل منهما، حتّى ليبدوا من كلامهم أنّهما شيء واحد[٢]، وأبرزهم ابن المعتز[٣]، والجاحظ[٤]، وأبو هلال العسكري[٥]، وأكد ذلك العلوي بقوله: «إنّ كثيراً من علماء البيان لا يميزون بين التعريض والكناية في الماهية»[٦]، وقد فرّق بين المصطلحين ابن الأثير وحدّ التعريض بقوله: «هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا بالمجازي»[٧]، وذكره العلوي بأنّه: «اللفظ المدلول عليه باللفظ دون القرينة»[٨]، والسيّد السبزواري قد فرّق بين المصطلحين،

---

[١] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ٩٣، ٦ / ٢٩٣، ٦ / ٣٤١، ٨ / ٣٠، ٩ / ١٤٤، ٩ / ١٩١، ١١ / ١٤٥، ١٣ / ٣٥٠، ٤١/١٤، ١٤ / ٢٣٢، ١٤ / ٣٩٨، ١٤ / ٤٢١.

[٢] ينظر: علم البيان، بدوي طبانه: ٢٤٨.

[٣] ينظر: البديع: ٦٤.

[٤] ينظر: البديع: ٦٤.

[٥] ينظر: كتاب الصناعتين: ٣٦٨.

[٦] ينظر: الطراز: ١٥٢.

[٧] المثل السائر / ٢ / ١٩٨.

[٨] الطراز: ١٨٧.

وعد التعريض قسماً من الكناية، قال: «التعريض قسم من الكناية التي هي أبلغ من التصريح، ولكنّه خلافها فالكلام أمّا ظاهر في المعنى المقصود، أو صريح فيه، أو تعريض به، والجميع معتبر في المحاورات العرفية ويترتب الأثر عند المتعارف فقول: إنّي أريد أن أنكحك، صريح في المطلوب، وقول: إنّي أريد معاشرتك، ظاهر فيه، وقول: كم راغب فيك تعريض، ففي التعريض يكون المعنى المقصود غير ما عرّض به، كالمثال الأخير، وفي الكناية لا يقصد من اللفظ غير المكنّى عنه»[١]، فعنده التفريق بينهما يكون بالنظر إلى المعنى المقصود فإذا كان غير ما عرّض به فهو تعريض، وإن كان يقصد منه المكنّى عنه فهو كناية، وهو يتبع بذلك ما ذهب إليه العلوي عند تفريقه بين المصطلحين، قال: «إنّ الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض، فإنّ دلالته من جهة القرينة والإشارة»[٢]، والسيّد السبزواري عند تفسيره الآيات الشريفة ينبّه على التعريض إن اشتملت عليه الآية، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣]، يرى أنّ في الآية: «تعريض لهم بأنّهم على غير الحق وإنّ المسلمين لا يبالون بأباطيل غيرهم مهما كلّف الأمر»[٤].

ويصرّح بأنّ التعريض يفيد التنبيه والتوكيد، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى:

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٧١.

[٢] الطراز: ١٨٧.

[٣] آل عمران: الآية / ٦٤.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ٣٩.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]، يرى أنّ فيها: «التعريض بأنّهم مشركون فتكون الجملة تأكيداً، لما تضمنه الكلام السابق، كما أنّ فيه التنبيه على أنّ الحنفية المصطلحة بين الأوثان لم تكن مراده بل المراد هي أنّ الحنفية الحقّة التي جاء بها إبراهيم»[٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٣]، أشار إلى أنّ فيها تعريضاً بأنّهم ركنوا إلى الداني واعرضوا عن الخير الحقيقي[٤].

وللتعريض فوائد بليغة يستفاد منها ضمن سياق الكلام، وهو أبلغ من التصريح كما يؤكد المفسّر، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[٥]، رأى أنّ إدراج إبراهيم عليه السلام نفسه مع القوم الضالين: «فيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من التصريح، ومنه يظهر الوجه في رجائه للهداية الإلهية»[٦]، وتكشف الأمثلة السابقة أنّ مدلول التعريض خفي مستتر يهتدي إليه المتلقي من خلال ظرف القول ومناسبته وما يليهما من قرائن لا ينبض بها البناء اللغوي مباشرة[٧].

---

[١] آل عمران: الآية / ٦٧.

[٢] مواهب الرحمن: ٦ / ٤٣.

[٣] النساء: الآية / ٧٧.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٩ / ٥٠.

[٥] الأنعام: الآية / ٧٧.

[٦] مواهب الرحمن: ١٤ / ٣٥.

[٧] ينظر: بيان الصورة الفنية في البيان العربي / ٣٣١.

إنّ كلا الأسلوبين الكناية والتعريض من الأساليب البلاغية التي أشار إليهما علماء البلاغة والبيان قديماً وحديثاً وأشبعوهما بالدرس والتحليل، وإنّ صاحب المواهب لم يهمل هذين الفنين من فنون البلاغة ضمن تفسيره.

إنّما أشار إليهما في مواضعهما، وتعامل معهما تعاملاً جديداً بعدما أشار إلى الغاية من استعمالهما، وكان صادراً عن حسن بلاغي دقيق، مشعراً بأنه لا بدّ للمفسر أن يكون على دراية بعلم البلاغة وفتونها، لكي يكون جهده متميزاً قريباً من واقع القرآن الكريم.

الفَصْلُ الثَّالِث

مباحث علم البديع

علم البديع

وهو أحد علوم البلاغة العربية، يطلق على فنون البلاغة التي تحسّن الكلام، وتنطوي ألوانه في القرآن الكريم على مقاصد معنوية، مع ما يضفيه من جمال على الأسلوب.

والبديع في اللغة: المحدثُ العجيب، والبديع: المُبدَع، وأبدعتَ الشيء: اخترعته لا على مثال، والبديع والبدعُ: الشيء الذي يكون أولا، وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾[1]، أي: ما كنت أول من أرسل[2].

أمّا في الاصطلاح فقد عرّفه القزويني بقوله: «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة)[3].

وعند التماس بدايات هذا العلم، نجد أنّ الجاحظ أشار إليه بقوله: «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كلّ لغة، وأربت على كلّ لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشارة»[4]، وأشار إليه في موضع آخر، عند حديثه عن الخطباء الشعراء، قال: «كان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن

---

[1] الأحقاف: الآية / ٩.

[2] ينظر: لسان العرب: مادة (بدع): ١ / ٣٤٢.

[3] التلخليص: ٨٦

[4] البيان والتبيين: ٤ / ٥٥ ـ ٥٦.

في المولّدين أصوب بديعاً من بشار، وابن هرمه»[١].

ويؤكد القول السابق أنّ الجاحظ أشار للبديع إلا أنّه لم يضع له حدّاً أو ذكر فن من فنونه يعدّ ابن المعتز، هو واضع علم البديع، لأنّه أول من ألّف كتاباً في هذا الشأن، سمّاه (كتاب البديع)[٢]، أشار فيه أنّه أول من نظم وجمع فنون هذا العلم بقوله: «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، وألّفته سنة أربع وسبعين ومائتين»[٣]، وجعل ابن المعتز البديع خمسة أنواع: الاستعارة، التجنيس والمطابقة ورد إعجاز الكلام على ما تقدمها، المذهب الكلامي، ثمّ ذكر محاسن الكلام وعدّ منها ثلاثة عشر نوعاً، وقد أشار إلى الغرض الذي من أجله ألّف كتاب البديع، بقوله: «إنّما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أنّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع»[٤]، ويعدّ كتاب البديع المحاولة الأولى ليستقلّ هذا العلم البلاغي وتحدّد مباحثه التي كانت من قبل مختلطة بمباحث علم المعاني وعلم البيان، كما أنّه لفت أنظار الناس إلى أنّ البديع كان موجوداً في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام[٥]، وجعل أبو هلال العسكري الباب التاسع من كتاب الصناعتين لشرح البديع والإبانة عن وجوهه، وحصر أبوابه وفنونه، وفي هذا الباب ذكر خمسة وثلاثين نوعاً من البديع، عقد لكل نوعٍ فصلاً، زاد على ما سبق ستة أنواع، واستثنى منها التشبيه والإيجاز والإطناب والسجع

---

[١] المصدر نفسه: ١ / ٥١.

[٢] ينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ١٢.

[٣] كتاب البديع: ٥٨.

[٤] كتاب البديع: ٣.

[٥] ينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ١٥.

والازدواج، بينما عدّ الاستعارة والمجاز من البديع، فمدلول البديع عنده أخذ بالتخصص[١]، ولم يفرق عبد القاهر الجرجاني بين موضوعات البلاغة، ففي كتابه (أسرار البلاغة) أطلق اسم البديع على التشبيه والاستعارة وعلى سائر أقسام البديع الأخرى كالتجنيس والحشو والطباق وحسن التعليل، ثمّ سمّى هذه البحوث ـ وأخرى دخلت في علم المعاني ـ بياناً في كتابه (دلائل الإعجاز)[٢]، ولم يسمّ السكاكي البديع (بديعاً) ولم يضع له حدّاً اصطلاحياً كما حدّ علم المعاني والبيان، وإنّما سمّاه (محسنات) بقوله: «إذا تقرر أنّ البلاغة بمرجعيها وأنّ الفصاحة بنوعيها ممّا يكسو الكلام حلّة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ»[٣]، ومن ثمّ أخذت فنون البديع في الزيادة حتّى وصلت في القرن الثامن الهجري عند الشاعر صفي الدين الحلي إلى مائة وخمسة وأربعين محسناً بديعياً[٤].

وكان يقصد بهذه المحسنات «تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوّها عن التعقيد المعنوي»[٥].

ويكاد يتفق أنّ البديع ما جاء عفو الخاطر، وفيض القريحة، وعلى السجية والفطرة، من غير تكلف أو اصطناع أو اجتلاب، وهذا واضح في

---

[١] ينظر: كتاب الصناعتين: ٢٦٦ ـ ٤٣٠، وينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن د. عبد الفتاح لاشين: ١١.

[٢] ينظر: أسرار البلاغة: ١ / ١٠٠، ٢ / ١٧٠، وينظر: دلائل الاعجاز: ٤، وينظر: البلاغة عند السكاكي: ٣٢٢.

[٣] مفتاح العلوم: ٦٥٩ ـ ٦٦٠.

[٤] ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: ٣٦١.

[٥] علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ٦٥.

القرآن الكريم لاشتماله على تشكيلات بديعيّة صادقة في المضمون، ومطبوع في الصنعة والتركيب[١]، ووضوح أساليب البديع في القرآن الكريم يدلل على أنّه في الصميم من علم البلاغة، وله قيمة أسلوبية وجمالية تحاكي الحسّ الأدبي الدقيق للذائقة العربية، وإنّ تكلف الشعراء له في حقبة ما، حتّى عاد شعرهم عبارة عن محسنات بديعية على حساب المعنى، لا يدعو إلى وصمة بأنّه مخالف لأصالة الأدب العربي، كما ذكر ذلك الدكتور درويش الجندي، بأنّ مذهب البديع يجافي الأدب العربي في روحه وأصالته في البعد عن التكلف، والجري وراء البديع وطمس المعنى[٢]، وقسّم البديع الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام على ضربين: الأول: معنوي، أي: راجع إلى تحسين المعنى بحسب العراقة والأصالة، وان كان بعضها لا يخلو عن تحسين اللفظ، والثاني: لفظي، راجع إلى اللفظ، ولقد قدّم المعنوي، لأنّ المقصود الأصلي والغرض الأولي من المعاني، والألفاظ توابع وقوالب لها[٣].

وتعرّض السيّد السبزواري إلى معنى البديع في اللغة، قال: «بديع: مبالغة في الإبداع، وهو إيجاد الشيء بصورة مخترعة بلا مادة ولا آلة ولا مكان ولا سبق مثال، وهو مختص به عزّ وجلّ، وبالنسبة إلى غيره فهو مطلق إحداث الشيء من غير سبق الوجود»[٤].

---

[١] ينظر: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمّد بركات حمدي أبو علي: ١٤٣.

[٢] ينظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي: ٥٨.

[٣] ينظر: المطول: التفتازاني: ٦٥٢ ـ ٦٥٣.

[٤] مواهب الرحمن: ١ / ٥٦٦.

أمّا علم البديع المعروف في علم البلاغة، أشار إليه السيّد السبزواري عند ذكر فنونه دون أن يحدّه، فرأى أنّ براعة الاستهلال معروفة في علم البديع[١] وذكر المشاكلة وعدّها من أنواع البديع[٢]، وفي مواضع أخرى يصف أنواعه بأنّها من محسّنات الكلام[٣]، أو من محسّنات الفصاحة[٤]، أو من المحسّنات البديعية.

[١] ينظر: المصدر نفسه: ١٠ / ٢٨٠.

[٢] ينظر: المصدر نفسه: ١٠ / ٤٨.

[٣] ينظر: المصدر نفسه: ٥ / ١٧٤.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ١٥٣.

المبحث الأول
«المحسنات المعنوية»

المقابلة

المقابلة لغة من: قابل يقابلُه مقابلةً، أي واجهه، فالمقابلة بمعنى المواجهة[١]، أمّا في الاصطلاح فقد تحدّث عنها قدامه بن جعفر في باب صحة المقابلات بقوله: «أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطاً أو يعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفيما يخالف بأضداد ذلك»[٢]، ثمّ جاء بعده أبو هلال العسكري فحدّ المقابلة بقوله: «إيراد الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»[٣]، ثمّ: تحدث فساد المقابلة، وتكون إذا ذكرت معنى يقتضي الحال ذكره بموافقة أو مخالفة، ثمّ يؤتى بعده بما لا يوافق ولا يخالف[٤]، وقد أشار ابن رشيق القيرواني إلى الفرق بين الطباق والمقابلة، في ضمن تعريفه لها،

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (قبل): ١١ / ٢١.

[٢] نقد الشعر: ١٣٣.

[٣] كتاب الصناعتين: ٣٣٧.

[٤] ينظر: المصدر نفسه: ٣٩٩.

بقوله: «هي ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً وآخره ما يليق به آخراً، ويؤتى في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابله»[١].

وأيضاً عرّف السكاكي المقابلة بقوله: «هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضدّيهما»[٢]، ثمّ جاء ابن الناظم ووضعها في كتابه المصباح ضمن الفنون التي ترجع إلى الفصاحة اللفظية، وحدّها بقوله: «أن تأتي في الكلام بجزأين فصاعداً ثمّ تعطف عليه متضمّن أضدادها أو شبه أضدادها على الترتيب، فإذا اختلّ كان مقابلة فاسدة، وأقلها مقابلة اثنين باثنين»[٣].

من خلال ما سبق يظهر أنّ المقابلة من محسنات الكلام، ويرى علماء البديع أنّ أعلى رتبها وأبلغها هو ما كثر فيه عدد المقابلات شريطة ألا تؤدي هذه الكثرة إلى التكلف أو توحي به[٤]، وليس المهم بالنسبة لفنون البلاغة أن يحدد لها مصطلحاً عند المفسّر، إنّما المهم أن يجد الشاهد التطبيقي الذي من الممكن أن يقاس عليه، لذلك اهتم السيّد السبزواري في بيانه لهذه المصطلحات على توافر شواهدها في القرآن الكريم، فنلاحظ أنّه ذكر المقابلة في أكثر من موضع، كما ذكر فنون البديع الأخرى التي توفرت شواهدها، ومن تطبيقاته التي بيّن فيها المقابلة ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ

---

[١] كتاب العمدة: ٢ / ١٢.

[٢] مفتاح العلوم: ٦٦٠.

[٣] المصباح: ٢١١.

[٤] ينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ٨٠

تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ ممَّنْ تَشَاءُ وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، قال: «في الآية الكريمة من أسرار البلاغة ولطائفها ما تُبهر العقول منها، فإنّه تعالى جمع بين أنحاء من أفعاله المتقابلة، فجمع بين إيتاء الملك ونزعه وهما ممّا يقوم به نظام الاجتماع، كما جمع بين النهار والليل وإيلاج أحدهما في الآخر وهو من أتمّ ما يقوّم نظام العالم... وفي الآية الثانية ذكر إيتاء العزة لمن يشاء ، وقال جلّ شأنه: ﴿وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾... جمع سبحانه وتعالى في هذه الآيات بين أربعة من الأمور التكوينيّة وهي: إيلاج الليل في النهار وبالعكس، والموت والحياة، وأربعة من الأمور الاجتماعية وهي: إيناء الملك ونزعه يناسبان الليل والنهار، والعزة والذلة تناسبان الحياة والموت، ذكر ﴿بِيَدكَ الْخَيْرُ﴾ لبيان تسلّطه على هذه الأمور الاجتماعية و﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لبيان تسلّطه على الأمور التكوينيّة فكانت المقابلة بين هذين الأمرين أيضاً من هذه الجهة.

ويجتمع الجميع في الحياة بالمعنى الأعم أي الحياة الفردية والاجتماعية ويستلزم ذلك الاقتدار على مقابلها وهو الموت، لأنّ القدرة على شيء يستلزم القدرة على نقيضه أيضاً وإلا لا معنى للقدرة»[2].

كشف السيّد السبزواري في هذا المثال عن أنحاء من المقابلة تخصّ الأمور التكوينية وأربعة أخرى من الأمور الاجتماعية، ثمّ ذكر المقابلة بين ﴿بِيَدكَ

---

[1] آل عمران: الآيتان / ٢٦ ـ ٢٧.

[2] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٢٢ – ٢٢٣.

الْخَيْرُ﴾ وبين ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ومع تعدد المقابلة في الآيتين الشريفتين إلا أنّ صاحب المواهب يؤكد على مناسبة كلّ مقابل للآخر، لذا أشار في بداية القول إلى أنّ ذلك من أسرار البلاغة ولطائفها التي بهرت العقول، ويرى في موضع آخر أنّ المقابلة تكون لأجل إفادة التوكيد مع زيادة التقريع كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[١]، قال: «الأفواه: جمع فاه، وإنّما ذكره عزّ وجلّ للتأكيد ومقابلة للقلوب وزيادة في التقريع ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[٢]»[٣]، فذكر الألسن مقابلة للقلوب للتأكيد وزيادة في التقريع، وأشار صاحب المواهب إلى المقابلة بين جملتين، وتابع بهذا التقسيم العلوي الذي بدوره قسّم المقابلة على وجهين، الأول منهما مقابلة المفرد بالمفرد، والثاني مقابلة الجملة بالجملة[٤]، وذكر هذه المقابلة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٥]، قال: ومقتضى المقابلة بين الجملتين أن يكون الجزاء في الدارين الدنيا والآخرة، ففي الدنيا الفوقيّة والذكر الحسن والغلبة

---

[١] آل عمران: الآية / ١٦٧.

[٢] الفتح: الآية / ١١.

[٣] مواهب الرحمن: ٧ / ٥٥.

[٤] ينظر: الطراز: ٣٨٧.

[٥] آل عمران: الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧.

والنصرة، وفي الآخرة الجنّة وحسن المآب»[١]، وكشف صاحب المواهب في موضع آخر عن المقابلة بين الأبرار وسعادتهم والكفار وشقائهم وهو مقابلة بين مختلفين متضادّين تكون من أحسن وجوه البلاغة، كما صرّح بذلك أهل البلاغة[٢]، بيّن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾[٣]، قال: «بيان مصير الأبرار وسعادتهم مقابلة لمصير الكفار وشقائهم فإنّه لا يقاس أحدهما بالآخر لأنّ حال الطائفة الأولى ابتلاء ومقاساة للأهوال مدّة قصيرة، ونعيم الخلد في الآخرة وحال الطائفة الثانية، متاع قليل ومأواهم جهنم وبئس المهاد»[٤].

وفي موضع آخر ذكر أنّ المقابلة بين الربا والصدقات أفادت تعظيم نتائج الربا وفوائد الإنفاق عندما فسّر قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٥]، قال: «يستفاد من المقابلة بين الربا والصدقات عظم ما يترتب على الربا من الآثار السيئة كما يترتب على الإنفاق من الآثار الحسنة... فكلّ ما فيه المصلحة يقابله كلّ ما في الربا من المفسدة، فهو يقابله في جميع

---

[١] مواهب الرحمن: ٥ / ٣٩٥.

[٢] ينظر: نقد الشعر: ١٣٣، وينظر: كتاب الصناعتين: ٣٣، وينظر: مفتاح العلوم: ١٦٠.

[٣] آل عمران: الآيات / ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨.

[٤] مواهب الرحمن: ٧ / ٢٠٦.

[٥] البقرة: الآية / ٢٧٦.

الآثار والفضائل والرذائل وفي كلّ العوالم»[١]، وأشار إلى أنّ المقابلة قد تكون لبيان معنىً من المعاني وهو من الاستعمالات الفصيحة، واستشهد على ذلك بأحد أبيات الشعر العربي، قال: «المقابلة بين الإيمان والفسق لبيان بطلان النقمة، فكأنّه راجع إلى ما قد يقال:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم		بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب[٢]

أي: هل تنقمون منّا وتكرهوننا لأنّا أهل الإيمان وأنتم أهل الفسق»[٣]، وذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾[٤].

تأسيساً على ما تقدم يحصل العلم بأنّ صاحب المواهب لم يغفل الإشارة إلى مواضع المقابلة في القرآن الكريم، وإنّما أشار إليها ووضحها وعدّها من أحسن وجوه البلاغة إذا كانت بين مختلفين متضادين، وأكد على التناسب بين المتقابلين، وأنّه لا بدّ منه، ويكاد يكون شرطاً لصحة المقابلات وبعكس ذلك يكون عدم التناسب سبباً من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده.

واكتفيت بالأمثلة السابقة روماً للاختصار ولأنّها تغني وتفصح عن كيفية تعامل صاحب المواهب مع هذا الفن البلاغي، ومن شاء التوسع ليراجع تفسير مواهب الرحمن[٥].

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٤٣١.

[٢] البيت من الطويل للنابغة الذبياني، ينظر: ديوانه: ١١.

[٣] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٣٧.

[٤] المائدة: الآية / ٥٩.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ٩ / ٣١٥، ٩ / ٣١٦، ٨ / ٦٣، ١١ / ٢٠١، ١٣ / ١١٠، ١٣ / ٣٢٤، ١٣، ٣٢٨، ١٤ / ٣٢٣.

«المبالغة»

المبالغة لغةً من: بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً، وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا وبلّغه تبليغا[١].

وقد تحدّث عبد الله بن المعتز عن المبالغة في الاصطلاح، وجعلها من محاسن الكلام والشعر، وأطلق عليها اسم (الإفراط في الصفة) وذكر الأمثلة لتوضيحها[٢].

وجاء من بعده قدامه بن جعفر وأطلق عليها اسم (المبالغة)، وحدّها بقوله: «المبالغة أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر، لو وقف عليها لأجزئه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتّى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد»[٣].

وعدّها أبو هلال العسكري من فنون البديع في الباب التاسع من كتابه، وعرّفها بقوله: «المبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه»[٤]، ويعدّها القزويني من محاسن الكلام وبديعه، ويعرّفها بقوله: «المبالغة أن يدعى لوصف بلوغه في الشدّة أو الضعف حدّاً مستحيلاً أو مستبعداً، لئلا يظنّ أنّه غير متناه فيه»[٥]،

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (بلغ): ١ / ٤٨٦.

[٢] ينظر: البديع: ٦٥.

[٣] نقد الشعر: ١٥٠.

[٤] كتاب الصناعتين: ٣٦٥.

[٥] التلخيص في علوم البلاغة: ٩٤.

وتنحصر المبالغة عنده بالتبليغ والإغراق والغلو، وهو يرى إن كان المدعى غير ممكناً عقلاً ولا عادة فتبليغ، وإن كان ممكناً عقلاً لا عادةً فإغراق، وإن كان غير ممكن عقلاً ولا عادةً فهو غلو[١].

أمّا ابن حجّة الحموي (ت: ٧٣٨ هـ) فذكر (الإغراق) و (الغلو) وجعلهما مما يتصل بالمبالغة، ولم يخرج ببيانهما عمّا ذكره القزويني من قبل[٢].

وقد عدّ الدكتور عبد العزيز عتيق أنواع المبالغة ثلاث فنون بديعية مستقلة، ويرى أنّه فيه تطور لمفهومها، وهو أولى بالإتباع، لأنّه يميّز كلّ فن عن الآخر، ويحول دون اختلاطها وتداخل بعضها في بعض[٣].

فالمبالغة وفقاً لما مرّ من الأساليب المستحسنة عند الكتاب، وأدرجت ضمن المحسنات المعنوية من فنون البديع[٤]، والمبالغة في المعنى في موضع ما لا يكون إلا لفائدة بلاغية، ويرى القرشي ـ مضافاً إلى ذلك ـ أنّها تبعث في النفس الدهشة والمتعة في آن واحد[٥].

ووقف السيّد السبزواري عند هذا الأسلوب، وعدّه من أحسن الأساليب البلاغية[٦]، ولم يكتفِ في عرضه لأمثلة هذا الباب بذكر الغرض البلاغي الذي أفاده، وإنّما كان له رأيه، فيرى أنّ المبالغة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى لا معنى

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ٩٥.

[٢] ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي: ٨ ـ ١٦.

[٣] ينظر: علم البديع: ٨٩.

[٤] ينظر: التلخيص: ٩٤، وينظر: شرح عقود الجمان، السيوطي: ١٢٢.

[٥] ينظر: المبالغة في البلاغة العربية (تاريخها، مصادرها)، علي سرحان القرشي: ١٥٦.

[٦] ينظر: مواهب الرحمن: ٥ / ٣٨١، ٧ / ٤٠٢.

لها ولا يمكن تصوّرها[١]، وهو يتساءل ويحاول أن يضع جواباً لتساؤله، فيقول: «كيف تتعقل المبالغة في ذاته المتعال، فلا بدّ من حمل المبالغة بالنسبة إليه عزّ وجلّ على أمور: أمّا على غاية الكمال الذي لا حدّ له، فإنّ المبالغة في المحاورات تكشف عن جمال الشخص الذي بُولِغ فيه، فكما أنّ معنى السمع فيه عزّ وجلّ، عبارة عن أنّه لا تخفى عليه المسموعات، تكون المبالغة فيه أنّه لا حدّ لكماله، فتكون فيه عزّ وجلّ عبارة عن أنّ لا حدّ لموردها، ولا يمكن للعقول أن تتصور لها حداً»[٢].

أكد أنّ المبالغة فيما يخص الله سبحانه وتعالى وأسمائه الحسنى غير واردة ولا يمكن تصورها فيما يخصّ معنى المبالغة نفسه، أمّا إذا وجهنا دلالتها لإفادة معنى أنّ الله لا حدّ لكماله، وأيضا لإفادة المعنى نفسه بالنسبة لأسمائه الحسنى، عند هذا الفهم تكون مقبولة وهي مبالغة غير متناهية، تتسع باتساع مدارك العقول لأنّ لا حدّ لموردها.

لهذا السبب نجد السيّد السبزواري يتعامل بحذر مع أسلوب المبالغة، ويشير إليه في المواضع التي تحتاج إلى إلفات نظر إلى أمرٍ ما، أو لأجل توجيه الناس إلى العمل به وإتيانه على أتم الوجوه وأكملها، لذا نراه إذا أشار إلى هذا الأسلوب في المواضع المناسبة فإنّه يشير إلى الفائدة والغرض الذي تحقّق منه.

ومن الأغراض التي أشار إليها:

---

[١] ينظر: المصدر نفسه: ١٠ / ٨ ـ ٩.

[٢] المصدر نفسه: ١٠ / ٩.

١ ـ المبالغة في الذم:

يرى السيّد السبزواري أنّ اختيار ألفاظ معيّنة أو أسلوب مقصود دون غيره لأجل المبالغة في الذم، وأشار إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[١] حيث يرى أنّ جملة ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، يمكن استبدالها بلفظ أقصر ويؤدي المعنى نفسه، لكن التعبير بها أخصر: للمبالغة في الذم»[٢].

وأشار إلى الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾[٣]، فرأى أنّ: «التعبير بذلك دون ما تكرهه أنفسهم للمبالغة في ذمّهم»[٤]، فالتعبير بما تكرهه أنفسهم لا يتحقق منه المبالغة في الذم كما يتحقق بتعبير ﴿لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾، لأنّ إتباع الهوى يوردهم المهالك ويصمّ أسماعهم ويعمي أبصارهم والكره ليس له ذلك الأثر.

٢ ـ المبالغة في النهي:

وفي ضوء تتبع صاحب المواهب لأسلوب المبالغة، يشير إلى هذا الغرض عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾[٥]، إذ رأى أنّ التعبير بأنفسكم يفيد المبالغة في النهي لأنّهم

---

[١] المائدة: الآية / ٨٢.

[٢] مواهب الرحمن: ١٢ / ١٣٤.

[٣] المائدة: الآية / ٧٠.

[٤] مواهب الرحمن: ١٢ / ٥٦.

[٥] البقرة: الآية / ٨٤.

يمثلون أمةً واحدة، فالمعتدي على أحد أفرادها كأنّما اعتدى على نفسه، قال: «إنّما عبّر سبحانه بالنفس وجعل غير النفس كأنّه نفسه مبالغة في النهي، وتأكيداً في الترك، ولأنّهم أمة واحدة وبينهم روابط القرابة والمصلحة والدين فما يصيب واحداً منهم، كأنّما الأمّة، وأراد الله سبحانه وتعالى بذلك تعليم حفظ الوحدة بين الأفراد مهما أمكن، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[١]»[٢].

ويرى أيضاً أنّ نفي الجنس يتضمّن النهي وهو يفيد المبالغة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[٣] قال: «نفي لجنس هذه الأمور الثلاثة مبالغة وهو يتضمن النهي عنها وهذا أبلغ»[٤].

وأشار إلى المعنى نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ﴾[٥] إذ قال: «التعرّض لنفس القلائد مبالغة في النهي عن التعرض لذواتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[٦]، فإنّ النهي عن إظهار الزينة نهي عن إظهار محلّها»[٧]، فالنهي هنا عن التعرض للهدي وهو المقصود، وجاء الخطاب بالنهي عن التعرض للقلائد للمبالغة في النهي.

---

[١] النور: الآية / ٦١.

[٢] مواهب الرحمن: ١ / ٤٣٧.

[٣] البقرة: الآية / ١٩٧.

[٤] مواهب الرحمن: ٣ / ١٧٥.

[٥] المائدة: الآية / ٢.

[٦] النور: الآية / ٣١.

[٧] مواهب الرحمن: ١٠ / ٢٩١.

٣ ـ المبالغة في التنزيه:

وهو غرض آخر أبرزه صاحب المواهب يستفاد من بعض الألفاظ، فهي تضمن المبالغة في التنزيه مثل لفظ (سبحانك) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[١] يرى أنّه: «أسلوب بارع في تنزيه الله عزّ وجلّ وإبطال ما أدعته النصارى بأحسن وجه، وسبحانه تدل على شدّة التنزيه والمبالغة بأعلى صورها، وغاية ما يمكن أن يدرك من التنزيه لأمور كثيرة، منها: جهة اشتقاقها التي تدل على البعد والإيغال فيه، وكان اشتقاقه من السبح وهو الذهاب السريع البعيد في الأرض، ومنها: جهة النقل إلى صيغة التفعيل ـ أي: (التسبيح) ـ التي تدل على الكثرة، ومنها العدول عن هذه الصيغة التي هي مصدر إلى الاسم الموضوع له خاصته وجعله علماً عليها، ومنها: إقامة الاسم مقام المصدر مع الفعل الدال على شدة الحضور، كل ذلك يدل على غاية التنزيه وشدّته بما يلائم عظمة السائل، لرفع قبح مورد السؤال»[٢].

ذكر صاحب المواهب الأسباب التي جعلت لفظ (سبحانك) يفيد المبالغة في التنزيه من جهة الاشتقاق والنقل والعدول من المصدر إلى اسم المصدر وإقامة الاسم مقام المصدر مع وجود دلالة الفعل ويرى أنّ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[٣] المبالغة في التنزيه أيضاً، لأنّ هذا الأسلوب يدل

---

[١] المائدة: الآية / ١١٦.

[٢] مواهب الرحمن: ١٢ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

[٣] المائدة: الآية / ١١٦.

على نفي الشأن المستلزم لنفي الفعل، قال: «يكون النفي عن نفسه بنفي سببه مبالغة في التنزيه، وهو نفي لما يتوقف عليه ذلك القول، وهذا أبلغ في البراءة من نفي القول رأساً وإنكاره مجرداً، وهذا المعنى لا يتأتى في غير هذا الأسلوب، كما إذا قال: لم أفعل، أو لم أقل، فإنّه لا ينفي إمكان الوقوع، بخلاف ما ورد في الآية الشريفة فإنّه إنكار لأصل الإمكان فضلاً عن الوقوع»[١].

يؤكد أنّ المبالغة تفيد التنزيه لما تحمل بعض الألفاظ من مبالغة في المعنى أو ما تفيده بعض الأساليب من المبالغة، كما هو حاصل من أسلوب النفي.

٤ ـ المبالغة في الترك:

إنّ في اللغة العربية أساليب عدّة تدلّ على المبالغة، ولم تخف هذه الأساليب على صاحب المواهب، ومنها توالي الألفاظ المترادفة، كما في لفظ التولي إذا عقّب بالإعراض، فإنّه يفيد المبالغة في الترك، ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢] قال: «بيان لما وقع منهم من عدم الوفاء بالميثاق ومعارضتهم له بالنفاق والتولي هو الإعراض، وغالباً ما استعمل لفظ التولي في القرآن الكريم إلا وعقّب بالإعراض مبالغة في الترك والتولي»[٣]، وأشار إلى الفائدة نفسها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٤] قال: «تنزيل لعلمهم منزلة الجاهل المقصّر في العصيان واستحقاق العقاب، وفيه المبالغة

---

[١] مواهب الرحمن: ١٢ / ٤٣٩.

[٢] البقرة: الآية / ٨٣.

[٣] مواهب الرحمن: ١ / ٤٣٤.

[٤] البقرة: الآية / ١٠١.

في الترك والإهمال ما لا يخفى، يعني إنّكم مع علمكم بأنّه الحق فقد نبذتموه وراء ظهوركم فلم تحرّموا حرامه ولم تحللوا حلاله، فصار الجحود أشد والعقاب أكثر»[١]، يظهر أنّه يعتمد على المعنى المستفاد من السياق لتوجيه الفائدة من المبالغة فيفهم من سياق النص القرآني السابق المبالغة في ترك ونبذ الكتاب وعدم العمل بأحكامه.

٥ ـ المبالغة في التنفير:

إنّ السيّد السبزواري بإيضاحه الأغراض التي أفادها أسلوب المبالغة، يؤكّد على أنّ الأساليب البلاغية لا ترد اعتباطاً في القران الكريم، وإنّما دائماً تكون لفائدة مرجوّة منها يتضح ذلك ممّا سبق، وفي المثال القرآني الآتي أوضح أنّه يفيد المبالغة في التنفير في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[٢] قال: «أي: لا تحبطوا صدقاتكم بالمنّ والأذى فإنّ رذيلة المنّ والأذى ومفسدتهما تذهبان فضيلة الإنفاق وتهدمان الغاية الشريفة منه، وفي الآية التأكيد على الابتعاد عن هاتين الرذيلتين، والمبالغة في التنفير عنهما والحث على تركهما»[٣].

ويوجّه المبالغة إلى إفادة الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[٤]، قال: «تعليل لمنع الأخذ من مال المرأة وإنكار آخر له، وإرجاع إلى الفطرة مبالغة في التنفير وهو من أحسن

---

[١] مواهب الرحمن: ١ / ٤٨٢.

[٢] البقرة: الآية / ٢٦٤.

[٣] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٦٦.

[٤] النساء: الآية / ٢١.

الأساليب البلاغية»[١].

إنّ المبالغة أسلوب بلاغي أشار إليه صاحب المواهب يمتاز بالحسن وله أثر في إدراك القارئ المعنى القرآني، ففي الآية الكريمة المتقدمة أفاد الأسلوب المبالغة في التنفير، مما ينبّه النفس ويحثّها بالرجوع إلى الفطرة، ويعلّل المنع بأسلوب تستقر عند سماعه النفس.

٦ ـ المبالغة في الوعيد والتهديد:

غرض آخر رصده صاحب المواهب إفادته المبالغة، كان ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: «﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٢]، قال: «الجملة مبالغة في الوعيد والتهديد وهي أبلغ من (انتهوا) كما هو واضح»[٣]، وهذه المبالغة إفادتها صيغة الاستفهام فيفهم منها الوعد والتهديد إذ لم ينتهوا عن الصد عن ذكر الله، وهو يرى أنّها أبلغ من صيغة فعل الأمر (انتهوا).

ويرى أن في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٤] ألفاظاً عدّة تدل على المبالغة، قال: «في الآية القرآنية الشريفة وجوه تدلّ على المبالغة في الوعيد والشدّة في العذاب فقد ذكر فيها القول، والعذاب، والحريق، والذوق»[٥]، ويرى أنّ أسلوب الالتفات يفيد المبالغة في التهديد عند تفسيره لقوله تعالى:

---

[١] مواهب الرحمن: ٧ / ٤٠٢.

[٢] المائدة: الآية / ٩١.

[٣] مواهب الرحمن: ١٢ / ٢١٧.

[٤] آل عمران: الآية / ١٨١.

[٥] مواهب الرحمن: ٧ / ١٢٤.

﴿وَلِلَّه ميرَاثُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١]، قال: «الالتفات في قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إلى الخطاب للمبالغة في التهديد لأنّ تهديد العظيم بالمواجهة أشد»[٢].

وفي ضوء ما عرض من أمثلة نجد أنّ صاحب المواهب يتعمق في أسلوب المبالغة ولا يكتفي بالإشارة إلى مواضعه، وإنّما يتعدى ذلك إلى ذكر الأغراض البلاغية التي أفادها ضمن السياق القرآني، وفي تفسيره الكثير من تطبيقاته إلا أنّ ما ذكرناه يكفي دليلاً للإبانة عنها، وهي تغني عن ذكر ما تجاوزت عنه، وأكتفي بالإشارة إليها[٣].

«الالتفات»

الالتفات من الأساليب البلاغية المعروفة، وهو في اللغة من تَلَفَّتَ إلى الشيء والتَفَتَ إليه، صَرَفَ وجهَهُ إليه، ولَفّتَ وجهَهُ عن القوم: صَرَفَهُ والتَفَتَ التفاتاً، ويقال: لَفُتَ فُلاناً عن رأيه، أي صرفته عنه ومنه الالتفات[٤]

ونجد أنّ الأصمعي (ت: ٢١٦ هـ) من الذين أشاروا إلى مصطلح الالتفات، فقد ذكره ضمن حديثه عن شعر جرير لمّا سئل الأصمعي أحد جلسائه قائلاً:

---

[١] آل عمران: الآية / ١٨٠.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ١٢٩.

[٣] ينظر: المصدر نفسه: ١ / ٥٦٦، ٢ / ٢٧، ٣ / ٣٨١، ٤ / ٧، ٥ / ٩٠، ٦ / ٥٩، ٨ / ١٧٥، ١١ / ٨٠، ١١ / ١٢٧، ١٢ / ٤١٦، ١٣ / ١٧٨، ١٤ / ٢٠.

[٤] ينظر: لسان العرب، مادة (لفت): ١٢ / ٣٠١.

«أتعرف التفات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أتنسى إذ تودعنا سليمى		بفرعٍ بشامةٍ؟ سُقي البشامُ[١]

ألا تراه مقبلاً على شعره، ثمّ التفت إلى البشام فدعا له»[٢].

ووضع ابن المعتز الالتفات ضمن محاسن الكلام وعرّفه بقوله: «هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ومن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»[٣].

وأخذ مفهوم الالتفات يخلط بغيره من المفاهيم بعد ابن المعتز، من مثل الاعتراض والرجوع[٤] والاستدراك[٥] والانصراف[٦]، إلى أن جاء ضياء الدين بن الأثير فعالجه بوضوح، وكشف عن كثير من أسراره البلاغية، قال: «وحقيقته مأخوذة عن التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقاله خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»[٧]، وأطلق عليه ابن الأثير اسم «شجاعة العربية» وعلل لهذه التسمية بقوله: «وإنّما سمّي

---

[١] البيت من الوافر لجرير، ينظر: ديوانه: ٤١٧.

[٢] كتاب الصناعتين: ٣٩٢، وينظر: اعجاز القرآن: ٩٩.

[٣] كتاب البديع: ٥٨.

[٤] ينظر: نقد الشعر: ١٤٦، وينظر: كتاب الصناعتين: ٣٩٢، وينظر: اعجاز القرآن: ٩٩.

[٥] ينظر: العمدة: ٢ / ٤٥.

[٦] ينظر: البديع في نقد الشعر: ٢٠٠.

[٧] المثل السائر: ٢ / ١٨١.

بذلك لأنّ الشجاعة هي الإقدام وذلك أنّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره... كذلك هو الالتفات في الكلام، فإنّ اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»[١].

ولم يستقر أسلوب الالتفات ضمن أي من علوم البلاغة الثلاثة، إذ وضعه ابن المعتز ضمن البديع[٢] والزمخشري ضمن البيان[٣] أمّا السكاكي فقد وضعه ضمن علم المعاني، وقال عنه: «ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني»[٤]، وذكره مرّة أخرى في المحسنات المعنوية، ولكنّه لم يتكلم عليه واكتفى بأن قال: «وقد سبق ذكره في علم المعاني»[٥].

وقد علل ابن يعقوب المغربي (ت: ١١١٠ هـ) هذا التردد وبيّن مكانه في كلّ علم، يقول: «فإن قلت: لأي وجه خصص تسميته بعلم المعاني مع أنّ عدّ الالتفات من البديع أقرب، لأنّ حاصل ما فيه أنّه يفيد الكلام ظرافة وحسن تطريه، فيصغى إليه لظرافته وابتداعه، ولا يكون الكلام به مطابقاً لمقتضى الحال، فلا يكون من علم المعاني فضلاً عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون أهل البديع؟ قلت: أمّا كونه من الأحوال التي تذكر في علم المعاني فصحيح، كما إذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الإصغاء لكون الكلام سؤالاً أو مدحاً أو إقامة حجة أو غير ذلك، فهو من هذا الوجه من علم المعاني، ومن جهة كونه شيئاً ظريفاً مستبدعاً

---

[١] المصدر نفسه: ٢ / ٨١.

[٢] ينظر: البديع: ٥٨.

[٣] ينظر: الكشاف: ١ / ٥٦.

[٤] مفتاح العلوم: ٣٩٥.

[٥] المصدر نفسه / ٦٦٨.

يكون من علم البدي»[١].

وتابع السيّد السبزواري السابقين في هذا الاضطراب، فقد بيّن مرّة أنّه من علم البديع، قال: «فهو من محاسن الكلام وبدائعه»[٢]، ثمّ قال: «وهو عند أهل المعاني والبديع على أنواع»[٣].

لذا ارتأيت أن أضعه ضمن مباحث علم البديع لتأكيد السيّد السبزواري بأنّه من محاسن الكلام وبدائعه، ولما ذكره ابن يعقوب المغربي فيه.

واعتنى صاحب المواهب بمبحث الالتفات اعتناء فائقاً، وتناول كلّ ما يدور حوله وعرّفه بقوله: «هو أسلوب كلامي يظهر غالباً في كلام العظماء والملوك عند تكلمهم في موضع واحد عن قضايا كثيرة، على حسب سعة نفوذ أمرهم وسلطانهم، فينتقلون من الحاضر إلى الماضي أو إلى المستقبل أو إلى الأمر والنهي وقضايا متعددة، فهو يدل على كثرة نفوذ كلام المتكلم وسعة مقصده... فهو من محاسن الكلام وبدائعه، ويهتم به الأدباء اهتماماً بليغاً»[٤].

وذكر له شروطاً ثلاثة، وذكر أنّها مشهورة عند الأدباء «أحدها: أن يكون الانتقال على غير ما يقتضيه الكلام الظاهر، أي أنّ مقتضى الظاهر أن يكون التعبير بغير الالتفات فينتقل إليه، ثانيهما: أن يكون الضمير المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، بخلاف ما إذا كان كل واحد من الضميرين يرجع

---

[١] مواهب الفتاح: ١ / ٤٦٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٢ / ١٦٨.

[٣] المصدر نفسه: ٢ / ١٦٩.

[٤] المصدر نفسه: ٢ / ١٦٨.

إلى واحد من اثنين، كما في قول (أنت صديقي)، ثالثهما: أن يكون في جملتين»[١].

وقد ذكر الشرط الأول السكاكي[٢]، أمّا الشرط الثاني والثالث فقد ذكرهما السيوطي[٣].

وقسّم السيّد السبزواري الالتفات، وذكر أنّ هذا التقسيم كما هو معروف عند أهل المعاني والبديع، وهو على أنواع:

الأول: تعقيب الكلام بجملة مستقلة بعدما فرغ المتكلم من المعنى، تتلاقى الجملة الأخيرة مع الأولى في المعنى، على طريق المثل أو الدعاء أو نحوهما.

الثاني: أن يذكر المتكلم معنى، فيتوهم أنّ السامع اعترض قلبه شيء فيلتفت في كلامه ليزيل ما وقع في قلبه من شك أو نحوه، ثمّ يرجع إلى مقصوده.

الثالث: التفات الضمائر.

الرابع: بناء فعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلّمه.

الخامس: الانتقال من المذكر إلى المؤنث أو العكس.

السادس: انتقال الخطاب من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع إلى الآخر.

السابع: التفات الأفعال.

الثامن: الانتقال في الكلام من كلّ من المتكلم والخطاب والغيبة إلى آخر[٤].

---

[١] المصدر نفسه: ٢ / ١٦٩.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم: ٣٩٢.

[٣] ينظر: الاتقان: ٣ / ٢٢١.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ١٦٩ ـ ١٧٩.

وقد ذكر السيّد علي المدني النوع الأول والثاني[١]، أمّا الأنواع الستة الأخيرة فقد ذكرها السيوطي[٢].

وأكد السيّد السبزواري أنّ النوع الثامن ـ أي الالتفات في الكلام من كلّ من المتكلم والخطاب والغيبة إلى آخر ـ هو أشهر ما عرف عند علماء الأدب، ويكون على ستة أقسام:

الأول: من التكلّم إلى الخطاب، الثاني: من التكلّم إلى الغيبة، الثالث: من الخطاب إلى التكلّم، الرابع: من الخطاب إلى الغيبة، الخامس: من الغيبة إلى الخطاب، السادس: من الغيبة إلى التكلم[٣]، وقد ذكر هذه الأنواع السكاكي والسيوطي والسيّد علي المدني[٤].

كان مبحث الالتفات المبحث الوحيد الذي اهتم به السيّد السبزواري على المستوى النظري، كما هو واضح ممّا سبق، ووقف عنده وهو يفسّر الآيات الشريفة مبيّناً الغرض الذي أفاده ضمن السياق الذي وقع فيه، ومن هذه الأغراض التي أشار إليها:

١ ـ تنبيه المخاطب:

أدرك السيّد السبزواري إفادة الالتفات هذا الغرض، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ

---

[١] ينظر: أنواع الربيع، السيّد علي المدني: ١ / ٢٨٠.

[٢] ينظر: الاتقان: ٣ / ٢١٧ ـ ٢٢٢.

[٣] ينظر: مواهب الرحمن: ٢ / ١٧٠ ـ ١٧١.

[٤] ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٠ ـ ٤٠٣، وينظر: الاتقان: ٣ / ٢١٧ ـ ٢٢٠، وينظر: أنوار الربيع: ١ / ٣٦٣ ـ ٣٧٥.

خفْتُمْ أَلا يُقيمَا حُدُودَ اللَّه فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِه تِلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١]، يرى أنّ الالتفات من خطاب الجمع إلى هطاب المفرد ثمّ إلى الجمع ثمّ إلى المفرد، أفاد تنبيه المخاطب على ما في الآية الكريمة من أحكام توجب الإصغاء إليها، قال: «التفات عن خطاب الجمع الوارد في قوله تعالى: ﴿يَحِلُّ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ إلى خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّه﴾ ثمّ إلى الجمع بقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ ثمّ إلى المفرد في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، كلّ ذلك لتنبيه المخاطب ورفع الكسل في الإصغاء وتنشيط الذهن ليستعدّ لسماع الحكم من غير ملل»[٢].

وفي سياق قرآني آخر، في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[٣] رأى أنّ فيه «التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، إيماء إلى أنّ العذاب تحقق وقرب وقوعه، وللتنبيه والإيقاظ لهم على ما غفلوا عنه»[٤]، وإلى هذا الغرض أشار القزويني عند حديثه عن الالتفات، فرأى أنّه يفيد التنبيه على المخاطب إذ أنّه أولى بالقصد[٥]، وتنبيه المخاطب من الأغراض الرئيسية التي تستفاد من الالتفات، لما فيه من تطرية وتجديد لذهن السامع حتّى لا يسأم من الإصغاء.

---

[١] البقرة: الآية / ٢٢٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ١٧.

[٣] النساء: الآية / ١٥١.

[٤] مواهب الرحمن: ١٠ / ١١٩.

[٥] ينظر: التلخيص: ٢٧.

٢ ـ التوبيخ:

وقد يفيد الالتفات التوبيخ، وذكر هذا الغرض السكاكي عند حديثه عن التفاتات امرئ القيس في شعره[١]، وأشار صاحب المواهب إلى هذا الغرض عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[٢] يرى أنّ في قوله تعالى: «التفات لغرض التوبيخ والتقريع»[٣]، وقد أثبت هذا الغرض لأنّه يتماشى مع السياق العام للآية الشريفة ومع ما تريد أن تؤديه من معنى ليقدّره السامع بكلّ نحو يُشعر به المقام من الهول.

٣ ـ التعظيم:

يعتقد السيّد السبزواري أنّ من الأغراض البلاغية التي يفيدها الالتفات التعظيم، وأفاد ذلك الغرض الالتفات عن الضمير إلى الظاهر وعن الحضور إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[٤] ففي جملة ﴿مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ قال: «التفات عن الضمير إلى الظاهر تفخيماً لهذه الدرجة والمنقبة وتعظيماً لهذه الفضيلة، ولأنّ التكليم إنّما يكون فضيلة عالية وخصلة سامية إذا كان مع عظيم»[٥]، وفي جملة ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قال: «فيها التفات عن الحضور إلى الغيبة أيضاً تعظيماً وتفخيماً لهذه الفضيلة السامية حيث نسب الرفع إلى الله تعالى»[٦].

---

[١] ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٢.

[٢] آل عمران: الآية / ١٠٦.

[٣] مواهب الرحمن: ٦ / ٢١٧.

[٤] البقرة: الآية / ٢٥٣.

[٥] مواهب الرحمن: ٤ / ١٨٢.

[٦] المصدر نفسه: ٤ / ١٨٣.

وأشار إلى الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[١] رأى أنّ فيها: «التفات من التكلم إلى الغيبة تعظيماً للمطيعين وتنويهاً بجلالة مقامهم ثمّ الرجوع إلى التكلم مع الغير الذي بُني الكلام عليه في الآية الكريمة للإشارة إلى قرب حضورهم»[٢].

فالسياق القرآني يتبدّل من خطاب إلى آخر لإفادة أغراض معينة من ضمنها التعظيم دون أن يؤثر ذلك على وحدة السياق أو خروجه عن المألوف في صياغة الكلام، إنّما هو ممّا يزيد الأسلوب جمالاً وتماسكاً فضلاً عن فائدته البلاغية.

٤ ـ اللوم والعتاب:

أشار السيّد السبزواري إلى إفادة الالتفات لهذا الغرض في أكثر من موضع، وأشار إليه من البلاغيين القدماء السكاكي، فذكر العتاب في معرض حديثه عن المعاني التي يفيدها الالتفات[٣].

ويرى المفسّر أنّ هذا الغرض تحقق من الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤] قال: «في الآية الشريفة التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) ولعلّه لأجل ما يلوح من الآية الشريفة اللوم والعتاب للمؤمنين لمّا ظهر من بعضهم من الوهن في العزائم والفشل في القتال»[٥].

---

[١] النساء: الآية / ١٢٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٩ / ٣١٥.

[٣] ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٢.

[٤] آل عمران: الآية / ١٢١.

[٥] مواهب الرحمن: ٦ / ٢٨٣.

ويرى أنّ الالتفات أفاد الغرض نفسه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[١] رأى أنّ فيها: «التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) لأنّ الخطاب يتضمن اللوم والعتاب لما صدر عنهم في أحد وقد استحقوا بسببه التوبيخ من النبي (صلّى الله عليه وآله) والتعنيف فقد فعلوا ما أوجب الهزيمة»[٢] فاللوم والعتاب يمثلان المعنى المراد إيصاله من الالتفات في الآيتين السابقتين فتحول الخطاب فيهما إلى الرسول (صلّى الله عليه وآله) بعد أن كان موجهاً إلى المؤمنين لأجل لومهم وعتابهم على التقصير الذي ظهر منهم، فقد خسروا الخطاب المباشر مع الله سبحانه وتعالى.

ويعتقد أنّ الالتفات أفاد تشديد اللوم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[٣]، قال: «التفات من الغيبة إلى الحضور لتسجيل أفعالهم، وتشديد اللوم عليهم بعد تذكيرهم بالخلق والربوبية العظمى التي خصّ الإنسان بها من بين مخلوقاته البديع صنعه تعالى فيها»[٤].

وبملاحظة ما سبق نجد أنّ صاحب المواهب يصرّح عن الغرض الذي، أفاده الالتفات وهو جزء ممّا يتضمنه الخطاب القرآني من معنى، والذي لا يخرج

---

[١] آل عمران: الآية / ١٥٩.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ٦.

[٣] الانعام: الآية / ٢.

[٤] مواهب الرحمن: ١٣ / ٢٢.

عن المعنى المراد من سياق الآيات الشريفة، بل إنّ هذا التحول في الخطاب يخدم المعنى، وهو من الأساليب البليغة.

٥ ـ التسلية:

وهو من المعاني التي يفيدها أسلوب الالتفات، كما أكد السيّد السبزواري عند تفسيره لقوله تعالى: « ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[١] قال: «التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول تسلية لقلبه الشريف عمّا كان يشاهده من بعضهم في أمر الإنفاق والصدقات، فأبلغه عزّ وجلّ بأنّه ليس عليك إيصالهم إلى الحق المطلوب ولم تكن أنت مسؤولاً عن ذلك»[٢]، ورأى أنّ الغرض نفسه أفاده الالتفات في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٣]، ذكر أنّ في الآية التفات من الغيبة إلى خطاب المؤمنين، بعد ما نزلوا منزلة الغيبة في أول الكلام، والعدول عنه في أثنائه ثمّ الرجوع إليهم في الخطاب معهم، وذلك لوجوه بلاغية، منها التسلية لنبينا الأعظم (صلّى الله عليه وآله) وأصحابه ممّا كانوا يلاقونه من المشركين المعاندين من صروف البلاء وأنواع الأذى[٤]، تلحظ ممّا سبق أنّ التسلية وجه بلاغي أفاده أسلوب الالتفات بنظر صاحب المواهب، وهو ممّا يصرح به مباشرة مثله مثل الأغراض الأخرى التي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال.

---

[١] البقرة: الآية / ٢٧٢.

[٢] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٩٢.

[٣] البقرة: الآية / ٢١٤.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٣ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

٦ ـ الترغيب:

من معاني القرآن السامية هو ترغيب المؤمنين ودفعهم إلى فعل الخير، وغالباً لا يكون التعبير عن ذلك مباشرة، وإنّما باستخدام مختلف الأساليب البلاغية بحسب ما يتطلبه السياق، ومنها أسلوب الالتفات، وأشار صاحب المواهب إلى إفادة الالتفات معنى الترغيب عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[1]، يرى أنّ في جملة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ «التفات إلى الحاضرين ترغيباً لهم إلى الإيمان بالنبي (صلّى الله عليه وآله) الذي يبيّن ما أخذ عليهم من المواثيق»[2] ويرى أنّ الالتفات أفاد المعنى نفسه عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[3] رأى أنّ فيها: «التفات من الغيبة إلى الخطاب والتكلم، لبيان كمال العطف والاهتمام والاقتراب إلى المتعبدين، وفيه من الترغيب إلى فعل الخير»[4]، توضّح الأمثلة السابقة التي بينت الأغراض المستفادة من أسلوب الالتفات، إنّه من الأساليب البلاغية المهمة التي لها شأن في رفع مستوى الأسلوب فضلاً عمّا يؤدّيه من معانٍ دون التصريح بها مباشرة، وهو من الأدب القرآني ومن جمال الخطاب الإلهي، وقد أكّد السيوطي أنّ كلّ موضع من مواضع الالتفات يختص بنكت ولطائف

---

[1] البقرة: الآية / ٨٤

[2] مواهب الرحمن: ١ / ٤٣٦.

[3] البقرة: الآية / ١٩٧.

[4] مواهب الرحمن: ٣ / ١٧٦ ـ ١٧٧.

باختلاف محله[١].

وهذا ما عمل عليه المفسّر، فلم يعدم الالتفات حقّه، إذ توسّع في ذكر كلّ ما يتعلق به، وقد أفرز أساليبه وبيّنها، وأشار إلى الفائدة منها في مواضعها من القرآن الكريم، وتعامل معه بذوق بلاغي رفيع.

«المشاكلة»

المشاكلة في اللغة: المشابهة والموافقة، يقال شاكله، أي: شابهه[٢]، وفي اصطلاح البلاغيين «هي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته»[٣].

وللمشاكلة دورها في حسن التعبير وبلاغته، وهي من أنواع البديع التي أشار إليها السيّد السبزواري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٤]، قال: «والحال أنّ الله تعالى هو خادعهم، أي يجازيهم على خداعهم، وإنّما عبّر سبحانه وتعالى عن فعله بالخداع بالمشاكلة، وهو نوع من أنواع البديع، والسبب في ذلك أنّ الخديعة والمكر إنّما يستعملان في الشرور والمعاني المذمومة غالباً، وقد عبّر عنها في فعله عزّ وجلّ، وسنّته في خلقه فيهم مخادعة، لأنّهم أوقعوا أنفسهم فيما يضلون به أنفسهم وينتهي بهم إلى العقاب والنكال»[٥]،

---

[١] ينظر: الاتقان: ٣ / ٢١٧.

[٢] ينظر: لسان العرب: مادة (شكل): ٧ / ١٧٦.

[٣] مفتاح العلوم: ٦٦١.

[٤] النساء: الآية / ١٤٢.

[٥] مواهب الرحمن: ١٠ / ٤٨.

إنّ صاحب المواهب لم يخرج عمّا أقره السكاكي في تعريفه أنّ سبحانه وتعالى عبّر بلفظ الخداع ونسبه إلى نفسه من باب المشاكلة، لأنّه وقع مصاحباً للفظ الخداع الحاصل من المنافقين.

ويبيّن أنّ إطلاق النفس على الله سبحانه وتعالى من المشاكلة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾[١]، قال: وإطلاق النفس عليه جلّت عظمته لحسن المشاكلة ومراعاة الفصاحة والبلاغة»[٢]، وسبب المشاكلة لاختصاص لفظ النفس بالأجسام، ولقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٣] والموت محال بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى فهو الحيّ القيوم... فلا يمكن فهم إطلاق لفظ (نفس) عليه إلا على سبيل المشاكلة[٤]، وأكد صاحب المواهب في موضع آخر إنّ المشاكلة من المحسّنات البلاغية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٥]، قال: «يستفاد من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ كمال رحمته وسعتها وفضله العميم وجوده الواسع... ولعلّ ذكر اليد لأجل المشاكلة والمجارة، فاليهود نسبوا غلّ اليد إليه عزّ وجلّ، وهو تعالى نفاه عنه بمثل ما قالوا، وليس بذلك عادم النظير، بل هو من المحسّنات البلاغية، قال

---

[١] المائدة: الآية: ١١٦.

[٢] مواهب الرحمن: ٧ / ١٤١.

[٣] آل عمران: الآية / ١٨٥.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٧ / ١٤١.

[٥] المائدة: الآية / ٦٤.

تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١]، وعلى هذا لا يكون الاستعمال إلا لأجل المشاكلة والمجاراة»[٢].

لقد بيّن صاحب المواهب أنّ نسبة المكر إلى الله سبحانه وتعالى مشاكلة في اللفظ، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٤]، فالمكر «لا يجوز نسبته إليه عزّ وجلّ لأنّه منزه عن المكر والخديعة فلا يطلق عليه تعالى إلا عن طريق المشاكلة»[٥]، وهو يخالف الزمخشري الذي يرى أنّ الله شُبّه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة[٦].

وفي ضوء ما عرض من الأمثلة نجد أنّ السيّد السبزواري يؤكد أنّ المشاكلة من المحسّنات البلاغية، وإنّ فيها حسناً ومزايا تفتقد إذا ما ذكر اللفظ الحقيقي المعبّر عنه، وهي أسهمت في فهم التعبير القرآني كإيضاحها نسبة المكر والخداع إلى الله سبحانه وتعالى.

«الاستخدام»

يعدّ الاستخدام فنّاً من الفنون البديعية وأحد محسّناته المعنوية وقد حدّه

---

[١] آل عمران: الآية / ٥٤.

[٢] مواهب الرحمن: ١١ / ٤٧٦.

[٣] النمل: الآية / ٥٠.

[٤] الأعراف: الآية / ٩٩.

[٥] مواهب الرحمن: ٥ / ٣٨٣.

[٦] ينظر: الكشاف: ٢ / ١٢٦، وينظر: ٣ / ٣٧٧.

القزويني بقوله: «وهو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثمّ بضميره معناه الآخر أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالآخر الآخر»[١]، من هنا يتبين أنّ للضمائر دوراً هاماً في الاستخدام ولا بدّ أن يراد بالاسم الظاهر غير دلالة الضميرين وإلا كان أحدهما خارجاً من الاستخدام[٢] ورأى الدكتور بسيوني عبد الفتاح إنّ بلاغة الاستخدام تكمن فيما يحققه من الإيجاز وكذلك فيما يحققه من تنبيه المخاطب وايقاضه وإثارة فكره، فيكون المعنى أوقع في النفس وأبلغ وأقوى أثراً[٣].

وأشار السيّد السبزواري إلى الاستخدام في تفسيره، وعدّه من محسّنات الكلام ومن أساليب العرب المعروفة، ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً﴾[٤] فرأى أنّ الضمير في بعولتهنّ يرجع إلى بعض المطلقات على سبيل الاستخدام، هنّ الرجعيات دون جميع المطلقات، قال: «في قوله تعالى نوع من الاستخدام الذي هو من المحسّنات الكلامية وهو عبارة عن أن تكون الكلمة لها معنيان فيذكر أحدهما ثمّ يراد بالضمير الراجع إليها معناه الآخر، ففي المقام يراد من المطلقات العموم ـ الأعم من البائن والرجعي ـ ومن الضمير الراجع إليها قسم خاص منها، وهو من الأساليب المعهودة في كلام العرب وورد في القرآن الكريم كثيراً»[٥].

وأشار في موضع آخر إلى الاستخدام وهو يفسر قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ

---

[١] الايضاح: ٢٠٢.

[٢] ينظر: البلاغة وقضايا المشترك اللفظي، د. عبد الواحد حسن الشيخ: ٢٢٤.

[٣] ينظر: علم البديع. د. بسيوني عبد الفتاح فيود: ١٨٥.

[٤] البقرة: الآية / ٢٢٨.

[٥] مواهب الرحمن: ٤ / ١٦ ـ ١٧.

بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[١] رأى أنّ الضمير المنصوب راجع إلى البلد أو الحرم على سبيل الاستخدام بقرينة قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾[٤]، فبيّن الاستخدام بقرينة آيات سابقة، فيها الأمن صفة للحرم مرّة وللبلد مرّة أخرى[٥].

وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[٦] يرى أنّ: «اسم (ليس) في قوله تعالى مستتر فيها يعود على الوعد بالمعنى المصدري أو الموعود المستفاد من سياق الآية الشريفة فهو قسم من الاستخدام الذي هو من الأساليب البديعية المعروفة ومن محسّنات الكلام[٧].

يؤكد السيّد السبزواري أنّ الاستخدام من محسّنات الكلام في الأمثلة التي يتناولها، ويذكر كذلك وروده في القرآن الكريم كثيراً، وهذا يشير إلى أنّ القرآن الكريم قد جارى العرب في أساليبهم ولم يخرج عن نطاق استعمالاتهم، فهو نزل بلغتهم دائراً في مدار أساليبهم الفصيحة.

---

[١] آل عمران: الآية / ٩٧.

[٢] إبراهيم: الآية / ٣٥.

[٣] العنكبوت: الآية / ٦٧.

[٤] القصص: الآية / ٥٧.

[٥] ينظر: مواهب الرحمن: ٦ / ١٦٤.

[٦] النساء: الآية / ١٢٣.

[٧] مواهب الرحمن: ٩ / ٣٤٤.

«الإبهام»

الإبهام لغةً من أُبهم، وأبهم الأمر: اشتبه، وكلام مُبهم: لا يعرف له وجه، وأن يبقى الشيء لا يعرف المأتى إليه، وأبهمت الباب أغلقته[١].

أمّا في الاصطلاح فقد حدّ الرازي الإبهام بقوله: «هو أن يكون للفظ معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد فالسامع يسبق فهمه للقريب مع أنّ المراد هو ذلك البعيد»[٢]، وقد ذكر هذا الفن البديعي ابن أبي الإصبع المصري ولكن بمفهوم مختلف عمّا ذكره الرازي، إذ عرّفه بقوله: «هو أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما حصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيه قصداً»[٣].

وذكر العلوي الإبهام وأفرد له فصلاً خاصاً ومثّل له من القرآن الكريم والسنّة الشريفة قال فيه: «إنّ المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً، فإنّه يفيد بلاغةً، ويكسب إعجاباً وفخامةً، وذلك لأنّه إذا قرع السمع على جهة الإبهام، فإنّ السامع له يذهب في إبهامه كلّ مذهب»[٤].

وعرض صاحب المواهب إلى هذا اللون البلاغي في إثناء تفسيره للآيات الشريفة، ونظر بعين الدقة وسبر أغوار المعاني التي يمكن أن يفيدها الإبهام، ومنها

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (بهم): ١ / ٥٢٤، وينظر: معجم مقاييس اللغة: ١ / ٣١١.

[٢] نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز: ١٤٨.

[٣] تحرير التحبير: ٥٦٦.

[٤] الطراز: ٢٤٠.

أنّه يفيد التعظيم كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[١]، قال: «وفي إبهام الأجر واختيار اسم الجلالة للدلالة على عظم الأجر الذي لا يقدّر بقدر ولا يعلم كنهه ولا حقيقته إلا هو لأنّه من الذات المقدسة»[٢].

فدلّ إبهام الأجر على عظمته لأنّه من الله، وليس باستطاعة أحد أن يصل إلى ماهيّته، ومنه ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[٣]، قال: «إنّما ذكر عزّ وجلّ ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، وهو ذنب التولي والإعراض الذي هو ذنب عظيم، إيذاناً بأنّ لهم ذنوباً، فهذا واحد من جملتها، وإيماء بتغليط العقاب، فإنّه يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم، فيهلكوا أو تسوء عاقبتهم، فيكون الإبهام لتعظيم ذنب التولي»[٤].

أكد هذا المثال أنّ الإبهام يفيد التعظيم ليذهب ذهن السامع فيه كلّ مذهب ويكون أدعى للموعظة.

وقد يبهم الفاعل في السياق القرآني ويجيء الفعل بصيغة المبني للمفعول لبيان أمر ما كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٥]، قال: «يؤت مبني للمفعول مجزوم بأداة الشرط، والحكمة مفعول ثانٍ، وإنّما أبهم تعالى الفاعل مع أنّه معلوم ممّا تقدم وهو الله تعالى، لبيان أنّ

---

[١] النساء: الآية / ١٠٠.

[٢] مواهب الرحمن: ٩ / ١٩٣.

[٣] المائدة: الآية / ٤٩.

[٤] مواهب الرحمن: ١١ / ٣١٤.

[٥] البقرة: الآية / ٢٦٩.

الحكمة بنفسها منشأ الخير الكثير، فالحكمة والخير الكثير مقرونان، فمن تلبّس بها فقد حظي بالخير الكثير، فلا يحتاج الانتساب إلى الفاعل في توصيفها به»[١]، فإبهام الفاعل في الآية الكريمة أريد منه بيان أهمية الحكمة وإنّها أصل الخير الكثير، وأشار أيضاً إلى إبهام الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾[٢]، قال: «إنّما أبهم الفاعل في قوله تعالى ﴿يُوَفَّ﴾ لبيان أنّ الغرض من الانتفاع يعود إلى الفاعلين للإنفاق وليس هناك فاعل غيرهم»[٣]، أنّ إبهام الفاعل لأجل إفادة معنى أنّ فاعل الإنفاق هو المنتفع وهو الذي سيجازى به.

ومن الأغراض الأخرى التي أشار إليها صاحب المواهب التي تستفاد من الإبهام التخويف، وذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٤]، قال: «الناصب ليوم إمّا فعل محذوف تقديره (إذكر) على أنّه مفعول به، أو محذوف متأخر تقديره، ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، وترك ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف»[٥]، أي أنّه عزّ وجلّ ترك ذكر ما يفعل بهم في يوم الحشر ليكون ذلك أقرب إلى التخويف حتّى يرتدوا عن فعل الذنوب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٦]، قال: «إبهام الشيء لبيان النهي عن كلّ سؤال يتعلق بأمر يتعلق

---

[١] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٨٥.

[٢] البقرة: الآية / ٢٧٢.

[٣] مواهب الرحمن: ٤ / ٣٩٤.

[٤] الأنعام: الآية / ٢٢.

[٥] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٥٢.

[٦] المائدة: الآية / ١٠١.

الغرض بإخفائه، لكون الاطلاع على حقيقته يوقع الإنسان في المهلكة والشقاء»[١]، فالإبهام أرشد المؤمنين ونهاهم عن الأسئلة التي إن اطلعوا على حقيقتها تؤدي بهم إلى الهلاك لأنّها بعيدة عن تصورهم وفوق مستوى عقولهم.

نجد أنّ السيّد السبزواري يشير إلى الإبهام في مواضعه في القرآن الكريم، ويشير إلى بلاغته وأنّه أفصح في إيراد المقصود، وهو يتابع العلوي في وصفه للإبهام بأنّه من فنون البديع، وإذا نظر فيه حاذق بصير، وفكّر فيه المعيّ نحرير، وجده مع ما قد حاز من البلاغة مشتملاً على مبانٍ جمّة، ونكت غزيرة، ومواعظ زاجرة على تقارب أطرافه وكثرة محاسنه وأوصافه[٢].

---

[١] مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٨٠.

[٢] ينظر: الطراز: ٢٤١.

المبحث الثاني
«المحسنات اللفظية»

الجناس

الجنس لغةً: الضرب من كلّ شيء، وهو من الناس والطير، والعروض والأشياء عامّة، والجمع أجناس وجنوس، والجنس أعمّ من النوع، ومنه المجانسة والتجنيس[١]، والجناس فن من فنون البديع اللفظيّة، وجعله ابن المعتز ثاني أنواع البديع الخمسة التي عدّها في كتابه البديع، وعرّفه بقوله: «التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر أو كلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها»[٢]، وسمّاه الرمّاني التجانس، وقال: «تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة، والتجانس على وجهين: مزاوجة ومناسبة»[٣]، وذكر الحاتمي المجانسة وقال: «هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى»[٤]، وقسّم أسامة بن منقذ (ت: ٥٤٨ هـ) الجناس على ثمانية أجناس، وهي: التجنيس المغاير، والتجنيس المماثل، وتجنيس التصحيف، وتجنيس التحريف، وتجنيس التصريف، وتجنيس الترجيح، وتجنيس العكس، وتجنيس التركيب[٥].

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (جنس): ٢ / ٣٨٣.

[٢] كتاب البديع: ٢٥.

[٣] النكت في اعجاز القرآن: ٩١.

[٤] حلية المحاضرة: ١ / ١٤٦.

[٥] ينظر: البديع في نقد الشعر: ١٢ ـ ٣٢.

وأشار السيّد السبزواري إلى الجناس عند تفسيره الآيات المشتملة عليه، فضلاً عن بيان نوعه، كما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[١]، حيث بيّن أنّه من تجنيس التحريف، قال: «في قوله تعالى: ينهون وينأون من التجنيس البديع وأنّه من تجنيس التحريف، وهو أن تنفرد كلّ كلمة عن الأخرى بحرف، فينهون انفردت بالهاء، وينأون بالهمزة»[٢].

ثمّ ذكر التجانس اللفظي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣]، قال: «تسمية ذلك بالاستهزاء من باب التجانس اللفظي فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٥]، فإنّ جزاء الظلم ليس بظلم»[٦].

وتابع صاحب المواهب الرماني وأبا هلال العسكري في عدّ الازدواج قسم من الجناس[٧]، ونلحظ ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[٨]، قال: «إنّما عبّر سبحانه وتعالى بالاعتداء من باب

---

[١] الأنعام: الآية / ٢٦.

[٢] مواهب الرحمن: ١٣ / ١٧٩ ـ ١٨٠.

[٣] البقرة: الآيتان / ١٤ ـ ١٥.

[٤] الشورى: الآية / ٤٠.

[٥] البقرة: الآية / ١٩٤.

[٦] مواهب الرحمن: ١ / ١٣٢.

[٧] ينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٩١، وينظر: كتاب الصناعتين: ٢٦٠.

[٨] البقرة: الآية / ١٩٤.

المجانسة اللفظية والازدواج في الكلام وإلا فليس ذلك اعتداء»[١]، فهو يؤكد أنّ الجناس من محسّنات الفصاحة والبلاغة، وهو معروف بين علماء الأدب، وهو عبارة عن إتيان لفظين متّحدي المعنى في الجملة مع اتصاف أحدهما بالحسن، والآخر بالقبح، فإنّ الاعتداء الأول قبيح، والثاني حسن، لأنّه من دفع الظلم والعدوان[٢].

ويرى أنّ في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣]، جناساً حسناً، لأنّه لا يمكن أن يسمّى قتال المسلمين للكفار عدواناً مع أنّه حق، إنّما هو من باب المجانسة، فلأنّهم في مقام الاعتداء فسمى جزاء الاعتداء اعتداء، أي أنّ أصل العدوان إنّما وقع عليهم بفعلهم[٤].

يلحظ ممّا تقدم أنّ المفسّر لم يكتف بالوصف في طرحه البلاغي، إنّما كان محللاً ومعللاً للاستعمال القرآني للجناس، وأشار إلى أنّه من الفنون البديعية الحسنة، على الرغم من قلّة إشاراته إلى مواضعه.

فالجناس له دور مهم في تحسين الكلام إذا لم يكن متكلّفاً، ويزيده حلاوة وجمالاً إذا جرى مجرى الطبع[٥]، فالجناس كما كشفت أمثلته التي تعامل معها السيّد السبزواري لا يقف عند حدود الشكل، إنّما يتجاوز ذلك ليؤثّر في نسبة إدراك المعنى وتحليل الخطاب القرآني وفهمه وفق ضوابط السياق التي ينتج

---

[١] مواهب الرحمن: ٣ / ١٤٤.

[٢] ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ١٥٣ ـ ١٥٤.

[٣] البقرة: الآية / ١٩٣.

[٤] ينظر: مواهب الرحمن: ٣ / ١٤٣.

[٥] ينظر: فن الجناس (بلاغة ـ أدب ـ نقد)، د. علي الجندي: ١٥.

عنها المعنى، وهذا يفسّر نسبة ألفاظ (الخداع، الاعتداء، الاستهزاء) إلى الله تعالى، وهي نسبة غير حقيقية.

«رد العجز على الصدر»

يعد ابن المعتز أوّل من تكلّم عن هذا الفن البديعي اللفظي، فقد عدّه في كتابه أحد فنون البديع الخمسة الكبرى، وسمّاه رد إعجاز الكلام على من تقدمها[١]، وسمّاه أبو هلال العسكري رد الإعجاز على الصدور، قال: «إنّ لرد الإعجاز على الصدور موقعاً جليلاً من البلاغة، وله في المنظوم محل خطير»[٢]، وجاء فخر الدين الرازي ليسمّيه رد العجز على الصدر، ويعرّفه بقوله: «هو كلّ كلام وجد في نصفه الأخير لفظ يشبهه لفظاً موجوداً في نصفه الأول»[٣]، ورأى القزويني أنّ رد العجز على الصدر يرد في النثر والشعر على السواء، قال: «هو في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها، وفي النظم أن يكون أحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثاني»[٤].

ولم يخف هذا الفن البديعي عن ملاحظة صاحب المواهب، إنّما أشار إليه في المواضع المناسبة وعدّه من بديع الأسلوب ومن المحسنات وسمّاه بإرجاع ختم

---

[١] ينظر: كتاب البديع: ٤٧، وينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق: ٢١٥.

[٢] كتاب الصناعتين: ٣٨٥.

[٣] نهاية الإيجاز: ٦٢.

[٤] التلخيص: ١٠٤.

الكلام إلى بدئه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١]، قال: «إرجاع ختم الكلام إلى بدئه وهو من محسّنات البيان، فقد سبق أن ذكّر سبحانه وتعالى بني إسرائيل أنواع نعمه، وهنا ختم بتذكيرهم لها أيضاً لتتمّ الحجة عليهم أو غير ذلك من المصالح»[٢]، لقد بيّن السيّد السبزواري في تفسيره للآية الكريمة دلالة أول الكلام على آخره وارتباط آخره بأوله في تذكير بني إسرائيل نعمه لمصالح عدّة، منها التأكيد على إتمام الحجة عليهم.

وفي موضع آخر أطلق عليه اسم رجوع الذيل إلى الصدر، وهو يعرض لقوله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣]، قال: «إنّ السبب في نفي الخيرية عنهم أنّهم اختلفوا ولم يجتمعوا على الإيمان والثبات عليه، فكان هذا الذيل راجعاً إلى صدر الآيات التي أمرنا فيها بالاعتصام بحبل الله والاجتماع، فيرجع الذيل إلى الصدر، وهذا من بدايع الأسلوب، كما فيه التأكيد على أهمية الاجتماع ونبذ الافتراق»[٤]، بيّن أنّ رد العجز على الصدر فضلاً عن أنّه من بديع الأسلوب قد أفاد التوكيد لمعنى سابق، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[٥]، والسبب لأنّ الاجتماع له أهمية في حفظ أركان المجتمع، فأشار عزّ وجلّ إليه في بدء الكلام أكد عليه

---

[١] البقرة: الآية / ١٢٢.

[٢] مواهب الرحمن: ١ / ٥٨٠.

[٣] آل عمران: الآية / ١١٠.

[٤] مواهب الرحمن: ٦ / ٢٤٥.

[٥] آل عمران: الآية / ١٠٣.

عند ختمه لتأكيد المعنى، وأكّد في موضع آخر أنّه من الأساليب الحسنة في الكلام عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[١]، قال: «إنّما جمع الله سبحانه وتعالى بين طاعة الله وطاعة الرسول لبيان أنّ طاعته طاعة الله تعالى وإنّهما أصلان يكمّل أحدهما الآخر ولا سبيل للتفكيك بينهما ولتأكيد مضمون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[٢]، فرجع الختام إلى ما بدء به الكلام وهو من الأساليب الحسنة في الكلام»[٣].

وفي ضوء ما تقدم نجد أنّ السيّد السبزواري يشير إلى أنّ هذا الفن البديعي من الأساليب الحسنة، وهو يفيد أيضاً توكيد مضمون الجملة التي بدأ بها الكلام، وبهذا يكون قد أثبت غرضاً مهماً لرد العجز على الصدر، فليس الغاية منه تحسين الكلام فقط، بل تجاوز الشكل وأفاد التأكيد، أي: إنّ جملة العجز مؤكّدة لمضمون جملة الصدر.

«براعة الاستهلال»

الاستهلال لغةً من: أهلّوا الهلالَ واستهلّوه: رفعوا أصواتهم عند رؤيته، وأهلَّ الصبي واستهلَّ إذ رفع صوته بالبكاء، وجئته عند مهلّ الشهر ومستهلّه، وما أحسن مستهلّ قصيدته: مطلعها[٤].

---

[١] النساء: الآية / ٦٩.

[٢] النساء: الآية / ٥٩.

[٣] مواهب الرحمن: ٩ / ٦.

[٤] ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري: ٢ / ٥٥١.

وقد درس علماء البديع هذا المصطلح وأطلقوا عليه تسميات عدّة، كحسن الابتداء أو براعة المطلع فضلاً عن براعة الاستهلال، وقد عدّ ابن المعتز (حسن الابتداءات) من محاسن الكلام وضرب الأمثلة على ذلك واختارها من الشعر العربي، إلا أنّه لم يضع له حداً ولم يعلّق عليه[١].

ويرى أبو هلال العسكري أنّ الابتداء إذا كان حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعيةً إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام[٢]، وخصّه العلوي بفصل خاص اسماه (في المبادي والافتتاحات) ويرى أنّه: «ركن من أركان البلاغة، وحقيقته آئلة إلى أنّه ينبغي لكل من تصدّى لمقصد من المقاصد وأراد شرحه بكلام أن يكون مفتتح كلامه ملائماً لذلك المقصد دالاً عليه»[٣].

ولم يخف هذا الفن البديعي على صاحب المواهب، وإنّما لاحقه بالإشارة إليه عند تفسيره الآيات الكريمة، وبالذات عند مفتتح السور الشريفة، وأكّد أنّه لون معروف في علم البديع، فرأى أنّ ابتداء سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[٤]، من أجمل براعة الاستهلال، قال: «لعل الابتداء بالدعوة إلى الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق، وتخصيص الخطاب بالمؤمنين وذكرهم في مفتتحها وفوزهم بشرف النداء الربوبي، لأنّهم

---

[١] ينظر: كتاب البديع: ٧٥.

[٢] ينظر: كتاب الصناعتين: ٤٣٧.

[٣] الطراز: ٣٣٠.

[٤] المائدة: الآية / ١.

استعدّوا بعد الجولة الطويلة معهم له، وعرفوا عظيم الأمر في بقاء الشريعة الختمية وحفظها من كيد الأعداء والضياع، مع أنّ ذلك من أجمل براعة الاستهلال المعروفة في علم البديع، لأنّ فيها تلقين النفوس وترويضها على قبول هذا الحكم الإلهي، لأنّه من كمال الدين وإتمام النعمة»[١].

وقد ردّ صاحب المواهب على صاحب الكشاف بخصوص الآية الكريمة، قال: «استظهر الزمخشري وتبعه آخرون أن يكون المراد عقود الله تعالى عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه، لما فيه من براعة الاستهلال، ومن التفصيل بعد الإجمال[٢]، ولا يخفى إنّما ذكره وان كان وجيهاً، إلا أنّه لا ينافي التمسك بعموم اللفظ، والحكم بأنّه يعمّ جميع ما ألزمه الله تعالى على عباده وعقد عليهم من التكاليف والأحكام وما يعقدونه بينهم من العقود والعهود وغيرها ممّا يجب الوفاء بها فإنّ به يجمع بين ما يقتضيه اللفظ من الوجوه الأدبية البلاغية، ومن المقصود من ظاهر الكلام»[٣].

يدعو السيّد السبزواري ويؤكّد على مراعاة الوجوه الأدبية والبلاغية عند تفسير القرآن الكريم، ومن براعة الاستهلال يستفاد أنّ المقصود من الآية الكريمة عموم التكاليف والأحكام والعقود والعهود، لا كما يرى الزمخشري من أنّها عقود الله عزّ وجلّ في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه.

وأكّد أيضاً أنّ من براعة الاستهلال افتتاح السور الكريمة بما يتضمّن

---

[١] مواهب الرحمن: ١٠ / ٢٨٠.

[٢] ينظر: الكشاف: ١ / ٦٣٥.

[٣] مواهب الرحمن: ١٠ / ٢٨٥.

المقصود منها من نعم ظاهرية ومعنوية وغيرها، وكان اللفظ موجزاً والأسلوب جزلاً، فإنّ ذلك يكون في غاية الحسن، بيّن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بربِّهِمْ يَعْدلُونَ﴾[1]، قال: «مفتتح سورة مباركة احتوت من أصول المعارف أعلاها وأزكاها، ومن العلوم الربانية أسناها وأعظمها، ففيها التوحيد بأدلته وبراهينه القويمة، وصفات الواحد الأحد بأجزل الأسلوب وأعذب بيان يتقبّله الطبع المستقيم وتشتاق إلى مضامينه القلوب على اختلاف طبايعها... فكانت الغاية في حسن براعة الاستهلال لتضمّنها المقصود والوسيلة والأداة، بأوجز عبارة وأجزل أسلوب»[2].

وأوضح المعنى السابق نفسه ـ أي أنّ من براعة الاستهلال أن يكون مفتتح السورة متضمّناً ما فيها، كأنّه خلاصةٌ لها ـ وذلك عند تفسيره الآيات الأولى من سورة آل عمران وهو قوله تعالى: ﴿الم * اللَّهُ لا إلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ بالْحَقّ مُصَدّقاً لمَا بَيْنَ يَدَيْه وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجيلَ * منْ قَبْلُ هُدىً للنَّاس وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بآيَات اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ شَديدٌ وَاللَّهُ عَزيزٌ ذُو انْتقَام * إنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ في الأَرْض وَلا في السَّمَاء * هُوَ الَّذي يُصَوّرُكُمْ في الأَرْحَام كَيْفَ يَشَاءُ لا إلَهَ إلا هُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾[3]، قال: «في الآيات المتقدمة براعة الاستهلال تتضمّن خلاصة ما يذكر في هذه السورة

---

[1] الأنعام: الآية / ١.

[2] مواهب الرحمن: ١٣ / ٥ ـ ٧.

[3] آل عمران: الآيات / ١ ـ ٦.

المباركة، فقد أثبت سبحانه وتعالى مهام صفاته العليا وأورد عزّ وجلّ ذكر الكتب الإلهية وحذّر الكافرين من أفعالهم وأوعدهم بالعذاب الشديد، ثمّ ذكر ما هو بمنزلة العلّة لما ورد في المقدمة وأرشد المؤمنين إلى تذكّر آلاء الله تعالى وصفاته العليا التي بها يدوم العالم وينتظم نظام الخلق»[١].

وأشار إلى براعة الاستهلال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

قال: «يدل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ على عظيم فضل الرسالة وشرفها الكبير، إذ خاطب الله عزّ وجلّ بها أعز خلقه وأحبهم إليه، وذكرها بالخصوص مع تعدد الأوصاف الكمالية لنبيّنا الأعظم (صلّى الله عليه وآله) بتبليغ ما أوحي إليه، فكان فيه براعة الاستهلال بأحسن أسلوب وأعذبه، ولاشتماله على الحنان والمحبة من لدن الحكيم الخبير لرسوله الكريم فلا يبالي بما سيحدث من القوم، فإنّ الكامل لا يتأثّر بفعل الناقص»[٣].

رأى صاحب المواهب أنّ الخطاب بصفة الرسول لأجل ما تضمّنته الآية من التبليغ، فهو برهان على وجوب تبليغه، فهو أمر مهم يخصّ هذا الدين الذي تمّ تبليغه بأتمّ وجه، فكان الابتداء بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ فيه من براعة الاستهلال بأسلوب حسن وعذب.

وهو يتفق مع من كان قبله من علماء البلاغة، فالقزويني رأى أنّ جميع فواتح

---

[١] مواهب الرحمن: ٥ / ٤ ـ ٥.

[٢] المائدة: الآية / ٦٧.

[٣] مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٣.

السور واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها يظهر ذلك بالتأمّل فيها مع التدبّر[١]، ورأى ياسين النصير أنّ للاستهلال وظيفتان، الأولى: جلب الانتباه ويتمّ بأدوات كلامية حسنة، وبأسلوب تعبير مثير، أمّا الوظيفة الثانية: هي التلميح بأيسر القول عمّا يحتويه النص[٢] وقد أوضح المفسّر كلا الوظيفتين عند إشارته إلى براعة الاستهلال كما هو واضح من الأمثلة السابقة.

أكّد صاحب المواهب من خلال ما مرّ في الإشارة إلى براعة الاستهلال على فواتح السور محاولاً إضاءتها والتنويه على ما فيها من لفتات بلاغية وما تضمنته من معانٍ هي خلاصةٌ لما في السور الكريمة أو أنّها تتضمن المقصود منها.

«الاعتراض»

وقف كثير من البلاغيين المتقدّمين عند الاعتراض، فقد وضعه أبو هلال العسكري ضمن فنون البديع، وحدّه بقوله: «هو اعتراض كلام في كلام لم يتمّ، ثمّ يرجع إليه فيتمّه»[٣]، وأفرد العلوي فصلاً خاصاً به وعرّفه بقوله: «هو كلّ كلام أدخل في غيره أجنبي بحيث لو أُسقط لم تختل فائدة الكلام»[٤]، وهو يرى أنّ الاعتراض يدخل لفائدة أو غير فائدة، وإنّ كتاب الله تعالى منزّه عن مثل هذا الاعتراض الذي ليس منه فائدة، لأنّه غير لائق بالكلمات البليغة[٥]، وعرّفه ابن

---

[١] ينظر: الايضاح: ٢٤٤.

[٢] ينظر: الاستهلال (فن البدايات في النص الادبي): ٢٢ ـ ٢٣.

[٣] كتاب الصناعتين: ٣٩٤.

[٤] الطراز: ٢٨٣.

[٥] ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٦ .

الناظم بقوله: «هو أن تأتي في أثناء الكلام بكلام يفيد: أمّا رفع الشك والاغناء عن تقدير السؤال، وأمّا تقرير المعنى وتوكيده»[١]، فهو قد خصّ الاعتراض بفائدتين فقط، وهو خلاف ما أثبته العلوي من فوائد متعددة له[٢].

وتابع صاحب المواهب العلوي في رأيه من أنّ الاعتراض في القرآن الكريم لا يكون إلا لفائدة، ونلحظ ذلك بصورة واضحة عند إشارته للأغراض التي يفيدها في كل موضع من مواضعه في القرآن الكريم، وهو يرى أنّه من الأساليب البلاغية المستحسنة عند البلغاء والفصحاء، وقد ذكر ذلك عند تفسير الآية الكريمة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣]، رأى أن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ كلام معترض جاء لفائدة واستدل على ذلك من سياق الآية الكريمة قال: «سياق الآية الكريمة يدل على أنّها جملة معترضة أُقحمت في ضمن الآية الكريمة المباركة التي نزلت لبيان محرمات الطعام، ومن عادة القرآن الكريم أنّه إذا أراد بيان أمر من الأمور التي لها أهمية خاصّة أدرجه في ضمن

---

[١] المصباح: ٢٢٨.

[٢] ينظر: الطراز: ٢٨٣ ـ ٢٨٦.

[٣] المائدة: الآية / ٣.

الآيات الكريمة لحكم متعددة، ويعتبر ذلك أسلوباً بلاغياً مستحسناً عند البلغاء والفصحاء»[١].

ثمّ يعطي مثالاً يختلف عن المثال الأول يؤكّد فيه أنّ الجملة الاعتراضية ترد في السياق القرآني لبيان قضية مهمة من مثل عصمة أهل البيت، في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٢]، قال: «إنّ الآيات الشريفة نزلت في شأن نساء النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم)، إلا أنّ قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ جملة معترضة ذات دلالة مستقلة لا تتوقف على بقية الآية الشريفة تبين قضية مهمة، وهي عصمة أهل بيت النبي الذين قرن الله طاعتهم بطاعته»[٣]، ثمّ يعود بعد إيراد هذا المثال إلى المقام الأول لإيضاح فائدة الاعتراض وأهميته، قال: «في المقام: صدر الآية المباركة يدلّ على حرمة الميته وبقية محرمات الطعام، وذيلها يدل على حليتها حال الاضطرار والمخمصة، مجموع الصدر والذيل له وحدة دلالية كاملة متناسقة لا تتوقف على شيء آخر، فيكون قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ...﴾ كلاماً معترضاً أُقحم في الآية الكريمة، ولا تتوقف دلالة

---

[١] مواهب الرحمن: ١٠ / ٣٤١.

[٢] الأحزاب: الآيات / ٣٢ ـ ٣٤.

[٣] مواهب الرحمن: ١٠ / ٣٤١.

أحدهما على الأخرى، فكل واحد منهما له دلالته الخاصة، ويبيّنان أمرين، أحدهما محرمات الطعام، والثاني كمال الدين وتمامه وظهوره على الشرك كلّه، وأنّه لا مطمع لأعداء هذا الدين في زواله ويؤيد ذلك أنّ أغلب الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية الشريفة تخص قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ...﴾ بالذكر ولم تتعرّض لصدر الآية المباركة ولا لذيلها، فيستفاد أنّ له نزولاً مستقلاً عن نزول الآية الشريفة، فإنّما وضع في وسط الآية لحكم»[1].

وفق ما قاله السيّد السبزواري نجد أنّه يعيّن الجملة المعترضة بعد أن يؤكّد مخالفتها للسياق الذي وردت فيه محللاً ومعلّلاً ذلك، ومستنداً أيضا على روايات أسباب النزول ثمّ يذكر بعد ذلك فائدتها التي تكون ـ كما في المثال السابق ـ لإبراز أمر هام كالعصمة وكإكمال الدين، وإتمام النعمة، وهي من الأمور التي لها أهمية خاصة، فمجيئها ضمن سياق قرآني آخر كان لأجل إظهار هذه الفائدة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2]، يرى أنّ جملة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ اعتراضية أفادت تعظيم شأن المولود، قال: «الجملة معترضة مقولة له عزّ وجلّ... والمراد من الجملة تعظيم شأن المولود، أي: إنّ الله تعالى هو الذي خلقها وصوّرها وهو أعلم بما تحمل من الأسرار وعظائم الأمور التي ربما لا تكون تلك ممكنة في المولود الذكر الذي كانت ترجوه والأم غافلة عن جميع ذلك، فلو كانت عالمة

---

[1] مواهب الرحمن: ١٠ / ٣٤١ ـ ٣٤٢.

[2] آل عمران: الآية / ٣٦.

بـذلك لما أظهـرت التحـزّن والتحسّر في وضعها أنثى»[١].

فهو أشار إلى ما أشار إليه العلوي من أنّ الاعتراض يفيد التعظـيم عنـد كلامـه عن الفائدة التي تليق بالبلاغة، وقد استشهاد على ذلـك بـبعض الأمثلـة مـن القـرآن الكريم[٢].

ومن فوائد الاعتراض تقرير المعنى وقد ذكر ذلك كـل مـن العلـوي[٣]، وابـن الناظم[٤]، وأشار صاحب المواهب إلى هذه الفائدة عنـد تفسـيره قولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾[٥]، حيث رأى إنّ جملة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، «اعتراضـية مقرّرة لما سبق لعفـوه تعـالى، الذي يشمل جميع مـا فـرط مـنهم مـن الأسـئلة التـي كانت توجب المشقّة والضيق، فرحمهم عنها بغفرانه»[٦].

وأكد السيّد السبزواري أنّ الجملة الاعتراضية يؤتى بها لغرض التوكيد، وهـو بـذلك يـرى مـا يـراه ابـن النـاظـم الـذي جعـل التوكيـد مـن فـوائـد الجملـة الاعتراضية[٧] وكـشـف عـن ذلـك عنـد تـفـسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَا لِمَنْ

---

[١] مواهب الرحمن: ٥ / ٢٨٩.

[٢] ينظر: الطراز / ٢٨٤ .

[٣] ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٤.

[٤] ينظر: المصباح: ٢٢٨.

[٥] المائدة: الايتان: ١٠١ ـ ١٠٢.

[٦] مواهب الرحمن: ١٢ / ٢٨٥.

[٧] ينظر: المصباح: ٢٢٨.

تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[1]، فعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ «جملة اعتراضية بين أقوال الكائدين جيء بها للتأكيد على عدم أضرار كيدهم بمن لطف به الله تعالى، ولتثبيت إيمان المؤمنين، وللتعجيل في تقريعهم، والاهتمام ببيان فساد ما ذهبوا إليه، وتسفيهاً لآرائهم»[2].

يظهر ممّا سبق أنّ المفسّر قد اهتم بمبحث الاعتراض، يلحظ ذلك من خلال تعيين مواضعه مع الإشارة للفائدة المتحققة منه في كلّ موضع، فمجيء جملة اعتراضية بين جمل مترابطة يشدّ بعضها بعضاً وحدة كلامية لا يكون إلا لغرض معيّن، فهو لا يرد اعتباطاً ضمن السياق القرآني إلا لأجل معانٍ سامية.

يستفاد ممّا تقدم من إشارات السيّد السبزواري إلى فنون البديع المعنوية واللفظية أنّها من الفصاحة والبلاغة، وأنّ دورها يتعدى حدود الشكل وتحسين الكلام، إنّما مع هذه الفائدة لها فوائد بلاغية كما لمباحث علمي المعاني والبيان، وهذا يؤكّد النظرة الحديثة لعلم البديع، كما جاء في قول الدكتور ناصر حلاوي: «النظرة إلى المحسّن البديعي على أنّه ظاهرة عرضية زائدة لم تعد أمراً مقبولاً في ضوء المفاهيم اللغوية الحديثة»[3].

يكشف هذا أنّ فنون البديع من ضمن الأدوات التعبيرية المهمة التي تشكّل في النهاية مع أدوات أخرى سياق الكلام المؤثّر، الغني بالمعنى في اللغة العربية ولا يؤتى به لأجل تزيين وتجميل العبارة فقط.

---

[1] آل عمران: الآية / ٧٣.

[2] مواهب الرحمن: ٦ / ٦٤.

[3] البلاغة العربية، البيان، البديع: ١١٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة:

في ختام هذه الرحلة مع تفسير مواهب الرحمن، التي اختصت بدراسة المباحث البلاغية فيه، لا بدّ من ذكر أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

ـ إنّ إشارات المفسرين إلى موضوعات البلاغة في القرآن الكريم أسهمت في تطور البحث البلاغي، خصوصاً إذا علمنا أنّ هذه الاشارات رصدت عند طبقة المفسرين الأوائل، وهذا البحث يؤكد أنّ دور المفسرين لا زال فعّالاً ومؤثراً ومهمّاً، ممّا يدعو الباحثين للكشف عنه.

ـ يظهر من تفسير مواهب الرحمن أنّ البلاغة أحد العلوم الأساسية التي تجب أن تحصل بها المعرفة من قِبل المفسّر، وإنّ تجاهلها أو تجاهل أحد مباحثها يجعل العمل الذي غرضه تفسير القرآن الكريم ناقصاً وبعيداً عن الواقع.

ـ إنّ المباحث البلاغية في تفسير مواهب الرحمن كانت مبثوثة ومتفرقة في ثنايا التفسير، وقد اعتمد عليها المفسّر كأحد أدواته الأخرى للوصول إلى معاني ومقاصد القرآن الكريم، وهذا يفسّر كون البلاغة من المعاجز التي يتصف بها كتاب الله عزّ وجلّ.

ـ لقد ابتعد السيّد السبزواري عن التقسيم والتصنيف، واهتم بالمبحث البلاغي، وبيان أثره في سياق النص القراني على مستوى الأسلوب وجماله، وبذا

يستطيع أن يقول البحث: أنّه سار على منهج عبد القاهر الجرجاني في دراسة المسائل البلاغية.

ـ كان للسيّد السبزواري رأيه في كلّ ما يناقش، وهو يدرك أنّ لكلّ أسلوب هدفه وغايته، لذا فعند مناقشة المسائل البلاغية كان يؤكد على الغرض أو الفائدة المستحصلة منه.

ـ كان السيّد السبزواري عند تعيينه الأغراض المجازية للمباحث البلاغية يمتلك حسّاً وذوقاً بلاغياً، وكان يؤكّد على مناسبة الغرض لسياق النص القرآني، فهو قد يتفق أو يخالف علماء البلاغة أو المفسرين في الإشارة إلى هذه الأغراض المجازية، وأحياناً يذكر أغراضاً جديدة لم يلحظها من كان قبله، كلّ ذلك مشفوع بذوق بلاغي رفيع وقدرة على التمييز بين الأساليب.

ـ كان تأكيد صاحب المواهب على السياق القرآني واضحاً، فهو لا يعين مورداً من موارد البلاغة أو يكشف عن فائدته البلاغية إلا بما يناسب السياق الذي جاء فيه، وأحياناً يتجاوز ذلك إلى ذكر السياق السابق أو اللاحق له.

ـ لقد اهتم السيّد السبزواري بأسلوب القرآن الكريم اهتماماً مميزاً، فهو يؤكد أنّه أسلوب مقصود وليس فيه زيادة ولا نقصان، يظهر ذلك عند مناقشته تنكير الالفاظ وتعريفها، وعند مناقشته التقديم والتأخير أو المواضع التي كشف فيها عن الاطناب والإيجاز وباقي مباحث علم المعاني.

ـ إنّ إشارات صاحب المواهب في مباحث علم البيان لم تكن مقتضبة، وإنّما كان يسمّي المبحث بأسمه ويبين أهميته والغرض منه فضلاً عمّا يسبغ من جمال على القول الإلهي.

ـ إنّ تأكيد السيّد السبزواري على مباحث علم البديع وبيانها في المواضع المناسبة والإشارة إلى أنّها من المحسّنات البديعية أو من محسنات الكلام، لا يخفي معها أنّ لها دوراً في بلوغ المعنى القرآني، ففضلاً عن أنّها تسبغ على الأسلوب ثوباً من التزيين، فإنّ لها أثراً مهمّاً في انتاج المعنى، لذا فهي تعد دليلاً للوصول إلى المعنى الشريف.

ـ إنّ لغة صاحب المواهب في كشفه البلاغي، لغة أدبية شفّافة، تمتاز بالحياد والتجرد، وتستشف من خلالها أنّه كان يبحث عن الحقيقة، حقيقة المعنى العميق للآيات الشريفة، مترفعاً عن الأهواء والعصبية.

لذا فبحثه البلاغي بحث علمي واقعي يخدم المهتمين بشؤون القرآن الكريم والمهتمين بشؤون البلاغة وتطور أساليبها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

* الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت: ٩١١ هـ) ضبطه وصححه وخرّج آياته: محمّد سالم هاشم، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة فخر الدين (د ـ ت).

* أثر النحاة في البحث البلاغي: د. عبد القادر حسين، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة ـ قطر، ط١، ١٩٨٦ م.

* أساس البلاغة: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٥ م.

* أساليب بلاغية (الفصاحة، البلاغة، المعاني) د. أحمد مطلوب، دار غريب للطباعة ١٩٨٠ م.

* أساليب البيان في القرآن: سيّد جعفر الحسيني، مؤسسة الطباعة والنشر (طهران) ط١، ١٤١٣ هـ.

* أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: د. قيس إسماعيل الاوسي، مطبعة بيت الحكمة بغداد، ١٩٨٨ م.

* الاستهلال، فن البدايات في النص الأدبي: ياسين النصير، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد، ط١، ١٩٩٣ م.

* أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)، شرح وتعليق الدكتور محمّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط٣، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

* أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة: د. محمّد حسين علي الصغير، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦ م.

* الأصول في النحو: لأبي بكر بن السرّاج، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، النجف ١٩٧٣ م.

* إعجاز القرآن: لأبي بكر محمّد بن الطيب الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ)، تحقيق: السيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٣، (د ـ ت).

* ألطاف الباري من نفحات الإمام السبزواري: السيّد عبد الستار الحسيني، مطبعة الكوثر ط٣، ٢٠٠٤ م.

* أنوار الربيع في أنواع البديع: السيّد علي صدر الدين بن معصوم المدني (ت: ١١٢٠ هـ) حققه وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف، ط١، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

* الايضاح في علوم البلاغة: لجلال الدين محمّد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) مطبعة محمّد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧١م

* بحث حول الدعاء: السيّد عبد الأعلى السبزواري: مكتبة دار المهذب، النجف الأشرف سوق الحويشي، ط١، ١٤٢٥ هـ.

* بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المنعقد ببغداد، ١٩٩٠ م، مطبعة الأمة، بغداد ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

* البديع: عبد الله ابن المعتز (ت: ٢٩٦ هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة

والفهارس: اغناطيوس كراتشفوفسكي، مطبعة المثنى، (د. ت).

* البديع في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٩ م.

* البديع في نقد الشعر: أسامة بن منقذ (ت: ٥٤٨ هـ)، مكتبة المثنى ـ بغداد (د ـ ت).

* بديع القرآن: ابن أبي الاصبع المصري (ت: ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق: د.حنفي محمّد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٥٧ م.

* البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشي (ت:٧٩٤ هـ)، قدم له وعلّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

* البلاغة: لأبي العباس محمّد بن يزيد المبرد (ت: ٢٨٥ هـ)، تحقيق: رمضان عبد التواب مكتبة الثقافة، ط٢، ١٩٨٥ م.

* البلاغة تطوّر وتاريخ: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د ـ ت).

* بلاغة الصورة القرآنية، الجماليات والتجليات: د. صادق سعد شبلي، دار البراق ـ القاهرة (د ـ ت).

* البلاغة العربية: د. سعد سليمان حموده، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥ م.

* البلاغة العربية (البيان والبديع): د. ناصر حلاوي، د. طالب محمّد الزوبعي، مطبعة جامعة بغداد ـ بغداد، ٩٩١ م.

* البلاغة العربية بين التقليد والتجديد: د. محمّد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الجيل ـ بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م.

* البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمّد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر، الأردن ـ عمان، ط١، ٢٠٠٣ م.

* البلاغة عند الجاحظ: د. أحمد مطلوب، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

* البلاغة عند السكاكي: د. أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة دار التضامن ـ بغداد، ط١، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م.

* البلاغة الغنية: علي الجندي، مطبعة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة (د ـ ت).

* البلاغة والأسلوبية: د. محمّد عبد المطلب، الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٤ م.

* البلاغة والتطبيق: د. أحمد مطلوب، د. كامل حسن البصير، الجمهورية العراقية، ط١ ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

* البلاغة وقضايا المشترك اللفظي: د. عبد الواحد حسن الشيخ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، ١٩٨٦ م.

* بناء الصورة الفنية في البيان العربي: د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

* البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ مصر، ط٥، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

* البيان العربي (دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى): د. بدوي طبانه، دار العودة ـ بيروت، ط٥، ١٩٨٢ م.

* تاريخ البلاغة العربية: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٠ م.

* تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبه، عبد الله بن مسلم، شرحه ونشره: السيّد أحمد صقر المكتبة العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨١ م.

* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لابن أبي الاصبع المصري (ت: ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق: د. حنفي محمّد شرف، مطابع شركة الاعلانات الشرقية القاهرة، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

* تطور البحث الدلالي (دراسة في النقد البلاغي واللغوي): د. محمّد حسين علي الصغير دار الكتب العلمية ـ بغداد، ط١، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

* تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية: د. عمر الملا حويش، مطبعة الأمانة ـ بغداد، ١٩٧٢ م.

* التعبير القرآني (رؤية بلاغية نقدية): د. شفيع السيّد، دار الفكر العربي، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

* التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره ١٩٨٦ م ـ ١٩٨٧ م.

* التعريفات: لأبي الحسن علي بن محمّد بن علي الجرجاني (٧٤٠ هـ)، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي: ١٩٨٥ م.

* التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، منشورات دار التفسير، قم ـ ايران، ط٣، (د.ت).

* تلخيص التمهيد (موجز دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن

الكريم): محمّد هادي معرفة، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ط٢)، ١٤٢٢ هـ.

* التلخيص في علوم البلاغة: لجلال الدين محمّد بن عبد الرحمن الشافعي الدمشقي المعروف بالخطيب القزويني، حقّقه وشرحه وأعد فهارسه: د. عبد الحميد هنداوي منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.

* تهذيب السعد ترتيب لكتاب (مختصر المعاني): مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني (ت: ٧٩١ هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الحجازي مصر ط٣، ١٩٥٠ م.

* جامع البيان عن تأويل القرآن: لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) حققه وعلّق عليه: محمود محمّد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمّد شاكر، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ م.

* الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: لأبي الفتح ضياء الدين بن الاثير تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.

* جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال دار الحرية للطباعة، بغداد، ط١، ١٩٨٠ م.

* جمال السالكين، العالم الرباني السيّد عبد الأعلى السبزواري: السيّد حسين بجيب محمّد منشورات دار التفسير، قم ـ ايران، ط١، ١٣٨٥ هـ.

* جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، دار احياء التراث العربي بيروت ـ لبنان (د ـ ت).

* حلية المحاضرة في صناعة الشعر: لأبي علي محمّد بن الحسن بن المظفر الحاتمي تحقيق: د. جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٧٩ م.

* الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد سلام هارون، مطبعة مصطفى الباب الحلبي وأولاده، القاهرة، ط٢، ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م.

* خزانة الأدب وغاية الإرب: تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي (ت: ٨٣٧ هـ)، شرح: عصام شعيتو، دار الهلال ـ بيروت، دار البحار، ٢٠٠٤ م.

* الخصائص: لأبي الفتح عثمّان بن جني (ت: ٣٩٢ هـ): تحقيق: محمّد علي النجار، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، (د ـ ت).

* دراسات بلاغية ونقدية: د. أحمد مطلوب، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.

* دلائل الإعجاز في علم المعاني: لعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)، صحح أصله الشيخ محمّد عبده، والشيخ محمّد محمود التركزي الشنقيطي، وعلّق على حواشيه السيّد محمّد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان. ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

* ديوان امرؤ القيس: تحقيق: محمّد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط٣، ١٩٦٩ م.

* ديوان جرير: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م.

* ديوان شعر ذي الرمّة، غيلان بن عتبة العدوي: عُني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري هيس مكارتني، طبع على نفقة كلية كمبريج، ١٩١٩ م.

* ديوان النابغة الذبياني: جمع وتحقيق: الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦ م.

* الرمزية في الأدب العربي: د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة (د ـ ت).

* الروض المربع في صنع البديع، ابن البناء المراكشي العددي، تحقيق: رضوان بنشقرون دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥ م.

* سر الفصاحة: لأبي عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦ هـ) شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمّد علي صبيح وأولاده. ١٩٦٩ م.

* شرح ابن عقيل: لقاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل (ت: ٧٦٩ هـ) على ألفية الإمام أبي عبد الله محمّد جمال الدين بن مالك (ت: ٧٧٢ هـ)، ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة أمير، قم (د ـ ت).

* شرح ديوان العجاج، تحقيق: د. عزة حسن، لبنان، ١٩٧١ م.

* شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان: لجلال الدين السيوطي، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م.

* شروح التلخيص في علوم البلاغة: لجلال الدين الخطيب القزويني، تحقيق: محمّد هاشم دويدري، القاهرة، ١٩٣٧ م.

* الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥ هـ) حقّقه وقدّم له: مصطفى الشويمي، مطبعة مؤسسة بدران،

بيروت ـ لبنان (د ـ ت).

* صفحة من حياة الامام السبزواري: السيّد محمّد حسن الطالقاني، مطبعة الكوثر النجف ـ العراق، ط١، ١٤٢٥ هـ.

* الصورة الفنية في المثل القرآني: د. محمّد حسين علي الصغير، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٨١ م.

* الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت: ٧٤٩ هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق: محمّد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م.

* عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده: د. أحمد مطلوب، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

علم البديع: د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٠ م.

* علم البيان: دراسة تاريخية فنّية في أصول البلاغة العربية: د. بدوي طبانه، مطبعة مكتبة الانجلو المصرية، ط٢، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

* علم البيان (دراسة تحليلية لمسائل علم البيان): د. بسيوني عبد الفتاح فيّود، دار المعارف الثقافية، الاحساء، ط٢، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

* علم المعاني: د.عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

* علم المعاني (دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني): د. بسيوني عبد الفتاح فيّود دار المعارف الثقافية، الاحساء للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٨ م.

* علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم دراسة بلاغية: د. مختار

عطية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية، ٢٠٠٤ م.

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٤٥٦ هـ) تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ـ لبنان، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

* عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين الأصغر الداوودي الحسني (ت: ٨٢٨ هـ)، من منشورات المكتبة الرضوية، النجف ـ العراق، ١٣٣٧ هـ ـ ١٩١٨ م.

* عيار الشعر: أحمد بن طباطبا العلوي (ت: (٣٢٢ هـ)، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، ومراجعة: نعيم زرزور، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م.

* فن الجناس (بلاغة ـ أدب ـ نقد)، د. علي الجندي، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٤ م.

* الفن الرمزي: هيغل، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٩ م.

* الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب: نور الدين عبد الرحمن الجامي (ت: ٨٩٨ هـ) دراسة وتحقيق: د. أسامة طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق ط٢، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

قواعد الشعر: ثعلب (ت: ٢٩١ هـ) شرحه وعلّق عليه محمّد عبد المنعم خفاجي مطبعة الباب الحلبي، ط١، ١٩٤٨ م.

* الكافي: لثقة الإسلام الكليني (ت: ٣٢٩ هـ) دار الكتب الاسلامية،

طهران، ط٤، ١٣٦٥ هـ.

* الكامل في اللغة والأدب: لأبي العباس محمّد بن يزيد المبرد، تحقيق: د. زكي مبارك، مكتبة ومطبعة الباب الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٣٦ م.

* الكتاب: لأبي بشر عمرو بن عثمّان بن قنبر الملقب بسيبويه (ت: ١٨٠ هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

* كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: لأبي هلال الحسن بن عبد الله سهل العسكري (ت: ٣٩٥ هـ) تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٢ م.

* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمّد الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.

* لسان العرب: جمال الدين أبي الفضل محمّد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت: ٧١١ هـ)، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، (د ـ ت).

* اللغة العربية، معناها ومبناها: د. تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

* المبادئ العامّة لتفسير القرآن الكريم: د. محمّد حسين علي الصغير، مطبعة مكتبة الرواد بغداد، ١٩٨٢ م ـ ١٩٨٣ م.

* المبالغة في البلاغة العربية (تاريخها، مصادرها): علي سرحان القرشي، مطبعة المعارف بغداد، ط١، ١٩٦٩ م.

* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٧ هـ)، قدّم له وحقّقه وشرحه وعلّق عليه: د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانه، دار الرفاعي، الرياض ط٢، ١٩٨٤ م.

* مجاز القرآن: لأبي معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩ هـ)، تحقيق: د. محمّد فؤاد سزكين، دار الفكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٠ م.

* مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت: ٥١٨ هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط٢، ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م.

* مجمع البيان في تفسير القرآن: للشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي صححه وحقّقه وعلّق عليه الحاج السيّد هاشم الرسول المحلّاني، دار احياء التراث العربي، بيروت لبنان، ١٣٧٩ هـ.

* مستدرك الوسائل: المحدّث النوري (ت: ١٣٢٠ هـ)، الناشر مؤسسة آل البيت، قم، ط١ ١٤٠٨ هـ.

* المشجر الوافي في السلسلة الموسوية: حسين السيّد علي أبو سعيدة الموسوي، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٤٢٦ هـ ـ ١٩٩٦ م.

* المصباح في المعاني والبيان والبديع، لأبي عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي الشهير بابن الناظم (ت: ٦٨٦ هـ) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

* المطوّل، شرح تلخيص المفتاح: للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: ٧٩٢ هـ)، صححه وعلّق عليه: أحمد عزّو بمانه، دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

* المعاني في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، طبعة دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٨ م.

* معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي محمّد علي النجار، طهران، (د ـ ت).

* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م.

* معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الاعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ.

* مع المقدس السبزواري في قبسات من مواهبه: السيّد محمّد تقي الحجار، منشورات مكتبة المهذب، النجف العراق، ١٤٢٠ هـ.

* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لأبي محمّد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١ هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، (د ـ ت).

* مفتاح العلوم: لأبي يعقوب يوسف بن محمّد بن علي السكاكي (ت: ٦٢٦ هـ)، تحقيق: أكرم عثمّان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢ م.

* المقتصر في شرح الايضاح: لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. كاظم بحر

المرجان منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٢ م.

* المقتضب: لأبي العباس محمّد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمه، القاهرة ١٣٨٦ هـ.

* من أسرار البلاغة: د. محمّد السيّد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

* من بلاغة القرآن الكريم: أحمد أحمد بدوي، مطبعة دار نهضة مصر، القاهرة ٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م.

* من بلاغة النظم العربي (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني): د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م.

* منهج السيّد عبد الأعلى السبزواري في التفسير: د. عبدالرؤوف عبد الغفور النجف، العراق، (د ـ ت).

* مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للسيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، نشر دار التفسير، مطبعة شريعت، ط٢، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م.

* مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: لأبي العباس أحمد بن محمّد أبي يعقوب المغربي (ت: ١١١٠ هـ)، تحقيق: د. خليل إبراهيم خليل، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م.

* الميزان في تفسير القرآن: محمّد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران ط٢، ١٣٨٩ هـ.

* نقد الشعر: لأبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي (ت: ٣٣٧ هـ)، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، (د.ت).

* النكت في إعجاز القرآن: للرماني (ت: ٣٨٦ هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حقّقها وعلّق عليها: محمّد خلف الله ومحمّد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨٦ م.

* نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: ٧٣٣ هـ) تصحيح: أحمد الزين، دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (د ـ ت).

* نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز: محمّد بن عمر فخر الدين الرازي، تحقيق وتقديم: د. إبراهيم السامرائي و د. محمّد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ١٩٨٥ م.

* الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت: ٣٩٠ هـ) تحقيق، محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، (د ـ ت).

«الرسائل الجامعية»

* البحث البلاغي في تفسير الميزان، رياض خلف خزي المرشدي، رسالة ماجستير، قدمت إلى مجلس كلية التربية / جامعة القادسية، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

* المصطلح البلاغي عند ابن أبي الاصبع المصري في كتابيه تحرير التحبير وبديع القرآن سالم إبراهيم الأحمد، رسالة ماجستير، قدمت إلى مجلس كلية الآداب / جامعة بغداد ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

فهرس المحتويات

المقدمة ٩
التمهيد ١٥
١ ـ تعريف بصاحب المواهب ١٥
اسمه ونسبه ١٥
ولادته ونشأته ١٦
مقامه العلمي ١٧
شيوخه وأساتذته ١٨
تلاميذه ٢٠
مؤلفاته المطبوعة ٢١
آثاره المخطوطة ٢١
وفاته ٢٢
٢ـ التفسير والبلاغة ٢٢

الفصل الأول مباحث علم المعاني

علم المعاني ٣٥
المبحث الأول: الخبـر ٣٩

توكيد الخبر ٤٢
الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر ٤٤
التهديد ٤٤
النهي ٤٦
التسلية ٤٧
التحسر ٤٧
التعظيم ٤٨
الأمر ٤٩
الوعيد ٥٠
الإرشاد ٥١
التوبيخ ٥٢
المبحث الثاني: الإنشاء ٥٤
الأمر ٥٧
الدعاء ٥٨
الاباحة ٥٩
التعجيز ٦٠
التهديد ٦١
الارشاد ٦٢
الحث ٦٣

التحذير ٦٣
التوجيه ٦٤
النهي ٦٥
الارشاد ٦٦
التعظيم ٦٧
الدعاء ٦٨
التنزيه ٦٩
التحريم ٧٠
التوبيخ ٧١
الاستفهام ٧٢
الإنكار ٧٣
التعجب ٧٤
التقرير ٧٥
الاستبعاد ٧٦
الأمر ٧٧
النفي ٧٨
التوبيخ ٧٩
التقريع ٨٠
المبحث الثالث: التقديم والتأخير ٨٣

التشريف ٨٤
التخصيص ٨٥
السبق ٨٦
التشويق ٨٧
الشيوع ٨٨
الاهتمام ٨٨
التقديم والتأخير معاً ٩١
المبحث الرابع: التعريف والتنكير ٩٥
التعريف بالإضافة ٩٥
التشريف ٩٥
التعظيم ٩٦
العناية ٩٧
التعريف بالإشارة ٩٩
التعظيم ٩٩
التحقير ١٠١
التنكير ١٠٢
التعظيم ١٠٣
التحقير ١٠٣
التهويل ١٠٤

التفخيم ١٠٥
التعميم ١٠٦
التعريف والتنكير معاً ١٠٧
المبحث الخامس: التغليب ١١١
المبحث السادس: القصـر ١١٤
النفي والاستثناء ١١٥
القصر بـ(إنّما) ١١٦
التقديم ١١٦
المبحث السابع: الفصل والوصل ١١٩
المبحث الثامن: وضع الظاهر موضع المضمر ١٢٣
المبحث التاسع: الإيجاز والاطناب ١٢٨
الإيجاز ١٢٨
إيجاز الحذف ١٣٠
حذف المضاف ١٣١
حذف المبتدأ ١٣٢
حذف الخبر ١٣٣
حذف المفعول ١٣٤
حذف جواب (لو) ١٣٥
الاطناب ١٣٦

١ ـ ذكر الخاص بعد العام ١٣٩
التأكيد والتعظيم ١٣٩
الاهتمام والترغيب ١٤٠
لبيان الشمول والاستيعاب ١٤٠
٢ ـ التكرار ١٤١
التأكيد ١٤٢
الترغيب ١٤٣
التعظيم ١٤٤

الفصل الثاني

مباحث علم البيان

علم البيان ١٤٩
المبحث الأول: الحقيقة والمجاز ١٥٣
المبحث الثاني: التشبيه والتمثيل ١٦٥
التشبيه ١٦٥
تشبيه التمثيل ١٧٦
المبحث الثالث: الاستعارة ١٨٠
المبحث الرابع: الكناية والتعريض ١٩٤
الكناية ١٩٤
التعريض ٢٠٤

الفصل الثالث

مباحث علم البديع

علم البديع ٢١١
المبحث الأول: المحسنات المعنوية ٢١٦
المقابلة ٢١٦
المبالغة ٢٢٢
المبالغة في الذم ٢٢٥
المبالغة في النهي ٢٢٥
المبالغة في التنزيه ٢٢٧
المبالغة في الترك ٢٢٨
المبالغة في التنفير ٢٢٩
المبالغة في الوعيد والتهديد ٢٣٠
الالتفات ٢٣١
تنبيه المخاطب ٢٣٦
التوبيخ ٢٣٨
التعظيم ٢٣٨
اللوم والعتاب ٢٣٩
التسلية ٢٤١
الترغيب ٢٤٢

المشاكلة ٢٤٣
الاستخدام ٢٤٥
الإبهام ٢٤٨
المبحث الثاني: المحسنات اللفظية ٢٥٢
الجناس ٢٥٢
رد العجز على الصدر ٢٥٥
براعة الاستهلال ٢٥٧
الاعتراض ٢٦٢
الخاتمة ٢٦٩
المصادر والمراجع ٢٧٣
فهرست المحتويات ٢٨٩